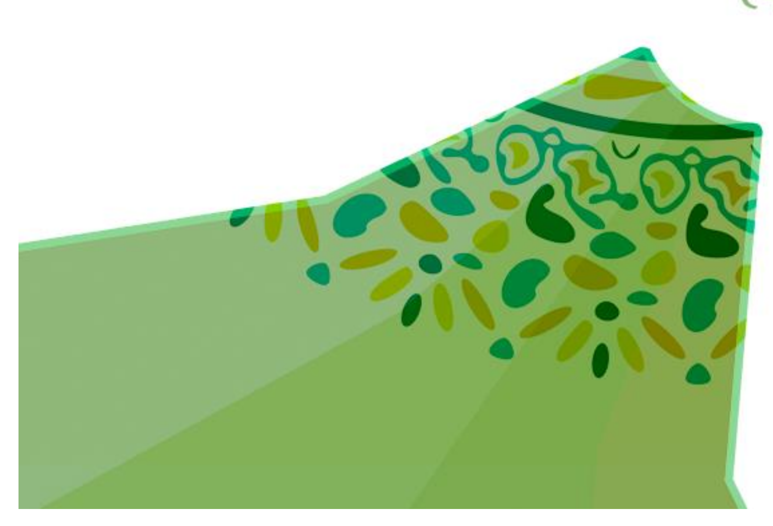
مجموع مقالات ودراسات

محمد خير رمضان يوسف

الجزء الرابع



مجموع مقالات ودراسات

محمد خير رمضان يوسف

الجزء الرابع

(علوم الحديث، العلوم الاجتماعية والسياسية، اللغة، الطب، الأدب، التاريخ والتراجم)

النشرة الأولى

جمادى الأولى ١٤٣٩ هـ

النشرة الثانية

شوال ١٤٤١ هـ

ثالثًا: علوم الحديث

(١)
الحديث يشرح الحديث

كما أن القرآن يفسَّرُ بالقرآن، وهو أعلى درجات التفسير، فكذلك يفسَّرُ الحديثُ بالحديث، وهو من أعلى درجاته كذلك، ويسبقه تفسيره بالقرآن الكريم.

ويكون ذلك من قبيل المجمَل والمبيَّن، والمطلق والمقيَّد، حسب حالِ الحديث ومجرى الكلام.

فهناك أحاديث قد تكون مشـــكلة، أو غامضـــة، غير واضـــحة، فتأتي أحاديث أخرى في الموضوع نفسه تبين ما غمض منها وتزيل إشكالها.

وهذه جولة قريبة، في إيجاز واختصـــار، بين ثلاثة أحاديث، مازال العلماء وشـــرَّاح الحديث يقلبون بعضها على وجوهها، ويوردون خلافاتها، وقد وردت أحاديث تبيِّن المراد منها.

وأولها: حديث مرض النبي صلى الله عليه وسلم وطلبه أن يكتب كتابًا...

ففي حديث الشيخين (البخاري ١١٤، مسلم ١٦٣٧):

عن ابن عباس قال: لما اشتدَّ بالنبيِّ صلى الله عليه وسلم وجعهُ قال: "**ائتوني بكتابٍ أكتبْ لكم كتابًا لا تَضِلُّوا بعده**".

قال عمر: إنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم غلبَهُ الوجع، وعندنا كتابُ اللهِ حسبُنا.

فاختلفوا، وكثرَ اللغط.

قال: "**قوموا عني، ولا ينبغي عندي التنازع**".

فخرجَ ابنُ عباس يقول: إن الرزيَّةَ كلَّ الرزيَّة، ما حالَ بين رسولِ الله صلى الله عليه وسلم وبين كتابه. اهـ.

قلت: الله سبحانه وتعالى أعلم بما كان سيمليه رسوله صلى الله عليه وسلم، ولكن يستنتج من الحديث التالي أن يكون المقصود هو تعيين الخليفة من بعده.

وسواء صحَّ هذا الاستنتاج أو لم يصح، فإنه قد ورد في حديث تعيين الخليفة، أو إرادةُ تثبيته.

والحديث رواه مسـلم في صـحيحه (٢٣٨٧). كما رواه ابن حبان (٦٥٩٨)، والبيهقي في السنن الكبرى (١٦٣٦٥)، ورواه البخاري بمعناه، وهو:

عن عائشةَ قالت: قالَ لي رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في مرضه:

"ادعِي لي أبا بكرٍ وأخاكِ حتى أكتبَ كتابًا، فإني أخافُ أنْ يتمنَّى متمنٍّ ويقولَ قائل: أنا أَولَى. ويأبَى اللهُ والمؤمنون إلّا أبا بكر".

والمعنى واضح، وقوله: "**ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر**" صريح جدًّا كما يلمسه القارئ.

وممن انتصر لهذا الرأي سفيان بن عيينة رحمه الله، كما أفاده الحافظ ابن حجر في الفتح ٢٠٩/١.

وقد أوردَ ابن حجر هنا ما يُعترض به عليه، وهو أنه عليه الصلاة والسلام لم يكتبه، وكان قولها ذاك في أوائل مرضه.

قلت: قد نصَّ على اسمه في كلامه، أفلا يثبتُ الحكمُ بذلك؟

كما ذكر – رحمه الله – فيما يخص الحديث الأول، أنه عليه الصلاة والسلام عاش أيامًا ولم يعاودْ أمرهم بذلك، ولو كان واجبًا لم يتركه لاختلافهم، لأنه لم يترك التبليغ لمخالفة من خالف.

وهذا كلام قويّ، نفيس، يُرفَعُ به العتبُ عن عمر رضي الله عنه.

*** *** ***

وثانيها: حديث الدعاء المستجاب في ساعة من الجمعة.

ففي الصحيحين، قوله صلى الله عليه وسلم: "**إن في الجمعةِ لساعةً لا يوافقها مسلمٌ يسألُ الله فيها خيرًا إلا أعطاه إياه**".

البخاري (٨٩٣)، مسلم (٨٥٢).

وقد اختلف العلماء في تحديد هذا الوقت، وذهب كثير منهم إلى أنه من بعد العصر إلى ما قبل غروب شمس الجمعة، بينما تم تحديده في حديث آخر صحيح رواه مسلم في صحيحه (٨٥٣) من حديث أبي بردة بن أبي موسى الأشعري قال:

قال لي عبدالله بن عمر: أسمعتَ أباكَ يحدِّثُ عن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم في شأن ساعةِ الجمعة؟

قال: قلت: نعم، سمعته يقول: سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول: "**هي ما بين أن يجلسَ الإمامُ إلى أن تُقضَى الصلاة**".

وفي شرحه على صحيح مسلم (١٤١/٦) أورد الإمام النووي الآراء والاختلافات في توقيت الدعاء يومها، ثم قال: الصوابُ ما رواه مسلم من حديث أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنها ما بين أن يجلسَ الإمامُ إلى أن تُقضَى الصلاة.

*** *** ***

وثالثها: سنة صلاة الفجر.

فقد ورد فيها من قولِ أمِّنا عائشة رضي الله عنها:

"**أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم لم يكنْ على شيءٍ من النوافلِ أشدَّ معاهدةً منه على ركعتينِ قبلَ الصبح**". (صحيح مسلم (٧٢٤).

وهل يُفهمُ من هذا أنه عليه الصلاةُ والسلامُ كان يُطيل فيهما؟

ليس في الحديثِ ما يدلُّ على قصرِ الركعتينِ أو طولهما.

ولكن ورد في قولٍ آخرَ لها رضي الله عنها، أن المقصودَ التخفيف، وذلك في صحيح البخاري (١١١٨): "**كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم يخفِّفُ الركعتينِ اللتينِ قبلَ صلاةِ الصبح، حتى إني لأقول: هل قرأ بأمِّ الكتاب**"؟.

فهذا الحديثُ وضَّح ذاك.

(٢)
صراحة الرسول صلى الله عليه وسلم

مقدمة

في سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم حوادث وعبر كثيرة، فهي مدرسة تربوية يستلهم منها المسلمون في كلِّ عصر الأحكام والإرشادات التي تناسبهم، وكنت أتمنى أن تكون هناك دراسة موضوعية للسيرة النبوية كلها، وأعني (السيرة النبوية الموضوعية) كما هو (التفسير الموضوعي للقرآن الكريم)، ويكون فيها ترتيب الوقائع والأحداث وما صاحبها من أخبار حسب موضوعاتها وليس زمنياً، مثل موضوع الجهاد، والصلاة، والآداب، والعقائد، والمعاملات، ومسائل أخرى. والتعليق عليها والاستفادة منها يكون من قبيل (فقه السيرة).

وقد جاء هذا الاقتراح (المهم) عرَضًا في هذا الموضوع الذي أكتبه، وقد لاحظت في جوانب من السيرة العطرة مواقف كان تصريح رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها برداً وسلاماً على المجتمع، في مكة والمدينة، وكان بيانهُ لأمورٍ (حسّاسةٍ) تعتلجُ في الصدور إزالةً لإحَن، ولو لم يعالجها بذلك الأسلوب وتلك الصراحة لأدى ذلك إلى انشقاقات وتصرفات غير محمودة في المجتمع الإسلامي. وكثير من الدعاة والقادة والمسؤولين يتغاضون عن معالجة أمثالها من الحوادث، أو أنهم يعالجونها (بغير صراحة)، ربما حفاظاً على الصف المسلم وحساسية بعض فئات المجتمع منها، ولكن بيانها ومعالجتها بحكمة، وبالأسلوب النبوي الكريم، يفرّغ شحنات متراكمة في النفس، ويزيل عنها نظرات خاطئة وتشنجات في غير محلها، فكان بيانها أفضل.

مع الأنصار

- من ذلك صراحته صلى الله عليه وسلم في موقف من سيرته النبيلة مع الأنصار، حين وجدوا عليه في أنفسهم بعد فتح حُنين، حيث قسم عليه الصلاة والسلام الفيء في المؤلفة قلوبهم وأعطى العطايا في قريش وقبائل العرب ولم يجعل للأنصار منها شيئًا، حتى جاء سعد بن عبادة رضي الله عنه وذكر له ما يدور بينهم من حديث حول ذلك، ووجد سعدًا نفسه مثلهم، ويقول: ما أنا إلا امرؤ من قومي!

فطلب عليه الصلاة والسلام أن يجمعهم، فجمعهم وخطب فيهم قائلاً: "**يا معشرَ الأنصار، ألمْ آتكمْ ضُلاّلاً فهداكمُ الله عزَّ وجلَّ بي؟ ألم آتكمْ متفرِّقينَ فجمعكمُ الله بي؟ ألم آتكمْ أعداءً فألَّفَ الله بين قلوبكم بي**"؟

قالوا: بلى يا رسول الله.

قال: "**أفلا تقولون: جئتنا خائفًا فآمنَّاك، وطريدًا فآويناك، ومخذولاً فنصرناك**"؟

قالوا: بل لله تبارك وتعالى المنُّ به علينا ولرسوله صلى الله عليه وسلم.

ويأتي الحديث بروايات متعددة، وبطول وقصر، وأصله في الصحيحين، ولفظه من مسند أحمد (١٢٠٤٠) وصححه الشيخ شعيب على شرط مسلم.

والشاهد في حديثه وبلاغته الصريحة عليه الصلاة والسلام أنه لم يقتصر على ذكر فضله عليهم، بل ذكر فضلهم عليه أيضًا، وعدَّد وجوه هذا الفضل، كما عدَّد وجوه فضائله عليهم. وهذا كله يسلُّ سخيمة الغضب والحقد من نفوسهم، حتى لا يبقى فيها شيء، بل قالوا مطمئنين مستحيين: المنُّ به علينا ولرسوله صلى الله عليه وسلم.

وهكذا ينبغي أن يكون القائد والمسؤول والداعية، أن يذكروا الحقَّ مما عندهم وعند غيرهم.

الغَيرة على محارم الله

- وكلُّ ما ورد من غيرته صلى الله عليه وسلم على الدين فيها صراحة وافية، وقد وصفته أمُّنا عائشة رضي الله عنها بقولها: ما رأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم منتصرًا من ظلامةٍ ظُلِمَها إلا أن يُنتهَكَ من محارمِ الله شيء، فإذا انتُهِكَ من محارمِ الله شيءٌ كان أشدَّهم في ذلك. (رواه أبو يعلى في مسنده بإسناد صحيح كما أفاده محققه "٤٤٥٢").

من ذلك ما كان من شأن المرأة المخزومية التي سرقت، وعرف قومها أن يدها ستُقطع، فهرعوا إلى حِبِّ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم أسامة بن زيد يستشفعونه، فما كان منه رضي الله عنه إلا أن ذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لأجل ذلك، فتلوَّن وجهه عليه الصلاة والسلام وقال له: "**أتكلِّمُني في حدٍّ من حدودِ الله**"؟ فعرف أسامة أنه أخطأ، فقال: استغفرْ لي يا رسولَ الله.

فلمّا كان العشيُّ قامَ رسولُ الله خطيبًا، فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال: "**أما بعد، فإنما أهلكَ الناسَ قبلَكم: أنهم كانوا إذا سرقَ فيهم الشريفُ تركوه، وإذا سرقَ فيهم الضعيفُ أقاموا عليه الحدَّ، والذي نفسُ محمدٍ بيده، لو أن فاطمةَ بنتَ محمدٍ سرقتْ لقطعتُ يدَها**". ثم أمرَ رسولُ الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بتلك المرأةِ فقُطعت يدُها، فحسنتْ توبتُها بعد ذلك وتزوجت. قالت عائشةُ: فكانت تأتي بعد ذلك، فأرفع حاجتها إلى رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم. (الحديث في صحيح البخاري ٤٠٥٣ وغيره)

الوفاء لصاحبه صلى الله عليه وسلم

كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه أعظم وأنجب صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأحبَّهم إليه، وكان عليه الصلاة والسلام يصرّح بهذا أمام الآخرين، كما يصرّحُ

بحبِّه لابنته. وها هو ذا عمرو بن العاص يأتيه ويسأله عن أحبِّ الناسِ إليه (رجاء أن يكون من أوائل من يذكرهم) فيقول عليه الصلاة والسلام: "**عائشة**". قال عمرو: من الرجال؟ قال: "**أبوها**" (صحيح البخاري ٤١٠٠).

وكان وفيًا له، لا يقبلُ كلامًا فيه، وقد حدث بين أبي بكر وعمر خلاف، فندم أبو بكر، وطلب من عمر المغفرةَ فأبى، فجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبرهُ بما جرى، فجعل وجهُ النبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم يتمعَّرُ، حتى أشفقَ أبو بكرٍ، فجثا عمرُ على ركبتَيه فقال: يا رسولَ الله، واللهِ أنا كنتُ أظلَمَ، مرتين، فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: "**إن اللهَ بعثَني إليكم فقلتُم كذبْتَ، وقال أبو بكرٍ صدَق. وواساني بنفسهِ وماله، فهل أنتم تاركو لي صاحبي**"؟ مرتين، فما أوذيَ بعدها. (صحيح البخاري ٣٤٦١).

الحكمة والسياسة

وكان المنافقون عقبةً كبيرةً أمام الدعوة، ويفعلون الأفاعيل لهدم الدين من الداخل، وتفكيك مجتمع المسلمين، وإضعاف قوتهم، ومع ذلك فإن الرسول صلى الله عليه وسلم بحكمته وسياسته تجنَّبَ الصدامَ بهم، وحافظ على أمن المدينة وأهلها، وتجاوز هذه العقبة بالصبر والحِلم والكلمة الحسنى، وقابل مكرهم بالأناة والمعاملة الطيبة، حتى إنه كان يستغفر لهم، إلى أن نُهِيَ عنه.

ولكن بعض الصحابة ما كان يتحمَّل هذا الموقف، وخاصة لمّا أعلن كبير المنافقين عبدالله بن أبي بن سلول أن الأعزَّ سيُخرجُ الأذلَّ من المدينة، ويعني بالأذلين رسولَ الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين، عند ذلك قال عمر الفاروق رضي الله عنه: دعني أضربْ عنقَ هذا المنافق. فقال عليه الصلاة والسلام: "**دعه، لا يتحدَّثُ الناسُ أن محمدًا يقتلُ أصحابه**". رواه الشيخان واللفظ لمسلم (٢٥٨٤).

والقيادات المسؤولة تعلم هذا جيدًا، وخاصة المحلية منها، فهي مطلعة على مكونات المجتمع وفئاته المختلفة، وتعلم أن الفتنة إذا أوقدت في الداخل صعب إطفاؤها، ولا تعود النفوس إلى طبيعتها إلى بعد عقود من الزمن، فالحلُّ يكمن في السياسة والحلم والسلم، والقتل لا يكون إلا بعد نفاد جهود في الصلح، ولا يكون إلا باستحقاق.

لا تردُّد بعد العزيمة

شاور رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أصحابه يومَ أُحُد في المقام والخروج، فرأوا له الخروج، فلمّا لبسَ لأمتَهُ وعزمَ قالوا: أقم، فلم يمِلْ إليهم بعد العزم، وقال: "**لا ينبغي لنبيٍّ يلبسُ لأمتَهُ فيضعَها حتى يحكمَ الله**" رواه البخاري (٢٨).

فالتردد نزاع يؤدي إلى التفرق والتشتت والضعف، وبعد التشاور والاتفاق تأتي العزيمة ثم التنفيذ، أما الرجوع عن ذلك بعد الإجماع أو قول الأكثرية فلا يكون مقبولاً، بل تفتيتًا للعزيمة وتضييعًا لجمع الكلمة.

وهذا درسٌ آخر لأصحاب القيادة والمراس، بأن يكونوا أصحاب عزيمة، لا تؤثر فيهم كلماتٌ خارج دائرة الإجماع أو الاجتماع.

الاعتراف بتفرُّق الأمة

وهذا أمرٌ آخر يخصُّ تفرُّق الأمة، وما سبق يخصُّ القرار القيادي.

وأمة محمد صلى الله عليه وسلم مثلُ غيرها من الأمم السابقة، يصيبها الوهن والضعف والتفرق والتشرذم كما أصابهم، لبعدهم عن دينهم كما ابتعدوا {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ} [سورة الحديد: ١٦].

ولا يخفى على الدعاة حال المعتنقين لدين الإسلام والمقبلين عليه بحرارة وحبّ وشوق، ثم إن بعضهم يصطدم نفسيًا عندما يضطلع على خلافات كثيرة بين أهل هذا الدين، عند الدعاة أنفسهم، وعند المفكرين، والفقهاء، وأئمة المساجد، والكتّاب والمؤلفين.. لكن يمكن أن يُصارَحوا بالحقيقة كاملاً، ويُقال لهم إن هناك منبعين صافيين موثوقين كل الثقة، يمكن الاعتماد عليهما كاملاً في الدين، وهما كتابُ الله تعالى، الذي لم يبدَّل ولم يحرَّف، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم الصحيحة.. ويقال إن نبيَّ هذه الأمة ذكر أن الخلاف سيصيب أمته، وأن الذي يبغي التزام الصراط المستقيم والنجاة لنفسه فليلتزم الجماعة، وهو ما رواه ابن ماجه في سننه (٣٩٩٢) وصححه في صحيح الجامع الصغير (١٠٨٢) ولفظه: "**افترقتِ اليهودُ على إحدى وسبعينَ فرقةً، فواحدةٌ في الجنة، وسبعونَ في النار. وافترقتِ النصارى على ثنتينِ وسبعينَ فرقةً، فإحدَى وسبعونَ في النار، وواحدةٌ في الجنة. والذي نفسُ محمدٍ بيده، لتفترقنَّ أمتي على ثلاثٍ وسبعينَ فرقة، واحدةٌ في الجنة، وثنتانِ وسبعونَ في النار**". قيل: يا رسولَ الله من هم؟ قال: "**الجماعة**".

كأنه شيطان!

الإسلام يحثُّ على النظافة، ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم كان نظيفًا أنيقًا، ويحثُّ على النظافة كذلك. ولكن ماذا لو ظهر واحد من المسلمين منفوش الشعر مغبرًا وكأنه خارج من قبر؟

لقد ورد في حديث مرسل رواه الإمام مالك في الموطَّأ (١٧٠٢) وغيره، عن عطاء بن يسار قوله: كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في المسجد، فدخلَ رجلٌ ثائرُ الرأسِ واللحية، فأشارَ إليه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بيده أن اخرج، كأنه يعني إصلاحَ

شعرِ رأسهِ ولحيته، ففعلَ الرجل، ثم رجع، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: "**أليسَ هذا خيرًا من أن يأتيَ أحدُكم ثائرَ الرأسِ كأنهُ شيطان**"؟

وكان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم مربيًا، يعلم أمتهُ ما يصلحهم في أمر دنياهم وآخرتهم.

انتبه عندما تأكل

قال أبو جحيفة رضي الله عنه: أكلتُ لحمًا كثيرً وثريدًا، ثم جئتُ فقعدتُ حيالَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم، فجعلتُ أتجشَّأ، فقال: "**أقصِرْ من جُشائك، فإن أكثرَ الناسِ شِبَعًا في الدنيا أكثرُهم جوعًا في الآخرة**". رواه الحاكم في المستدرك (٧٨٦٤) وحسَّنه في صحيح الجامع (١١٧٩).

وهذا درس لنا جميعًا، بأن ننتبه عندما نأكل، ونبتعد عن الطمع والجشع والشرَه، حتى لا يشتدَّ حرصنا على الأكل ويجتمع همنا عليه، فإن وراء الشبع حسابًا!

وما أجمل كلام الإمام البصري هنا: كانت بليَّةُ أبيكم آدم أكلة، وهي بليَّتكم إلى يوم القيامة!

وقبله قالت أمُّنا عائشة رضي الله عنها: إن القومَ لمّا شبعتْ بطونُهم، جمحتْ بهم نفوسُهم إلى هذه الدنيا.

كانت تلك وقفات من السنة والسيرة، مما بدا فيها صراحة واضحة، في مواقف ونصائح وأحاديث، لا تحتاج إلى فلسفة وشرح طويل، وقد جاءت مما علق منها بالذاكرة، ولو تتبعتها في كتب السنة والسيرة لجاء في حلقات أو كتاب. والحمد لله وحده.

رابعًا: العقيدة والفرق والمذاهب الفكرية

(١)

العقيدة

(أ)

قطب رحى القرآن

من أحسن ما قرأت لابن تيمية

أثناء مطالعتي لكتاب "مُختصر الفتاوى المصرية"؛ لابن تيمية – رحمه الله – وقفتُ فيه على كلام نفيس يهمُّ جانبًا خطيرًا من حياة المسلمين!

وأي شيء أخطر على المسلم من أن يُصيب عقيدته انحراف، أو يَشوبها شائبة وهو لا يدري، أو لا يرى بها بأسًا؟ ويَبقى على ما هو عليه حتى يُذكِّره مُذكِّر، أو تمضي به الحياة فلا ينتبه لها إلا عند الحساب!

نعم، قد لا ينتبه؛ لأنه – كما قلت – قد لا يعرف أنه على خطأ أو ضلال!

وقد يكون من أسباب تناولي هذا الموضوع، أنه يتعرَّض للجانب العقدي من حياة المسلم العملية، ومتى كان الموضوع يُعايش الواقع، ويُعالج مشكلةً حاضرة، كان وقعه في القلب أمضى، وكان انتباه المرء له أكثر.

المسلم الذي يعايش الواقع، ويدخل الحياة العمليَّة في جوانبها المتعددة قد تزل به قدمه إلى مآثم ومحرَّمات، ويَنجرف وراء أهوائه، ما دام الشيطان يُغريه في كل مرة، ويصمُّ أذنيه عن نداء الإيمان، وفي غمرة الحياة ومُغرياتها قد ينسى اللهَ الذي أنعم عليه بالمال أو الجاه أو السلطان، فيعتمد على نفسه وماله، ويتَّكل على أعوانه وذويه، فإن أصابته شدة التجأ إلى أفانين متعدِّدة، وتقدم بها إلى فلان وفلان، وانتظر منهم الفرج بعد تلك الشدة.

ينسى خالقه القادر المنعِم، الذي ينبغي أن يتوجه إليه أولاً، ويعلم أن بيده مفاتيح كل شيء، فما قدَّره كان، وما لم يشأ لم يكن.

وفي شكل آخر مِن خضمِّ هذه الحياة، التي تعج بالمتناقضات، وتتنوَّع فيها طبائع العباد وأساليبهم في المعاملات والأخلاق يقف المؤمن حيران بين هذه الأمواج المتلاطِمة، ويُحاول أن يُبحر فيها بسفينة النجاة، لئلا يتلوث ويناله إثم الحرام، وليعيشَ نقيَّ العقيدة صافي الجنان، بين منحرِفين لا يعرفون حقيقة كرامة الإنسان، ولا يقيمون وزنًا لمبادئ الإسلام.

ويَرتطم العبد المؤمن بأنواع من الناس يقفون عائقًا أمام آماله، ويُعقِّدون معاملاته، ويكدِّرون عليه صفو عيشه، عندها تتراكم عليه الهموم، ويُحاول أن يُجليها بذكر الله، ويتجه نحو عدل الرحمن، ويُذكِّر نفسه بأن مشيئة الله فوق كل شيء.

ولكن قد تخونه نفسه أحيانًا، وقد لا يُطاوعه قلبه في البقاء على ما هو عليه من رجاء الله، وتعلُّق قلبه به وحده، فيتَّجه نحو العباد، ويعلِّق قلبه بهم، وينتظر الفرج منهم.

فما حكم الإسلام في هذا الأمر العقدي المهم الذي لا تخلو منه حياة مؤمن في هذه الحياة، وبخاصة في هذا العصر الذي اختلطت فيه الأمور على المؤمن، وغدا وكأنه غريب عنها، ولا يَدري كيف يسير فيها!

هذا ما أردتُ تقديمه للحديث المهمِّ الذي تناوله العلامة ابن تيمية، في كلام موجز مفيد، حلل فيه إشكاله، وبيَّن خطورته، بكل إيمان وإخلاص، ووضع أيدينا على منافذ الخير فيه، وعلَّمنا كيف يكون المؤمن الحق، أو كيف ينبغي أن يكون، وكأنه بهذا يُخاطب نفس المؤمن – التي قد تزيغ عن الحق أحيانًا – ويُعلِّمها الإخلاص في جانب العقيدة التي آمنت بها، ويُنذرها من عواقب وخيمة لا يعرف مآلها إلا الله؛ يقول رحمه الله[١]:

فإن قيل: ما السبب أن الفرج يأتي عند انقطاع الرجاء عن الخَلقِ؟ وما الحيلة في صرفِ القلب عن التعليق بهم وتعلُّقه بالله؟

فيقال: سبب هذا: تحقيق توحيد الربوبية، وتوحيد الإلهية.

[١] مختصر الفتاوى المصرية لشيخ الإسلام أحمد بن عبدالحليم بن تيمية، اختصار: بدر الدين أبي عبدالله محمد بن علي الحنبلي البعلي الشهير بابن اسباسيلا، راجعه أحمد حمدي إمام، القاهرة: مطبعة الإمام، ١٤٠٠هـ، (ص: ١٣٤، ١٣٥).

فتوحيد الربوبية أنه: لا خالق إلا الله، فلا يستقلُّ شيء سواه بإحداث أمر من الأمور، بل ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فإذا تحقَّق كان سببًا لأن يَنال مطلوبه ويأتيه الفرَج.

وأما مَن تعلَّق قلبُه بمَخلوق، فالمخلوق عاجز إن لم يَجعله الله فاعله لذلك.

وهذا مِن الشرك الذي لا يَغفِره الله، أن يَرجو العبد قضاء حاجته من غير ربه، فمَن أنعم الله عليه من المؤمنين بنعمة التوحيد منع حصول مطلوبه بذلك الشرك، حتى يَصرف قلبه إلى التوحيد، والله يُنزل بعبده المؤمن مِن الشدة والضر ما يُلجئه إلى توحيده فيدعوه مُخلصًا له الدين، ولا يَرجو أحدًا سواه، ويتعلق قلبه به وحده، فيَحصل له مِن التوكُّل والإنابة، وحلاوة الإيمان، وذوق طعمِه، والبراءة مِن الشِّرك، ما هو أعظم نعمةً مِن زوال ضره، فإن ما يَحصل لأهل التوحيد لا يُمكن وصفه من ذلك، فإن الضر في الدنيا، من المرض والعسر والألم، وغيره، يَشترك في زواله وذوق لذَّة حلاوته المؤمن والكافر؛ لأنه مِن أمور الدنيا، بخلاف حلاوة الإيمان، فلا يُمكن أن يُعبَّر عنه بمَقال، ولكل امرئ من المؤمنين نصيب بقدر إيمانه.

فمَن تجرَّد توحيدُه لله بحيث يُحبُّ في الله، ويوالي فيه ويُعادي فيه ويتوكَّل عليه، فلا يسأل إلا إياه، ولا يرجو غيره؛ بحيث يكون عند الحق بلا خلق، وعند الخَلق بلا هوى، قد فنيَت عنه إرادة ما سواه بإرادته، ومحبة ما سواه بمحبَّته، وخوف ما سواه بخوفه، ورجاء ما سواه برجائه، ودعاء ما سواه بدعائه، هو أمر لا يعرفه بالذوق والوجْد إلا مَن له منه نصيب، وما مِن مؤمن إلا وله منه نصيب.

وهذا هو حقيقة الإسلام، وقطْب رحى القرآن، به بعَث الله الرسل، وبه أنزل الكتب، والله المستعان وعليه التكلان.

وبعد هذا الحديث الجليل مِن الشيخ الإمام لا أقول بأنني دهشت لقراءته – مثل غيري مِن القرَّاء – بل أقول: إنه ذكَّرني بالحق الذي ينبغي أن يكون عليه كل مسلم.

وقد ذكَّرني هذا بالذِّكر الذي كان يداوم عليه الإمام النووي[٢] في كل يوم، بعد صلاة الفجر، وحفظه لنا تلامذته المحبون، عندما داوموا على قراءته، وعلَّموه غيرهم، وفيه دعاء للمرء ولأهله وذويه، ومنه:

---

[٢] طبع في دمشق، مكتبة الفارابي، في كتيب من الحجم الصغير، ووضَعَ له مقدمةً ضافية الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي.

"اللهم إني أسألك لي ولهم مِن خيرك بخيرك الذي لا يَملكُه غيرك، اللهمَّ اجعلني وإياهم في عبادك وعياذك وجوارك وأمانك وحزبِك وحرزك وكَنَفِك مِن شرِّ كل شيطان وسلطان وإنس وجان وباغٍ وحاسِد وسبع وحية وعقرب... حسبي الرب من المربوبين، حسبي الخالق من المخلوقين، حسبي الرازق من المرزوقين، حسبي الناصر من المنصورين، حسبي الساتر مِن المستورين، حسبي القاهر من المقهورين، حسبي الذي هو حسبي، حسبي مَن لم يزل حسبي، حسبي الله ونعم الوكيل، حسبي الله من جميع خلقه".

ونقول مع سيد الخلق عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، في الحديث المتفق عليه: "اللهم أسلمت نفسي إليك، ووجهت وجهي إليك، وفوَّضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبةً ورهبةً إليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك".

(نشر في جريدة "المدينة" ع ٧٤٣٧ (١٤٠٨/١/١٥هـ))

(ب)
صفات أنبياء كرام

في سورة مريم وصف فريد للأنبياء عليهم الصلاةُ والسلام،
فكلٌّ وُصِفَ بصفاتٍ رائعة ومتميزة،

١- ففي الآية (٧) قال ربُّنا في يحيى عليه السلام: {لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيّاً}
أي: لم يُسَمَّ أحدٌ قبلهُ بهذا الاسم.
ووُصف بصفاتٍ أخرى في الآيات (١٢- ١٥)، فقال عزّ مِن قائل:
{وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً}
أي: وأعطيناهُ النبوَّة، أو الفهمَ والعلم، وهو صغير.
{وَحَنَاناً مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيّاً}
معناها: وآتيناهُ رحمةً مِن عندنا وشفقةً عظيمة، وطهارةَ نفس، وطاعةً وإخلاصًا، فلم يقترفْ ذنبًا.
{وَبَرّاً بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّاراً عَصِيّاً}
أي: وطاعةً لوالدَيهِ وإحسانًا إليهما، ولم يكنْ متكبِّرًا متعالِيًا عن قبولِ الحقّ، أو متطاولاً على الخلق.
{وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيّاً}
يعني: وسلامٌ على نبيّ اللهِ يحيَى وأمانٌ له يومَ وُلِد: مِن أنْ ينالَ منه الشَّيطانُ شيئًا، ويومَ يموت: مِن عذابِ القبرِ ووحشته، ويومَ يُبعَثُ حيًّا: مِن هولِ القيامةِ وعذابِ النَّار.

٢- وتكلمَ عبدُ الله ونبيُّه عيسى وهو في المهد، فقال:
{إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً}
إنّي عبدُ الله - وسبحانَ مَن جعلَ هذا أوَّلَ كلامهِ - قضَى ربِّي أن يؤتيَني الإنجيل، ويجعلَني نبيًّا.
{وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً}

أي: وجعلني نفّاعًا، معلِّمًا للخير، أينما كنت، وأمرني بالصَّلاةِ والزَّكاةِ مدَّةَ حياتي.
{وَبَرّاً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً}
أي: وأوصاني أنْ أكونَ محسنًا إلى والدتي، ولم يجعلني مستكبرًا، عاصيًا.
{وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً}:
والسَّلامُ والأمانُ عليَّ يومَ وُلِدتُ: فلم ينلني الشَّيطانُ بسوء، ويومَ أموتُ: مِن عذابِ القبر، ويومَ أُبعَثُ حَيًّا: مِن هولِ القيامةِ وعذابِ جهنَّم.

٣- وقال سبحانه في خليله إبراهيم عليه السلام:
{إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيّاً}
أي: إنَّهُ كان كثيرَ الصِّدق، ملازمًا له، نبيًّا عظيمًا.
ووهبه ربنا إسحاق على كبر، وهو شيخٌ كبير، فقال تعالى:
{وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلّاً جَعَلْنَا نَبِيّاً}

٤- ووصف موسى عليه السلام بأنه {كَانَ مُخْلَصاً وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيّاً}
أي: اصطفاهُ اللهُ مِن بين النَّاسِ لحملِ رسالته، فكان رسولاً، نبيًّا مِن أُولي العزم.
واستجاب الله دعاءه في أخيه هارون: {وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيّاً}
أي: أجبنا دعاءَهُ فوهبنا له أخاهُ هارونَ ليكونَ نبيًّا معه، يساعدهُ ويؤازرهُ في دعوته. وكان أفصحَ منه لسانًا. عليهما الصَّلاةُ والسَّلام.

٥- ووصف نبيَّ الله إسماعيلَ عليه السلام بأنه {كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيّاً}
أي أنَّه كان صادقًا في وعدِهِ وفيًّا، لم يَعِدْ أحدًا إلاّ وفَى له. وقال لوالده: {افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ} [سورة الصَّافَّات: ١٠٢] فصدَق. وكان رسولاً نبيًّا، أرسلهُ اللهُ إلى قبيلةِ جُرْهُمَ العربيَّة.
كما وصفه ربنا بأنه كان {يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيّاً}

أي: كان يأمرُ أهلَهُ بطاعةِ اللهِ سبحانه، بإقامةِ الصَّلاة، وإيتاءِ الزَّكاة. وكان رضيًّا عند ربِّه؛ لاستقامةِ أقوالِهِ وأفعاله.

٦- ووصف نبيَّه إدريس عليه السلام بأنه {كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيّاً}
أي إنَّه كان كثيرَ الصِّدق، ملتزمًا له، نبيًّا كريمًا.
كما قال فيه سبحانه: {وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً}
أي: وأعلينا قدرهُ ورفعنا ذكرهُ.
وقد سلَّمَ عليه رسولُنا صلى الله عليه وسلم في السَّماءِ الرَّابعةِ عندما عُرِجَ به، كما في صحيحِ البخاريّ.

*** *** ***

وفي ختام حديثه سبحانه عن أنبيائه عليهم الصلاة والسلام، قال فيهم:
{أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَن خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيّاً}
أي: أولئكَ الذين تفضَّلَ اللهُ عليهم وأعلَى مرتبتَهم بين البشر، مِن النبيِّين، مِن ذرِّيَّةِ آدم: إدريسُ ونوح، ومِن ذرِّيَّةِ مَن حمَلناهم مع نوح: إبراهيمُ، ومِن ذرِّيَّةِ إبراهيمَ: إسماعيلُ وإسحاقُ ويعقوب، ومِن ذرِّيَّةِ إسرائيلَ (وهو يعقوبُ): موسَى وهارونُ وزكريّا ويحيَى وعيسى. هؤلاءِ مِن جملةِ مَن أرشدناهم إلى الحقِّ واصطفيناهُم للنبوَّة، إذا سمعوا كلامَ اللهِ المتضمِّنَ لآلائهِ وبيانِ قدرتهِ وعظمته، بادروا إلى السُّجودِ لربِّهِم، وقد خشعتْ قلوبهم لذكره، وفاضت عيونُهم خشيةً منه، إقرارًا منهم بالعبوديَّةِ له سبحانه.

(تفسير الآيات من: الواضح في التفسير، لكاتب المقال ٢/٨١٨-٨٢٤)

(ج)
صفة خاصة بالأنبياء.. فهل من مشمِّر ؟

الآية أولاً:

يتلو المسلم قول الله تبارك وتعالى: {إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ} [سورة ص: ٤٦] وهو لا يعرف معناها غالبًا. وتفسيرها: لقدِ اصطفَيناهُمْ –أي الأنبياء– وجعَلناهُمْ خالِصينَ لنا، بسبَبِ خَصلَةٍ جَليلَةٍ فيهم، هيَ جَعلُهمُ الدَّارَ الآخِرَةَ همَّهمُ الأوَّل، وتذَكُّرُهمْ لها دائمًا.

وإذا عرفنا أن المؤمنين أيضًا يذكرون اليوم الآخِر، علمنا أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لهم شأن أكبر وأعظم منهم في ذلك، وهو ديمومة تذكرهم الآخرة، وعمق إيمانهم بها، ومعرفتهم بأهوال القيامة، عند الحشر والحساب، وتبدُّل الأرض والسماء، ويوم تترك الأمُّ وليدها، وتضع الحامل حملها من الخوف والهلع، وعند تطاير الصحف، وكل ينتظر ما يقضي الله به... ثم تصوُّرهم الجنة ونعيمها، والنار وجحيمها، تصورًا كأنه واقع أمام أعينهم..

كل هذا وغيره يتذكره الأنبياء ولا يغيب عن بالهم. فهذه صفة خاصة بهم، ويشترك المؤمنون معهم في هذه الصفة كما يشتركون معهم في صفات أو أعمال أخرى يؤدونها، فهم يصلُّون أيضًا مثلهم، ويخشون الله كذلك، ولكن بفارق كبير بينهما في كيفية ذلك.

وعندما أراد بعض الصحابة رضي الله عنهم أن يزيدوا من عباداتهم وتنسكهم وينقطعوا عن الدنيا بذلك، نبَّههم الرسول صلى الله عليه وسلم إلى أن هذا ليس من أدب الإسلام، ولا هو من طبيعته، وإن بدت فيه عبادة أكثر. ثم قال لهم معلمًا ومرشدًا: "أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأُفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوَّج النساء، فمن رغب عن سنَّتي فليس مني" كما رواه البخاري وغيره.

فالأمر يتعلق بالالتزام بآداب الدين ومعرفة حدوده، وأكثر من يعرف هذا هم العلماء، الذين يعلمون فرائض الدين وسننه وآدابه كما بيَّنها الله ورسوله، ولذلك فهم الذين يخشون ربهم حقيقة وبتصور إيماني وعلمي مبني على أدلة وشواهد، يقول الله تعالى: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} [سورة فاطر: ٢٨]. وكلما ازدادوا علماً، ازدادوا خشية.. وازدادوا قربًا من الأنبياء، فهم ورثتهم في العلم والتربية.. هذا إذا كان علمهم لله، وليس للدنيا والسلطان.

الأنبياء .. وذكرى الدار:

وإنَّ تذكر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام اليومَ الآخرَ يعود إلى أنه اليوم الأكبر، الذي يجب أن تتجه الأنظار كلها إليه، وأن يُحسبَ حسابه أكثر من حساب كل شيء في الدنيا، أكثر من المال، ومن الولد، وأكثر من الحياة وما فيها كلها.

وهذا ما لا يقدر عليه إلا هم، عليهم الصلاة والسلام، أما الآخرون، فليس في كل وقت، ولو كانوا كذلك لوصلوا إلى درجة الملائكة، أو قريبًا منها، وهو معنى ما جاء في حادثة متميزة، حفظتها لنا السيرة النبوية وكتب الأحاديث وقصص الصحابة رضوان الله عليهم.

فقد روى مسلم في صحيحه عن حنظلة الأسيدي (وكان من كتَّاب رسول الله صلى الله عليه وسلم) قال: لقيَني أبو بكر فقال: كيف أنت يا حنظلة؟

قال: قلت: نافقَ حنظلة.

قال: سبحان الله! ما تقول؟

قال: قلت: نكونُ عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، يذكِّرنا بالنارِ والجنَّة، حتى كأنَّا رأيُ العين، فإذا خرجنا من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم عافَسْنا الأزواج والأولادَ والضَّيعات، فنَسينا كثيرًا.

قال أبو بكر: فوالله إنا لنلقَى مثلَ هذا.

فانطلقتُ أنا وأبو بكر حتى دخلنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، قلت: نافقَ حنظلةُ يا رسول الله!

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "وما ذاك"؟

قلت: يا رسولَ الله، نكونُ عندكَ، تذكِّرنا بالنار والجنة حتى كأنَّا رأيُ عين، فإذا خرَجنا من عندكَ عافَسْنا الأزواج والأولاد والضَّيعات، نَسينا كثيرًا.

فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: " والذي نفسي بيده، إنْ لو تدومونَ على ما تكونونَ عندي، وفي الذِّكر، لصافحتكمُ الملائكةُ على فُرُشِكم، وفي طرقكم، ولكن يا حنظلةُ ساعةً وساعة" ثلاثَ مرَّات. اهـ.

نعم! إن الإنسان بطبيعته لا يستطيع أن يكونَ ملائكيًا دائمًا، فهو من طين الدنيا، الذي له خصائص ومميزات، والدنيا تحتاج إلى عمار، والإنسان يحتاج إلى مال، وإلى تعلم أشياء كثيرة تساعده للعيش في الدنيا، لنفسه، ولأولاده، وأهله، ولآخرين، وكل هذا يحتاج إلى وقت، وإلى الالتهاء بالدنيا.

والأنبياء عليهم الصلاة والسلام يعملون كذلك، ولكنهم متوكلون على الله حقَّ التوكل، ولا يطغى همُّ عملهم على دعوتهم وتبليغهم، ولا ينشغلون به عن وظيفتهم الأساسية، فهم يعملون ويذكرون الله ويتذكَّرون الآخرة، ويعلَمون الغاية من كل عمل، ويضربون الأمثال للناس من واقع معيشتهم وأحوالهم لتتعلق قلوبهم بالآخرة، حتى لا ينسوها في خضمِّ أعمالهم.

وإن ارتباطهم بالآخرة يبدو من خلال حياتهم الخاصة والعامة.

فهم يحبون العبادة، ويقيمون الليل، ورسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم قام حتى "تورَّمت قدماه" من العبادة؛ شكراً لربِّ العزَّة الذي أكرمه بالنبوة، كما في البخاري وغيره.

ولشوقه إلى الآخرة اختار جوار ربه، ففي حديث عائشة رضي الله عنها، الذي رواه عنها البخاري رحمه الله في صحيحه: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو صحيح يقول: إنه لم يُقبضْ نبيٌّ قط حتى يرى مقعده من الجنة، ثم يحيى، أو يخيَّر. فلما اشتكى وحضره القبض، ورأسه على فخذ عائشة، غشي عليه، فلما أفاق شخص بصره نحو سقف البيت، ثم قال: اللهم الرفيق الأعلى. فقلت: إذًا لا يجاورنا".

تذكير وتوجيه:

وكان عليه الصلاة والسلام إذا اجتمع بأصحابه ذكَّرهم بالآخرة، أو نادى فخطب ووعظ..

وجاء في حديث رواه الترمذي وصححه: "وعظَنا رسول الله بعد صلاة الغداةِ موعظة بليغة ذرفت منها العيون، ووجلتْ منها القلوب...".

وقد يبدو طبيعياً أن يتجشَّأ رجل في مجلس، ولا يدعو هذا إلى التفاتٍ إليه، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم ربط هذا الأمر العاديَّ بالآخرة؛ تعليمًا وتذكيرًا لأصحابه، وتربية لهم، فقال عليه الصلاة والسلام لمن تجشَّأ: "أقصِرْ من جُشائك، فإن أطول الناسِ جوعًا يومَ القيامةِ

أكثرهم شِبعًا في الدنيا". رواه ابن أبي الدنيا والحاكم وغيرهما، وأورده في السلسلة الصحيحة (٣٤٣).

وإنها لتربية مؤثرة وناجحة، بل هي أبلغ أنواع التربية تأثيرًا، أعني التذكير بالثواب والعقاب الأخروي، الذي يصدِّق به وينتهي عنده المؤمنون الصادقون، ويرجون بذلك رضى وفوزا. وقد ورد في رواية ابن أبي الدنيا، أن ذلك الرجل الذي تجشَّأ -وهو أبو جحيفة رضي الله عنه- قال: فما شبعتُ منذ ثلاثين سنة!!

إنها الطاعة، وإنه الإيمان العميق، وإنها التربية والتزكية، وإنه الالتزام بالدينِ الحقّ.

وكذا الأمر في حديث مسلم، عندما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر من بيوتهم من شدَّة الجوع، ثم شبعوا ورووا عند أنصاري كريم، لم يترك الأمر يمرُّ هكذا دون تذكير واعتبار، بل ذكَّرهما بالآخرة، وقال: "والذي نفسي بيده لتُسألنَّ عن هذا النعيم". يعني القيام بحقِ شكره.

ومما وعظ به رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة، وهو يحثُّ صحابته ويرغِّبهم في الحراسة، قوله: "حرمت النار على عينٍ دمعتْ من خشية الله، حرمت النار على عين سهرت في سبيل الله" رواه الحاكم وصحح إسناده.

وقال عليه الصلاة والسلام في ترهيب مؤثِّر ينصح به أمَّته كلَّها: "يا أمَّة محمد، والله لو تعلمون ما أعلم، لبكيتم كثيرًا، ولضحكتم قليلاً". رواه الشيخان.

ووعظه صلى الله عليه وسلم كثير، ولا يكاد الوعظ يخلو من التذكير بالآخرة، فهو يعني الأمر بالطاعة، والنصح والتذكير بالعواقب، والعاقبة جنة أو نار، فالتذكير بالآخرة هو أبلغ الوعظ. وأمثلته كثيرة في السنَّة.

وكثيرًا ما كان يدعو عليه الصلاة والسلام في آخر المجلس بالحديث الذي فيه الدعاء المشهور: "اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك"، الذي رواه الترمذي وغيره، وحسَّنه في صحيح الجامع، فقد قال ابن عمر رضي الله عنه: قلَّما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم من مجلسٍ حتَّى يدعوَ بهؤلاء الدعواتِ لأصحابه. وفيه: "ومن طاعتك ما تبلِّغنا به جنَّتك"، "ولا تجعل الدنيا أكبر همِّنا".

الذِّكرُ الجليل:

وكان عليه الصلاة والسلام "يذكر الله على كل أحيانه" كما اتفقا عليه.

وإن نظرة في كتب الدعوات والأذكار وحدها، تبيِّن مدى ما كان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم من ارتباط بالدين عامة، وبالآخرة خاصة، فهو عليه الصلاة والسلام يذكر الله بأنواع الذكر في معظم حركاته وتنقلاته، في السفر والحضر، وانفرادًا بنفسه أو عند أصحابه أو أزواجه، وفي السلم والحرب، وعند الراحة والتعب، وفي الرضى والغضب.

وإن قلب المؤمن حيٌّ نابضٌ بالإيمان، فهو لا يفتأ يذكر الله بأنواع الذكر وهو جالس أو قائم أو عامل، ويقول: أستغفر الله، وبسم الله، وسبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، واللهم صلِّ على سيِّدنا محمد، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وما شاء الله... يقول هذا وهو في مجالس الدين أو الدنيا، وفي المساجد أو الأسواق..

وأورد هنا الحديث عن الذكر لأن شأنه عظيم، ولأنه يعلق القلب بالله وباليوم الآخر، وإن الحثَّ عليه والانشغال به يسلك به الطريق الصحيح إلى رضى ربه، لأنه يهذِّب نفسه ويبعده عن الحرام، ولذلك يقول ربُّنا سبحانه وتعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً} [سورة الأحزاب: ٤١] أي اذكروه بالتسبيح، والتحميد، والتكبير، والتهليل، والتحميد، والتقديس، ذكرًا كثيرًا يعمُّ أغلب الأوقات، على ما هداكم إلى الإيمان، وأنعم عليكم بأنواع النعم.

فكان ذكره وتذكيره صلى الله عليه وسلم أصحابه بالآخرة متتاليًا... فهي المآل الأخير للإنسان، والمصير الذي ينتهي إليه، ولا توبة في ذلك اليوم، ولا رجوع إلى الدنيا، ولكنه يوم الحصاد وتوزيع النتائج.

الفائدة العملية من الذكرى:

وجوانب الفائدة من الإيمان باليوم الآخر عديدة.

فهو يحثُّ المؤمن على الأعمال الصالحة، يعني الجيِّدة، القويمة، البنَّاءة، التي تعود فائدتها الحقيقية على نفسه، وعلى المسلمين، والناس عامة. ولا يكون العمل صالحًا إلا إذا كان موافقًا للشرع، وخالصًا لوجه الله تعالى.

وهذا يعني -من وجه آخر- أنه لا يتصوَّر من المسلم الملتزم بدينه ضرر على عباد الله، ولا فساد ولا شرٌّ في الدنيا، فالله لا يأمر بالفحشاء، وينهى عن الضرر والمنكر، ولا يقبل من الإنسان إلا عملاً طيباً خالصًا.

ونعلم بهذا التوجيه الرباني أن المرء بهذا يكون عنصر خير في الحياة، لا تُخشى بوائقه.

فإن صاحب هذا الإيمان يكفَّ عن الظلم، وعن كل ما يضرُّ بالناس، فهو يعرف أنه سيحاسبُ على ما يعمل، ويُعاقب أشدَّ العقاب على فعل المنكر وإيذاء الناس، ولذلك فهو يحسب ألف حساب لما سيُقدم عليه من فعل -إذا كان ذا إيمان صادق- فالآخرة حق، والحساب دقيق، والمحاسب الجبّار...

ولينظرْ كلٌّ ما يُقدمُ عليه من عملٍ وهو يتصوَّر موقفه يوم القيامة من خلال قوله تعالى: {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ . وَجَاءتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ} [سورة ق: ٢٠، ٢١] أي: جاءَتْ كُلُّ نَفسٍ في ذلكَ اليَوم، بَرَّةً كانت أو فاجِرَة، معها مَلَكان، أحدُهما يَسوقُها إلى المحشَر، والآخَرُ يَشهَدُ عليها بما عملَت...

فليَعملْ كلٌّ في مجالِ عملهِ وهو يرى مديرَ عمله فوق رأسه.. كم يكونُ متقنًا فيه ومُنتجًا له؟! وذاك أبلغ وأخوف.

ولينظرِ الكاتبُ كذلك كم يكون منصفًا وصادقًا ومتحريًا الحقَّ وهو يكتب... وهكذا، كل فئات المجتمع، في جميع مهامهم وأعمالهم.

فالإيمان باليوم الآخر يهذِّب النفس، وينشِّطها لعمل الخيرات، ويكفها عن سفاسف الأمور، والأخلاق الدنيَّة، والفواحش والموبقات، ويحثُّها على الأعمال الصالحة، وعلى الاقتداء بالكمَّل من البشر، أنبياء الله ورسله، عليهم الصلاة والسلام، فهم القدوة في تذكر الآخرة، والتذكير بها، والعمل لها.

والإيمان باليوم الآخر يبعث على التفكر والاعتبار، وإن سبب عدم اعتبار الكافرين يعود إلى عدم إيمانهم بالمعاد، وعدم اكتراثهم ولا مبالاتهم بأمره. يقول الله تعالى: {وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُوراً} [سورة الفرقان: ٤٠].

يقول ربنا سبحانه وتعالى: {وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُواْ واتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّه خَيْرٌ لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ} [سورة البقرة: ١٠٣].

إن الإيمان ينادي المسلم أن الأصل في حياته أن تكون للعمل للآخرة، ولا ينسى نصيبه من الدنيا.

وإن ظهور آثار هذا الإيمان على سلوك الفرد هو المطلوب والمهم في هذه الحياة، وهو ما ينبغي أن يبدو من خلال معاشه وتعامله مع الناس، وقد طبق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ذلك في واقعهم، فكانوا أعدل الناس، وأصدقهم إيمانًا وخشية. وكلما التزم المؤمنون بهذا الإيمان ومتطلباته، كانوا أقرب إلى إيمان الأنبياء وسلوكهم، عليهم الصلاة والسلام.

مرتبة لهمَّة عالية:

وقد يسأل المرء ويقول: كيف الوصول إلى هذه المرتبة، وهي تذكر الآخرة كثيرًا؟

ولا شك أن الجواب يحتاج إلى مقال وأكثر، وأذكِّر بالأهم.

فإن اليوم الآخر جزء من إيمان أعمّ، ولا ينفصل عنه، وزيادة الإيمان حق، وتكون بالتفكر والاعتبار، والطاعة، وقراءة القرآن بخشوع وتدبُّر، وبالذكر الجليل، والتوبة والاستغفار، وقصر الأمل، والتقلل من طلبات الدنيا، وفعل الخيرات، وترك المنكرات، واتقاء محارم الله عامة، والبعد عن التسويف واللامبالاة، وشحذ العزيمة لطلب المعالي، وطلب الإعانة من الله (اللهمَّ أعنِّي على ذكرك وشكركَ وحسن عبادتك)، ومجالسة الصالحين، والعلماء العاملين، من الذين سيماهم في وجوههم من أثر السجود، وقراءة كتب الزهد والرقائق، وفيها العجب من أخبار الصالحين، وهكذا كان يفعل عبدالله بن المبارك، ينظر في آثار الصحابة والتابعين وأعمالهم، ويقول إنه بهذا يجالسهم ويكون معهم، وألف ابن قدامة كتابه "الرقة والبكاء" ليداوي بأخباره قسوة قلبه -وهو من هو- ويستجلب بها دموع عينه، قال: " فطلبت ذلك في مظانه، فلم أرَ أجلبَ له، ولا أجمعَ لما أردتُ، من أخبار الصالحين، الذين تنزلُ الرحمة عند أذكارهم، وتحيا القلوب بسماع أخبارهم، وتحصل السعادة باقتفاء آثارهم".

مواقف:

وأخبار الصالحين ومواقفهم في تذكر الآخرة أيضًا كثيرة لا تحصى.. وأكتفي بمواقف معدودة للخليفة الزاهد عمر بن عبدالعزيز رحمه الله، كما وردت في سيرته لابن الجوزي، وغيرها، فقد

كان أمير المدينة، وأميرًا للمؤمنين، وكان يشعر بمسؤوليته عن الأمة كلها، ويخشى الحساب، وهو ما يناسب المقال. وقد كان إيمانه باليوم الآخر قويًا وعميقًا، وأثَّر هذا في أسلوبه ومنهجه في الحكم، الذي هو أعلى وأجلٌّ المناصب الدنيوية، فكان من أعدل الخلفاء الذين عرفهم تاريخ الإسلام.

وقد عرف القرَّاء كيف ذرفت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما بلغ عبدالله بن مسعود قوله تعالى: {فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاء شَهِيداً} [سورة النساء: ٤١] كما رواه الشيخان وغيرهما.

وصلى أحدهم خلف عمر بن عبدالعزيز، فقرأ: {وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ} [سورة الصافات: ٢٤] قال: فجعل يكررها لا يستطيع أن يجاوزها، يعني من البكاء.

وعندما كان أمير المدينة وقرأ عنده رجل: {وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَاناً ضَيِّقاً مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُوراً} [سورة الفرقان: ١٣] بكى حتى غلبه البكاء وعلا نشيجه، فقام من مجلسه، فدخل بيته، وتفرَّق الناس.

وعندما كان خليفة، صعد المنبر، فخطب، فقرأ: {إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ} فقال: وما شأن الشمس؟ {وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ} حتى انتهى إلى {وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ . وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ} قال راويه: فبكى، وبكى أهل المسجد، وارتجَّ المسجد بالبكاء، حتى رأيت أن حيطان المسجد تبكي معه!

وبكى مرة، فبكى أهل الدار لبكائه، وهم لا يدرون لماذا يبكي، فسألته زوجته عن سبب بكائه، فقال: ذكرت يا فاطمة منصرف القوم من بين يدي الله، فريق في الجنة، وفريق في السعير. ثم صرخ، وغشي عليه.

وكان يومًا ساكتاً وأصحابه يتحدَّثون، فقالوا له: ما لك لا تتكلم يا أمير المؤمنين؟

فقال: كنتُ مفكرًا في أهل الجنة كيف يتزاورون فيها، وفي أهل النار كيف يصطرخون فيها. ثم بكى.

إن اليوم الآخر يوم صعب شديد مهول، يشيب فيه الولدان، ويُحاسب فيه كل على عمله، وإن كان مثقال ذرَّة، ويفرز أهل الجنة من أهل النار، فسعيد وشقيّ، وضاحك وباك، وخالد

ومخلَّد. وأنتم أيها الأحياء مازلتم في الدنيا، وهناك متَّسع لأنْ تعملوا وتتوبوا، وتعملوا صالحًا، وتذكروا الآخرة بحق... فهل من مشمِّر؟!

(د)

ميزة نبوية محمدية

الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أُيِّدوا بمعجزات تناسب عصورهم وبيئاتهم، لتكون حجة واضحة وقاطعة على من بُعثوا إليهم.

فقد كان السحر منشرًا في عهد موسى عليه الصلاة والسلام، فجاءت معجزته أقوى وأكبر من كل أعمال السحرة التي كانوا يتباهون بها، مع ما في سحرهم من حيل وخدع، ومعجزة موسى عليه الصلاة والسلام كانت حقيقية، بأمر من الله تعالى؛ لتكون دامغة، باعثة على التفكير، ثم الإيمان بنبوته عليه الصلاة والسلام، فلا يقدر على هذا بشر.

وفي وقت عيسى عليه الصلاة والسلام انتشر الطب وعلا شأنه، فكان إحياء الموتى على يديه بإذن الله تعالى أعظم وأجلَّ من كلِّ ما كان يبتدعه الأطباء والصيادلة في مهنهم العلمية، وما لا يقدرون على الإتيان بمثله.

أما نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فقد تميَّز عصره بالبلاغة الفائقة في النظم والنثر، حتى كانوا يعلقون الرائع منها بالكعبة، بعد دراسة وتحكيم. لكن ما جاء به عليه الصلاة والسلام من قرآن من عند الله تعالى أسكت جميع بلغاء عصره وحيَّر عقولهم، وتحدَّاهم ومن يأتي بعدهم بأن يأتوا بعشر آيات من مثله، أو بسورة منه ولو كانت قصيرة، لا تتجاوز ثلاث آيات، ولا تزيد عن سطر واحد!

وما تميَّز به رسولنا الكريم عن باقي الرسل عليهم الصلاة والسلام، هو أميته، في صلتها بمعجزة تغاير ما كان من أمر الأنبياء السابقين فيما أرسلوا به من معجزات تناسب عصورهم، في شكلها، ونوعها، وعمومها، واستمراريتها، في بيان من الله تعالى على قدرته على تنويع المعجزات كتنويع الخلق، فقد خلق آدم من تراب، من دون أب ولا أم، وخلق حواء من ذكر على غير طريقة التزويج، وخلق عيسى من أنثى فقط بكلمة منه، وخلق نسل آدم من ذكر وأنثى..

وفي القدرة على تنويع علامات النبوة أرسل الله محمدًا صلى الله عليه وسلم نبيًّا أميًّا لا يعرف قراءة ولا كتابة، ومع ذلك أيده بكتاب هو أبلغ ما يكون، وما لا يقدر على الإتيان به أحد من البشر!

ويعني هذا قوة أكبر في المعجزة، وأكثر جلاء ووضوحًا وتأييدًا لرسالة الإسلام، فإن من أُيِّد بكتابٍ أعلى بلاغة وهو أمي، تتبيَّن فيه المعجزة أكثر.

ولم يذكر عن الأنبياء السابقين — ممن أوتوا كتبًا – أنهم كانوا أميين غير عارفين بأسلوب أقوامهم في القراءة والكتابة.

وقد ذكر السيوطي في الباب الأول من "أنموذج اللبيب في خصائص الحبيب"، وهو في الخصائص التي اختص بها رسول الله صلى الله عليه وسلم عن جميع الأنبياء ولم يؤتها نبي قبله، قوله: "وبإيتائه الكتاب وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب".

ومع أميته عليه الصلاة والسلام فقد كان أفصح العرب! وأعلم الناس!

والحمد لله الذي جعلنا على دين خاتم أنبيائه، وأحبِّ خلقه إليه.

(هـ)

جناتٌ ...كيف تجري من تحتها الأنهار؟

يردُ كثيراً وصف الجنات في الآخرة بأنها "تجري من تحتها الأنهار"، ويوردها مفسِّرون هكذا دون زيادة.

وذكرَ ابنُ كثير في أكثرَ من موضعٍ أن "من تحتها" تعني "خلالها"، أي بين قصورها وبساتينها. وقال في تفسير الآية (٢٤) من سورة الحج: أي تتخرَّقُ في أكنافها وأرجائها وجوانبها، وتحتَ أشجارها وقصورها، يَصرِفونها حيث شاؤوا وأين شاؤوا. اهـ. وهو يفسِّر الأنهار لا بما يجري فيها من ماء سلسبيلٍ فقط، بل بأنواع العصاير والمشارب، من لبن وعسل وخمر وماء غير آسن، وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

ويذكرُ الزمخشري في جريان الأنهار من تحت الجنات بأنه: كما تُرَى الأشجار النابتة على شواطئ الأنهار الجارية.

قال: وأنزه البساتين وأكرمها منظراً ما كانت أشجاره مظلَّلة، والأنهارُ في خلالها مطَّردة.. وأن الجنان لا تروق للنواظر ولا تبهج الأنفس ولا تجلب الأريحية والنشاط حتى يجري فيها الأنهار، وإلا كانت أشجارها كتماثيل لا أرواح فيها، وصورٍ لا حياة فيها.

أقول: ولو رأى القارئ متنزهاً أرضه رمل ناعم وحصى صغير، يسيل الماء عليها سيلاناً، ويمشي بين الأشجار الخضراء رقراقًا، فلو تنزه فيه لأبهج نفسه، ولما فترت شفتاه من الابتسام، ولما نسي هذا المنظر، فإنه لا يكاد يماثله جمال طبيعي. نسأل الله جنته.

وقال الآلوسي في الآية (٩) من سورة يونس، في تفسيره (روح المعاني): أي [تجري] من تحت منازلهم، أو من بين أيديهم. وقال في تفسير الآية (١٤) من سورة الحج، والآية (١١) من سورة البروج، دمجًا بين تفسيريهما: إن أُريدَ بالجنات الأشجارُ المتكاثفة الساترةُ لما تحتها، فجريانُ الأنهارِ من تحتها ظاهر، وإن أُريدَ بها الأرضُ المشتملةُ على الأشجار، فاعتبارُ التحتيَّةِ بالنظرِ إلى جزئها الظاهر، فإنَّ أشجارَها ساترةٌ لساحتها، واسمُ الجنةِ يُطلقُ على الكلّ.

وقال البغوي: أي بين أيديهم، كقوله عز وجل: {قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً} [سورة مريم: ٢٤] أي بين يديها. وقيل تجري من تحتهم، أي بأمرهم.

قلت: يعني بالأخير كما في قولهِ تعالى: {وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ} [سورة الزخرف: ٥١] ويعني: تحت تصرُّفي. ويمكنُ تقريبُ نموذجِ قصرٍ تجري من تحته الأنهار كما وردَ في قصة سليمان عليه السلام مع بلقيس، فقوله تعالى: {قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ} [سورة النمل: ٤٤] أي أن القصر كان من زجاج يجري من تحته الماء. فلما رأته بلقيس كذلك ظنته ماء كثيرًا، فكشفت عن ساقيها لئلا يبتل ثوبها بالماء، فقال لها سليمان عليه السلام وقد لمح استغرابها ودهشتها: إنه قصر مملَّس مستوٍ من زجاج وليس ماء.

قلت: وإذا كان الاستشهاد بالآية التي في سورة مريم لا يستبعد التأويل حسبما ذُكر، فإن وصف النعيم في الجنة لا يُقاس به في الدنيا، فقد صحَّ وصفُها في الحديث الشريف أن بها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ولذلك لا يُستبعد أن تكون الأنهار تجري من تحت القصور في الجنة كما هو ظاهرُ اللفظ، بل ولا يُستبعد هذا حتى في الدنيا، كنهر وسط، يتربع عليه قصر ضخم وأعمدته تنزل في قعر النهر وعلى شاطئه، تماماً كما تنشأ الجسور، وبينها ما هو معلَّق لا يحتاج إلى أعمدة في النهر... بل قد أنشئت قصورٌ حتى في قاعِ البحار! نسأل الله أن يرزقنا جنَّته.

(قطعة من رسالة للكاتب بعنوان: "البيان فيما يركز عليه القرآن").

(و)
روحك أيها الإنسان

لو جُمعَ علمُ الإنسانِ كلُّهُ منذُ أن خُلقَ لما بلغَ ذرَّةً من علمِ الله تعالَى،
علمُ الإنسانِ قليل،
بل قليلٌ جدًّا،
إن الإنسانَ لم يعرفْ سرَّهُ حتى الآن،
وإن سرَّهُ في روحه،
التي تبثُّ الحركةَ والحياةَ في سائرِ جسده،
ولولاها لكان جثَّةً هامدة.
وهو لم يرَ هذه الروح،
ولم يعرفْ تكوينها،
وحجمها،
وهيئتها،
وأين تكمنُ في الجسد،
ولا يعرفُ أين تذهبُ أثناءَ النوم!
فأساسُ حياةِ الإنسانِ هي الروح،
ولكن الإنسانَ لا يعرفُ روحه،
فلا يعرفُ أهمَّ شيءٍ فيه!
إنما يعرفُ بعضَ الأشياءِ التي يراها بعينهِ أو بواسطة،
ويعرفُ بعضَ أسرارها لا كلَّها،
وما لا يراهُ أكثر،
ولكنه لا يعرفها،
إلا ما أخبرَ الله به.
إن الروحَ علمها عند الله وحده:

{وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ
قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي
وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا}
سورة الإسراء: ٨٥.
فهل يعتبرُ المادّيون،
الذين لا يؤمنون إلا بما يرون،
وهذه هي الروحُ التي لا يقدرون على إنكارها،
وإن لم يكونوا يرونها.
ويسكتون إذا جوبهوا بذلك،
ولكنهم يقولون:
إن العلمَ سيكتشفُ الروحَ كما اكتشفَ أشياءَ أخرى،
كما قالوا: إن العلم سيكتشفُ الموتَ ويوقفه!
وهذا الموتُ والروحُ والأشياءُ الأخرى الدقيقةُ المعقَّدةُ المنظَّمة..
مَن خلقها،
ومن علَّمها،
ومن قدَّرها لتعملَ هكذا،
ومن بثَّ فيها الروحَ والحركة؟
أليس مَن هداها لهذا قادرٌ على إيقافها،
كما يوقفُ حركةَ هؤلاءِ إذا قبضَ أرواحهم؟
ولكنهم لا يؤمنون إلا يومَها!
ولا ينفعهم الإيمانُ يومئذ.

(ز)
حالة كُره

تعاملُ المسلم مع الكافر يختلفُ من صنف إلى آخر، فالكافر المحارِب يُبغَض ويُقاتَل ولا يوثَق به، والكافرُ الذي لا يؤذي يُتعامل معه، كما قال الله تعالى في الحالتين:

{لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ . إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [سورة الممتحنة: ٨ – ٩].

قلت: والتعامل مع الكافر غير المحارب يكون في معاملات ومصالح دنيوية، ولا يُحَبُّ أبدًا، فالكافر عدوٌّ لله، لأنه كافرٌ به، وأعداءُ الله أعداءٌ للمؤمنين، فلا يُحَبُّون.

والمسلم فيه طِيب وحسنُ نية لا تنفكُّ عنه، ولا يحمل الحقدَ والكره لأحد إلا عند الضرورة أو لسبب وجيه، بل هو مُشفق على الخلق، ويحبُّ لهم الهداية كما يحبها لنفسه.

وهذا الطيب يؤدي أحيانًا إلى خلل في التوازن يصيب نظرة المسلم وتعامله مع الأعداء، فتكون النتيجة غير طيبة، وغير صائبة، كما قال سبحانه وتعالى:

{هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ} [سورة آل عمران: ١١٩].

يعني المنافقين وأهلَ الكتاب، حيث كان رجالٌ من المسلمينَ يواصلونَ رجالاً من اليهود، لِما كانَ بينهم من الجوارِ والحِلْف في الجاهليَّة، فنُهوا عن مباطنتهم خوفَ الفتنةِ عليهم منهم، وبيَّن لهم أنهم إن أحبُّوهم فإنهم لا يحبُّونهم، بل يبغضونهم بغضًا شديدًا، وقد وضَّح هذا الأمرَ أكثر في الآية نفسها، بقوله: {وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الغَيْظِ}.

وفي الآية التي قبلها تنبيه وتحذير، بقوله تعالى: {قَدْ بَدَتِ البَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ}!

وفي آخر الآية طلبٌ من المسلمين أن يعتبروا، ولا يتمادوا في الثقة بغير ميزان: {قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآَيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ}.

فبغضُ المنافقين والكفار للمؤمنين كبيرٌ جدًّا وعميقٌ بشكل لا يوصف، ولو كان للقلوب صوتٌ لما أطاق المؤمن القربَ من أيٍّ منهم، ولا النظرَ في وجوههم. وقد بدا شيء من هذا في الآيات السابقة.

وهذه آية أخرى يمرُّ عليها المسلم ولا يتعمَّق في مدلولها، وهي قوله تعالى:

{لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ} [سورة التوبة: ٥٧].

أي: لو أنَّهم وجدوا حصناً يتحصَّنون به، أو مغاراتٍ في الجبالِ يُخفون أنفسَهم فيها، أو أنفاقاً في الأرضِ يدخلونَها، لصرَفوا وجوهَهم عنكم وأقبلوا إليها وهم يُسرعون، لا يلتفتون إلى شيء.

يعني: لو يجدون مَخْلَصاً منكم ومَهْرباً لفارقوكم، فهم لا يودُّون مخالطتكم، لأنَّهم ليسوا منكم!

فليحذرهم المسلمون، فإنهم نسخة أخرى من البشر غير المؤمنين، بل هم على عكسهم.

يقول عزَّ مِن قائل:

{الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُواْ اللّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [سورة التوبة: ٦٧].

أي: المنافقون والمنافقاتُ متشابهون في كلامهم وسلوكهم، لأنَّهم على دينٍ واحد، يأمرونَ بالمعصيةِ وتكذيبِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم، وينهَون عن الإيمانِ والطَّاعة، ويُمسِكون أيديَهم عن الصَّدقةِ والإنفاقِ فيما يُرضي الله. لقد نَسُوا ذكرَ اللهِ وتركوا طاعته، فعاملَهم اللهُ معاملةَ مَن نسيَهم، فحرَمَهم من توفيقه وهدايته، ومنعَ لطفَهُ وفضلَهُ عنهم. إنَّ المنافقينَ خارجونَ عن الطَّاعة، بعيدون عن الحقّ.

ذاك وصفُ المنافقين أعداءِ الدين، وانظرْ إلى وصفِ المؤمنين بما يناقضُ وصفهم، في قوله سبحانه وتعالى:

{وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَـئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [سورة التوبة: ٧١]

بيانها: والمؤمنونَ والمؤمناتُ يتناصـرونَ ويتعاونونَ على البِرِّ والتقوَى، ويتعاضـدونَ على ما فيهِ خيرُهم وخيرُ الناس.

فيأمرون بالإيمانِ والطاعةِ والإصـلاح، وينهَونَ عن الشـركِ والمعصـية وما يخالفُ أحكامَ الشَّـرع، ويؤدُّونَ الصَّـلواتِ المطلوبةَ منهم، ويُعطون الحقوقَ الواجبةَ المترتِّبةَ على أموالهم، ويُطيعون اللهَ ورسـولَهُ فيما أمرَ ونَهى، أولئكَ المتَّصـفونَ بتلكَ الصِّـفات، سـيرحمُهم الله ويتولاّهم بلُطفه، إنَّ اللهَ عزيزٌ لا يمتنعُ عليهِ ما يريده، ولا يُعجِزهُ شـيءٌ عن إنجازِ وعدهِ ووعيدِه، حكيم، يضعُ الأمورَ في مواضعِها كما ينبغي، لا يفوتهُ شيءٌ من ذلك.

ومما وصـف الله تعالى به الكافرين؛ ليشـمئزَّ منهم المسـلمون ويعرفوا حقيقتهم ويكرهوهم أيضًا، قولهُ تعالى في الآية (٤٥) من سورة الزمر:

{وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ}!

وأخيرًا... يقول الله تعالى:

{لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ...} [سورة المجادلة: ٢٢]

أي: لا تجدُ أحدًا من المؤمنين باللهِ واليومِ الآخرِ - بصدقٍ وإخلاصٍ- يُوالُون ويصادقونَ أعداءَ الله ورسـوله، ولو كان هؤلاء الأعداءُ آباءَهم، أو أبناءَهم، أو إخوانَهم، أو قبيلتَهم وعشـيرتَهم، أو أيًّا من أقاربهم، فالعقيدةُ أهمُّ من النَّسَـب، ومَن والاهم فهو معهم يومَ القيامة.

(ح)
المعروف.. وولاء المسلم

إسداءُ الكافرِ معروفًا لمسلمٍ ضعيفِ الإيمانِ يسبّبُ له مشكلةً في العقيدة!

وخاصةً إذا وقعَ هذا المعروفُ في وقتِ الحاجةِ والظروفِ الصعبة، كحالِ اللاجئين المسلمين في الغرب، فإن القلبَ يميلُ إلى مُسدي المعروف، فيَحمَدُ المحتاجُ صنيعهُ وخُلقه، في مقابلِ من كان يرَى منهم في وطنهِ الظلمَ والقهرَ والتعسفَ ممن يدَّعون انتماءهم إلى الإسلام.

وقد ينسَى ضعيفُ الإيمانِ دينَهُ في هذه الظروف، ويتلفَّفُ بعباءةِ الكافر، ويدخلُ تحت مظلَّةِ علمانيتهِ وحكمهِ وإعلامهِ المضلِّل، ويدافعُ عنه وعن قضاياه، ناسيًا أو متناسيًا ولاءَهُ السابقَ لدينه، فالولاءُ والبراءُ من صميمِ عقيدةِ الإسلام: الولاءُ لله ولرسولهِ وللمؤمنين، والبراءةُ من الكافرين ومن عقائدهم ونُظمهم، فمن لم يفعلْ ذلك فليس من المسلمين.

ولذلك يقولُ ربُّنا سبحانهُ وتعالَى: {وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ}.

والآيةُ بنصِّها: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [سورةُ المائدة: ٥١].

فمن تولَّى كافرًا فهو كافر.

والولاءُ يعني المحبَّة، والتأييد، والرضَى بنهجِ الكافرِ المناقضِ للإسلام.

فالموالي هو الناصر، والحليف، والمؤيّد، والمعِين، كموالاةِ المنافقين في المدينةِ لليهود.

والغربُ لا يقبلُ من المسلمِ عدمَ اندماجهِ في المجتمعِ الغربي، يعني أن يتخذَ المسلمُ شعاراتٍ لا توافقُ قيمَ الغرب، فيعيشَ على مبادئ الإسلامِ وآدابهِ وأخلاقهِ كما هي.

بل يريدُ من المسلمِ أن يمشيَ في ركبِ الحضارةِ الغربية، وأن يندمجَ مع المجتمعِ الغربيّ، ويقبلَ ثقافته، وإباحيته، وربويته، ونهجهُ في الحياة، ويعني بذلك "العولمة"، لتفنَى فيها شخصيةُ المسلمِ ومميزاتهُ الدينيةُ أمامَ القوةِ المدنيةِ والثقافيةِ والإعلاميةِ الضاغطةِ للغربِ. وهو ما يرفضهُ المسلم.

ويقولُ الغربُ عن هؤلاء الذين يحبون الإسلامَ وحدهُ دون الغربِ وعاداتهِ وقيمهِ إنهم يبثُّون الكراهية، يعني كراهيةَ الكافرِ والمشرك، وكلِّ من لم يكنْ موافقًا للإسلام.

وكأن الغربَ لا يعرفُ أن هذا من عقيدةِ المسلم، فيقولُ الله سبحانهُ وتعالَى: {فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ} [سورة آل عمران: ٣٢].

وإذا كان الله لا يحبهم فإن جميعَ المسلمين لا يحبونهم.

بل وردَ قولهُ تعالَى: {فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ} [سورة البقرة: ٩٨].

ومن كان اللهُ عدوَّهُ فإن المسلمين جميعًا أعداؤه.

ويقولُ سبحانهُ أيضًا: {لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آَبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ} [سورةُ المجادلة: ٢٢].

أي: لا تجدُ أحدًا منَ المؤمنينَ باللهِ واليومِ الآخِرِ - بصدقٍ وإخلاصٍ - يُوالُونَ ويُصادِقونَ أعداءَ اللهِ ورسولِه، ولو كانَ هؤلاءِ الأعداءُ آباءَهم، أو أبناءَهم، أو إخوانَهم، أو قبيلتَهم وعشيرتَهم، أو أيًّا مِن أقاربِهم، فالعقيدةُ أهمُّ مِن النَّسَب، ومَن وَالاهم فهو معهم يومَ القيامة.

أما قولهُ عزَّ وجلَّ: {لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} [سورة الممتحنة: ٨]، فإنه لا يعني أبدًا محبَّتَهم والرضا بنهجهم، إنما تعني الآيةُ الكريمة: أنَّ اللهَ لا يمنعُكم مِن البرّ والإحسانِ إلى الكافرين الذين لم يقاتلوكم في الدِّين، ولم يُجلُوكم مِن ديارِكم، فلا بأسَ أن تُحسِنوا إليهم، وتَعدِلوا فيهم، واللهُ يحبُّ الذين يَعدِلون في حُكمِهم وأهاليهم وما وَلُوا.

فليحذرِ المسلمُ المهاجرُ واللاجئ، ولا ينسَ دينه، فإن كثيرًا من الذين يضطرُّون إلى الذهابِ للغربِ يلاقون معاملةً طيبةً من أهله، فيطوِّقهم معروفُهم ويأخذُ بمناطِ قلوبهم، فيصابون في دينهم وينسونه، فيكونون مثلهم.

وأذكِّرُ إخواني السوريين خاصةً ألّا يكونوا ضحيةَ الإعلامِ الغربي المضلِّل، وليعتبروا كيف كان يتأثرُ بعضهم بإعلامِ طاغيةِ الشامِ وحزبِهِ وحزبِ نصر الله، بل كانوا ضحيةَ مصطلحاتٍ وشعاراتٍ قوميةٍ زائفةٍ جوفاءَ عقيمة، كالنضالِ والتحريرِ والمقاومةِ والحريةِ والديمقراطية والوحدةِ وما إليها، تسترًا وراء معانيها البراقة، وتزييفًا لها ولأهدافها وغاياتها، فكم حرَّفوا من أفكار، وكم خرَّبوا من ضمائر!

والغربُ مثلهم وأضلّ، فإنهم أعداءُ الإسلام، لا يريدون أن تظهرَ له قوةٌ أبدًا، حتى يعيشَ المسلمون تحت قيادتهم ووصايتهم. وتاريخهم القريبُ والبعيدُ دليلٌ واضحٌ على ذلك.

والمؤمنُ فطن، لا يغترُّ بالمظاهرِ والشكليات، ولا يبيعُ دينهُ بالمصالحِ الدنيويةِ ولأجلِ راحته، بل يبقى عزيزَ النفسِ كريمًا عصاميًّا أبيًّا، مخلصًا لعقيدتهِ ومبادئه كما علَّمهُ دينه.

(٢)
الفِرَق

(أ)
التشيع دين وليس مذهبًا!

التشيع دين مخالف للإسلام، وليس مذهبًا أو فرقة منه! أو أنه آل إلى ذلك.

وقد يسمَّى "فرقة دينية"، وليس "إسلامية"، لكثرة مخالفة الشيعة للعقيدة الإسلامية وعظمها.

ومما يوضح ذلك قول شيخ الشيعة في عصره نعمة الله بن عبدالله الجزائري (ت ١٢١٢ هـ) ونسبته إلى جزائر البصرة، وقد تعلم بشيراز وأصفهان، يقول في كتابه "الأنوار النعمانية" جـ٣ ص ٢٧٩ في الفرق بين الشيعة وأهل السنة: "وحاصله أننا لم نجتمع معهم على إله ولا على نبي، ولا على إمام، وذلك أنهم يقولون إن ربهم هو الذي كان محمدٌ نبيَّه، وخليفته بعده أبو بكر، ونحن لا نقول بهذا الرب، ولا بذاك النبي، بل نقول: إن الربَّ الذي خليفةُ نبيِّه أبو بكر ليس ربَّنا، ولا ذلك النبي نبينا"!!

وليس هذا تطرفًا مذهبيًا عند الشيعة، فقد قال مثله أو أشنع منه آخرون، ولستُ بصدد جمع أقوالهم وإحصائها.

ومن ذلك ما ورد في كتاب "الكافي"، الذي يعتبر عندهم بمثابة "صحيح البخاري" عند أهل السنة، ويلقبون صاحبه (الكليني) بثقة الإسلام، أورد لأحد أئمتهم (علي بن موسى الرضا، ت ٢٠٣ هـ) قوله إن الإسلام مقتصر على من اعتنق التشيع، ففي جـ١ من ص ٢٢٣ قوله فيه: "إن شيعتنا لمكتوبون بأسمائهم وأسماء آبائهم، أخذ الله علينا وعليهم الميثاق، يرِدُون مَورِدنا، ويدخلون مدخلنا، ليس على ملة الإسلام غيرُنا وغيرهم إلى يوم القيامة"!

يعني بوضوح أن الشيعة وحدهم مسلمون، أما أهل السنة فبما أنهم غير شيعة فهم غير مسلمين!

وهذا ما نقله هم عن إمام لهم من الأئمة الاثني عشر، كما ذكرت، وكلام أئمتهم عندهم ككلام الأنبياء تمامًا!

... وأقوال أخرى تدور في هذا الفلك، اقتصرت منها على اثنين، قالها كبار علمائهم.
ولذلك فهم يكفِّرون أهل السنة؛ لأنهم لا يقولون بقولهم في دين الله..
وهذه الأقوالُ وما يقاسُ عليها تؤكدُ أن التشيع دين جديد، اخترعه رافضة يبطنون كرهاً وبغضًا للإسلام وأهله الحقيقيين، وهم أهل السنة والجماعة، الذين يشكلون أكثر من ٩٠٪ من المسلمين وفرقهم.
ولذلك ترى أبغض الناس إليهم أمير المؤمنين الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، لأنه هو الذي فتح بلاد فارس ونشر فيها دين الإسلام، أعني الذي أمر بذلك وسيَّر جيشه، فكان عليهم أن يشكروا له هذا الصنيع العظيم ويمجدوه، ويجعلوه في القمة من قادة بلادهم، ولا يملُّوا من ذكره والإشادة به؛ لأنه خلَّصهم بفضل الله من المجوسية وعبادة النار والفلسفات الضالة، ولكنهم يبغضونه أشدَّ البغض، ويفلسفون ذلك كذبًا قائلين إنه نزع الخلافة من علي رضي الله عنه، وقد رضي الصحابة رضوان الله عليهم بعهدة أبي بكر له، وأشاد به علي رضي الله عنه، فقد روى الشيخان في صحيحيهما أن عليًّا ترحَّم على عمر، رضي الله عنهما، وقال قبل أن يُرفَع ليدفن: "ما خلَّفتَ أحدًا أحبَّ إليَّ أن ألقَى اللهَ بمثلِ عملهِ منك، وايمُ اللهِ إنْ كنتُ لأظنُّ أنْ يجعلَك اللهُ مع صاحبَيك، وذاك أني كنتُ أُكثِّرُ أسمعُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقول: "جئتُ أنا وأبو بكرٍ وعمر، ودخلتُ أنا وأبو بكرٍ وعمر، وخرجتُ أنا وأبو بكرٍ وعمر"، فإنْ كنتُ لَأرجو، أو لأظنُّ، أن يجعلكَ اللهُ معهما". (صحيح البخاري ٣٦٨٥، صحيح مسلم ٢٣٨٩، واللفظ له).
كما صحَّ أنه زوَّجَ بنتهُ أمَّ كلثوم من عمر، رضي الله عنهما.
فالشيعة يبغضون الإسلام الحق كما أُنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، الإسلام الفاتح العظيم. ويأخذون أفكارهم من مصادر أخرى لا ترقَى إلى اليقين والصدق، ليبتعدوا بذلك عن الدين الحق.
وصدق العلامة محب الدين الخطيب رحمه الله عندما سمَّى كتابه "الخطوط العريضة للأسس التي قام عليها **دين** الشيعة"، فسمَّى نحلتهم دينًا، وليس فرقة أو مذهبًا إسلاميًّا[3].

(٣) ينظر الكتاب المذكور، وكتاب آخر مفيد صدر حديثًا استفدت شيئًا منه في هذا المقال القصير، وهو بعنوان "التشيع الفارسي المعاصر: خفايا المؤامرة" للأستاذ الكبير محمد عمارة، قدم له المستشار عبدالله عقيل، وصدر عن دار عمار بالأردن عام ١٤٣٦ هـ.

(ب)
المعاملة بالمثل مع علماء الشيعة

سبب عدم استنكار علماء الشيعة للمجازر والتفجيرات التي تنفذ بحق أهل السنة؛ لأنهم هم الذين يحرِّضون عليها، ويشاركون فيها، ولأنهم يعتبرون أهل السنة أعداء لهم، وكفارًا، والشيعة في موقع القوة، فلا حاجة للتقية ليُظهروا غير ذلك.

أما علماء أهل السنة فإنهم يستنكرون التفجيرات ضدَّ الشيعة ربما لبيان حكم شرعي، وللحفاظ على وحدة البلد، وحتى لا يُتهموا بالإرهاب، الذي يلصق بهم، سواء أكانوا كذلك أم لم يكونوا، ولأنهم أيضًا في موقف ضعف!

وردًا على سكوت علماء الشيعة ضدَّ المجازر بحق أهل السنة، فإني أدعو إلى التعامل معهم بالمثل، فلا يستنكر علماء السنة ما يتعرض له الشيعة من تفجيرات، حتى لا يفسَّرَ موقفُ علمائنا وتصريحاتهم بالضعف والتخاذل، أو الجبن والخوف، فإنهم بمجرد حدوث تفجير ضدهم يهرعون إلى الاستنكار ويتهافتون على ذلك بشكل عجيب!!

كما أن مواقف علماء أهل السنة (الإيجابية) لا تلقى اعتبارًا لدى الشيعة وعلمائهم، ولا يغير ذلك من مواقفهم (السلبية) تجاه أهل السنة أبدًا، مهما استنكروا ذلك و(تواضعوا) لهم، بل إنهم يزدادون عداوة وضراوة وقتلاً وتعذيبًا وفتكًا بأهل السنة.

فهل من معتبر؟

ويبقى بيان الحكم الشرعي لهذه الأعمال عند المجامع الفقهية، وكفى.

والتهويل الذي نراه ضدَّ أهل السنة إنما يصنعه الغرب الكافر في تحالف وانحياز تام إلى الشيعة، الذين كانوا يرفعون رايات الولاء لأهل البيت والبراء من أمريكا والغرب على مدى سنوات، حتى في مكة أيام الحج، ويطلبون من أهل السنة أن يكونوا مثلهم، وتبيَّن من فعلاتهم أنهم والغرب سواء على أهل الإسلام.

فلتكن لأهل السنة شخصيتهم القوية، وعزَّتهم واستقلالهم.

ولا خير في مواقف الذلِّ والاستكانة.

والله يؤيِّد بنصره من يشاء.

(ج)
مصحف الدروز وعقيدتهم

من المعروف أن الدروز من الفرق الدينية التي تكتم عقيدتها حتى عن كثير من معتنقيها، ولهم كتب خاصة لا يطلع عليها أحد سوى مشايخهم (العُقل)، لكن شيئاً ما حدث في العقود الأخيرة فصارت تظهر المعلومات التي كانوا حريصين على كتمها، وهذا يرجع لأمور، منها:

- تصريح مفكرين بارزين منهم أنهم كانوا فرقة إسلامية لكنهم الآن لهم دين خاص وشعائر لا يلتقون فيها مع المسلمين. ففي حديث للزعيم الدرزي كمال جنبلاط مع الكاتب الإسلامي المعروف مصطفى الشكعة، وهو مدوَّن في كتاب "إسلام بلا مذاهب" قال: إن الدروز اعتنقوا الإسلام في مرحلة من مراحل عقيدتهم، ولما كانت العقيدة متطورة عندهم، فقد تحولوا عن الإسلام إلى دين آخر مستقل، هو "الدين الدرزي".
- كانوا بين الكثرة الكاثرة من أهل السنة، ومقاليد الأمور بيدهم، ويخشون إنْ هم صرَّحوا بما يناقض أركان الإيمان والإسلام عندهم، ثم تغيرت الأحوال، وصاروا يجهرون بما لم يكونوا يجهرون به سابقاً.
- عصر الطباعة لم يُبقِ سرًّا، والكتاب إذا طُبع، فلا بدَّ أن يصلَ إلى الأيدي مهما بُذلَ من جهد لإخفائه.
- ثم صار الدروز أنفسهم يكشفون عن عقيدتهم ويوزعونها بين الناس، كما فعل ناشر "رسائل الحكمة": دار "لأجل المعرفة" في ديار عقل بلبنان، نشرها سنة ١٤٠٦ هـ (١٩٨٦ م)، وهي تقع في (٣) أجزاء، وتتألف من (٦) كتب، فيها (١١١) رسالة. وكانت من قبل سرية، لا يطَّلع عليها سوى العقّال، خاصَّتهم، وقد سبق طبعه في باريس (لعله سراً) عام ١٤٠٠ هـ (١٩٨٠ م).

قال الناشر المذكور في أول هذه الرسائل: نعالج في الكشف عن رسائل الحكمة كتاب الدروز المقدس، سراً استمر مكتوماً دهوراً، وفي معالجتنا هذه نقدِّر موقف جماعة يعتبرون السرية عقيدة أساسية عندهم، ويصرون على أن كشف الحقيقة يعرِّضها إلى إساءة فهمها والهزء بها،

وهذا الهزء على ما يقول كمال جنبلاط، أحد زعماء الدرزية المعاصرين، يجرُّهم إلى التهلكة، فيجب أن نتجنب مثل هذه الكارثة مهما كلفنا.

ثم أورد (١٠) اعتبارات في ردِّ هذا الزعم، وأن الأولى الإجهار بها. ا.هـ.

وقد وقع بين يدي "مصحفهم" الذي طُبع منذ مدَّة طويلة (طبع حجر)، طبعة منه ليس عليها بيانات نشر، وأخرى مطبوع عليها: بيروت: بيت اليتيم، وكلتاهما مصوَّرتان من النسخة الأصل التي تقع في (٢٦٩ ص).

ولا يرمي هذا المقال إلى تعريف هذا "المصحف" ودراسته، أو نقده ومقارنته بدين الإسلام، بل المقصود نقل فقرات قليلة منه تدلُّ على عقيدة هذه الفرقة بوضوح، لا يعرفها كثير من الناس، المسلمين منهم وغيرهم. إضافة إلى ذكر معلومات أخرى عن عقيدتهم من كتب أخرى لهم. وسيظهر للقارئ أن عقيدتهم تشكل ديناً آخر، وأنه يُطلق عليهم "فرقة" تجاوزاً.

عنوان "المصحف" المذكور، الذي يعتبر بالنسبة لهم كالقرآن عند المسلمين، وقد كتب على "هيئته" ونُقلت منه آيات، أو كلمات من آيات عديدة، هو "مصحف المنفرد بذاته"، والمقصود بهذا المنفرد هو الحاكم الفاطمي، المسمى بالحاكم بأمر الله.

جاء في (ص٤) منه – تعالى الله عن كل ما يقولون، وناقل الكفر ليس بكافر- "ونشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك" والمقصود الحاكم المذكور، ففي (ص٦) منه: "بأمر مولانا وبإرادته العلي الأعلى... باسم هذا الجسم المتجسم، داعياً معيداً لأمر مولانا الحاكم...". وفي الصفحة التالية: "إنه يأمركم بما يدنيكم من الظهور، من الحاكم، من الله، من حقائقكم، فهل أنتم راجعون إلى مالك الأديان"؟

وجاء في (ص ١٨٩): ولقد أخذ مولاكم الحاكم عليكم ميثاقاً غليظاً أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً".

ويرد في "المصحف" المذكور اسم حمزة بن علي، وهو من مؤسسي المذهب الدرزي (ت ٤٣٣ هـ) وهو الذي أظهر دعوتهم وجاهر بتأليه الحاكم وقال إنه رسوله، وأقرَّه الحاكم على ما نعت به نفسه، فلقبه برسول الله!

وحمزة هذا عند الدروز من الخمسة المعصومين...

وعلي بن أحمد السُّموقي، المتوفى نحو سنة ٤٢٠ هـ، كتب معظم رسائل الدروز، ويحسب أنه واضع أسس الديانة الدرزية وناشرها ومؤيدها، ومنزلته في الدرزية كمنزلة بولس في النصرانية، وله رسائل وضعها مع مؤسسي هذه الدعوة حمزة المذكور، وإسماعيل التميمي، سميت بـ "رسائل الحكمة"، التي سبقت الإشارة إليها في مقدمة هذا المقال.

وقد ورد في مقدمتها من الطبعة الجديدة، لكاتب درزي: وهي -أي العقيدة الدرزية-: تختلف اختلافاً عميقاً وجوهرياً عن الإسلام، مع أنها نشأت في ظله، واعتمدت على كتابه، وتختلف عن اليهودية والنصرانية... غير أنها تجلُّ الفلسفة اليونانية...إلخ.

وقال في ص ١٧: بوسعنا أن نلخص العقيدة الدرزية بما يلي: لقد مرت الخليقة منذ وجودها في اثنين وسبعين دوراً، ونحن اليوم في الدور الأخير منها، وكان الله في كل دور يتجلى للعالم ويكشف عن نفسه ويظهر في صورة إنسان، فكان ظهوره الأخير في شخص الحاكم بأمر الله، الخليفة الفاطمي السادس، أما في الدور الأول فكان ظهوره باسم "العلي الأعلى" الذي لا نعرف عنه شيئاً!

قال: ثم تستفيض "رسائل الحكمة" في الكلام على ألوهية الحاكم وإثباتها بشتى الطرق، فنرى في تصرفاته وأعماله الشاذة منها والجدية معنى إلهياً وحكمة سامية تعلو مدارك البشر...

وذكر أن الدروز يؤولون كل ما في الكتب السماوية، وأن المقصود بإبليس فيها " محمدٌ" [صلى الله عليه وسلم، وهو الذي بشر به جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام]. وأورد أشياء من عقيدتهم في نبينا لا يُطاق كتابتها!!

وقد وقفت على رسالة للسموقي بعنوان "رسالة التبيين والاستدراك لبعض ما لم تدركه العقول في كشف الكفر المحجوب من الإلحاد والإشراك" الذي يبدو فيها موقفهم من الإسلام ونبيّه. وقد نشرها أنور ياسين في الرقم (٣) من "سلسلة الأديان السرية" سنة ١٤٠٥ هـ، تحت عنوان "النبي محمد في العقيدة الدرزية" وذلك في "ذكرى مرور ألف سنة على ظهور الله في شخص الحاكم بأمر الله، ووجود العقل الكلي في شخص حمزة بن علي قائم الزمان وهادي المستجيبين" كما كُتب تحت العنوان، تعالى الله عن ذلك.

وقد بدأ رسالته بقوله: "توكلت على المولى الإله الحاكم مأزل الأزل وتوسلت إليه بوليه القائم الهادي علة العلل...".

وقال من بعد: لما تعقبت من شريعة الإبليس المواضع البينة الخلل...". ويعني به محمداً رسولَ الله صلى الله عليه وسلم، ويعني بشريعته القرآن الكريم، كما وضحه محققه في الهامش، وأورد لهم ألقاباً أخرى ينعتون بها رسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام، لا يطاوعني القلم في كتابتها، أقلها فيه قول السموقي: "المسرف الكذاب".

وفي كتاب "تعليم الدين الدرزي" الذي قدَّم له أنور ياسين، وصدر عام ١٤٠٥ هـ (١٩٨٥ م) في سلسلة "الأديان السرية"، ذكر في المقدمة أن هذا الكتاب معروف في كل قرية ومجلس وخلوة عند الدروز، لتعليم "جهّالهم" خاصَّة، وأنه طبع بالعربية أكثر من مرة، وهو موجود في معظم مكتبات العالم، وهو على طريقة السؤال والجواب، من ذلك:

سؤال الجاهل: أدرزي أنت؟

جواب العاقل: نعم، بقوة مولانا الحاكم سبحانه.

س :ما هو الدرزي؟

ج: هو الذي كتب على نفسه الميثاق، وعبدَ الحاكم الخلاّق.

س: ما فُرِضَ عليك؟

ج: صدق اللسان، وعبادة الحاكم، وباقي الشروط السبعة.

ويتبين لنا من بعد، أن الدرزية نحلة لا تنتمي إلى الإسلام، بل هي مناقضة له، كما يبدو ذلك من أقوال مؤسسيها.

(د)

فرقة وفرق

هل تعلم أن (ميرزا أحمد القادياني) كان داعية إسلاميًا مشهورًا، وقد نشط في نشر دين الإسلام، حتى صار له تلامذة محبون في مختلف أنحاء الهند، وكان خطيبًا متمرسًا مؤثرًا؟

ثم انتكس شيئًا فشيئًا، اغترَّ بعلمه وشعبيته، ونزعت الخشية من قلبه، أخضع القرآن الكريم ودين الإسلام إلى العلوم الطبيعية ونظرياتها، وأوَّل المعجزات، وحرَّم مقاومة الإنجليز، فألغى الجهاد من الدين، وتطور الأمر معه حتى ادَّعى النبوة، وأنشأ (دينًا) جديدًا سمي بـ(الأحمدية القاديانية)، وصار صنيعة لأعداء الدين.

ومن معتقدات هذه الفرقة الضالة أن الله يصوم ويصلي، وينام ويصحو، ويخطئ ويصيب، ويجامع!! تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

وأن (قاديان) أفضل من مكة والمدينة، وأرضها حرَم، وهي قبلة القاديانية ومكان حجِّهم.

وهم يعتبرون كلَّ مسلم كافرًا حتى يدين بالقاديانية!

ومن تزوج منهم بغير قاديانية حُكم بكفره!

والمخدرات والمسكرات والأفيون والخمر كلها عندهم حلال!

ومع ذلك فأتباعها بالملايين!!

احذروا الفرق وما إليها إذًا،

وتفكَّروا كيف استدرج مؤسسوها حتى خرجوا عن الإسلام،

إن الشيطان للإنسان بالمرصاد،

إنه يسوِّل له كثيرًا من الأفكار الباطلة ويلبِّسها لبوس الحقّ ليخدعه!

وقد كانت فرق كثيرة ضمن دين الإسلام، في زمن من الأزمان،

ولكن أصحابها انحرفوا وارتدوا على أدبارهم؛ لأنهم استعملوا عواطفهم وعقولهم الناقصة ونهجهم المنحرف ومصالحهم الخاصة بدل الاستدلال بالوحي والاسترشاد به، وأوَّلوا النصوص وفسَّروها كما تسوِّل لهم أنفسهم لا كما يريده الشرع، ولم يكتفوا بما كان يكتفي

به صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد نهوا عن كثرة الأسئلة حتى لا يستبيحوا عقولهم وعواطفهم ويدخلوها فيما لا علم لهم به، وما لا خير من ورائه.

فالتفكير والخيال والاجتهاد لا حدود له عند الإنسان، وإذا لم يُضبط بالوحي ندَّ وخرج عن الحدود المسموح له فيها، فضلَّ، وأضلّ.

اتَّبعوا نهج رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام، وخاصة الخلفاء الراشدين، رضي الله عنهم أجمعين، وامتثلوا قوله عليه الصلاة والسلام كما في الحديث الصحيح: "عليكم بسنتي وسنةِ الخلفاءِ المهديين الراشدين، تمسَّكوا بها، وعَضُّوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدَثاتِ الأمور، فإن كلَّ محدَثةٍ بدعة، وكلَّ بدعةٍ ضلالة".

لا حظوا جيدًا تعبير "تمسَّكوا"، ثم التأكيد بـ"عضُّوا عليها بالنواجذ"، فإنه تعبير وتشبيه قوي عال، ودواء لكثير من الفرق، ولأصحاب الأفكار المنحرفة عمومًا.

ثبَّتنا الله على صراطهِ المستقيم.

(٣)
الإسلام والمذاهب الفكرية

(أ)
النور والظلمة

هناك قوم قدَّموا أنفسهم للإسلام، وتكلموا باسمه، وادَّعوا أن عقولهم متنورة، بينما قلوبهم مظلمة، فألسنتهم من أمامهم، ودينهم من خلفهم، ما رأيتهم مرة يتكلمون عن تقوى، ولا فوز للإنسان إلا بها، وما يتكلمون عن جنة أو نار، وإليهما مآل البشر، لكنهم يتهافتون على الاجتهادات في الدين ويبدون آراءهم في أعقد المسائل، وهم لم يجلسوا إلى عالم قط، ومعظمهم لم يدرس في معاهد دينية، ولا جامعات إسلامية، بل كل ثقافتهم الدينية تعود إلى صحف كتب فيها صحفيون لا تدري مذهبهم وفكرهم، ومرجعهم وارتباطهم، أو كتّاب دوَّنوا مقالات وألفوا مؤلفات، ولو كانوا خائضين في أوحال، فقرؤوا لهم، وتأثروا بهم، ويزيدون بلاء إذا قرؤوا كتبًا للفرق، فيتلقفون كلمات لهم في العقل والكلام، فيرددونها، ويخلطونها بالعقيدة الصافية، ويقولون: هذا هو الإسلام! ولعلهم لم ينشؤوا في جوّ إسلامي، ولم يتربوا تربية إسلامية، فلا تجد آثار خشية في قلوبهم، ولا خشوع في وجوههم، ولا ورع في حديثهم ومعاملتهم، لا يتورَّعون عن فتوى ولو لم يعرفوا مناطَ حكمٍ وعلةَ مسألة، ومآلَ العمل بها وعاقبة أمرها، والمتقون ينأون عنها ويحيلونها إلى غيرهم من أصحاب العلم والفقه خوفاً من أن يقولوا في دين الله بدون علم. ولو كان أحد هؤلاء طبيباً، وقلت له إنك قرأت بعض كتب الطب والصحة التي اشتريتها من على أرصفة أو مكتبة، وأنك تتابع بعض الزوايا الطبية في الجرائد وأجوبة الأطباء فيها على أسئلة المرضى، وصرت أنت أيضاً تطببهم وتجيب على أسئلتهم، لقال لك مباشرة: إن ذلك لا يجوز، وأنك ستؤذي أجساد الناس وتهلكهم، فمهنة الطب عزيزة، ولابد لها من دراسة ومران، ومعالجة مرضى أولاً تحت إشراف أطباء أكثر معرفة وخبرة.. ويشرح لك شؤون الطب وفروعه العديدة؛ لبيان خطورته والتحذير من العمل به إلا لأهله.

وكذلك لو كان أحدهم مهندساً، وقلت له إنك تملك أدوات البناء، وتعرف صبَّ الخرسانة وعمق الأساسات.. وتتعامل مع الناس بدون دراسة وشهادة، لقال لك: إنك ستهدم بيوت الناس على رؤوسهم، فالهندسة المعمارية دراسة سنوات، ومعاينة، وموازين دقيقة في الطول والعرض والارتفاع..

ولو قلت إن الدين بحرٌ كذلك، لا يدرك غوره إلا علماء درسوا على علماء أكبر، وأمضوا الأيام والليالي يدرسون الأصول والقواعد الفقهية وفروعها، وعلوم القرآن التي تزيد على مائة نوع، وعلوم الحديث وأصوله، من الجرح والتعديل، وطرق التخريج، والناسخ والمنسوخ، وعلل الحديث، ومشكله، ومؤتلفه ومختلفه، وتوفيقه وغريبه، وبلاغته وإعرابه وأمثاله. وأنواع من حسن وصحيح، وضعيف وموضوع، ومرسل ومنقطع ومعضل، ومعلل ومضطرب، ومقلوب وشاذ ومنكر ومتروك... وأن هناك من يدرس سنوات فرعاً من هذه الفروع ليقدم فيها رسالة علمية..

ولو ذكرت له أبواب الفقه وموضوعاته وفروعه وقواعده الأصولية والفقهية... لملَّ من سماعها لطولها، وبعضها من المؤكد لم يسمع بها سماعاً..

ثم تقول: كيف لا تعرف شيئاً من هذه الأمور وأنت تبدي رأيك بأسرع ما يكون، وتُفتي في دين الله بغير علم وأنت لم تقرأ على عالم، ولم تدرس في جامعة ولم.. ولم.

والعاقل يتذكر ويرجع، والمؤمن يخشع ويؤوب ولا يعاند.

أما من يركب رأسه، فلا يهمه هذا كله، لأنه لا يعرف معنى التقوى، ولا يفكر بجنة أو نار، وإنما همه الوقيعة في المسلمين وخذلانهم لا الشفقة عليهم، والضحك على عقول علمائهم من أصحاب العمائم واللحى، ممن يطبقون سنة نبيهم صلى الله عليه وسلم، ويحافظون على دينهم.. وهذا الوصف لمن يستحقه، وليس لكلهم، فإن بعضهم إيمانهم على حرف والعياذ بالله، ولذلك الأفضل نصحهم وعدم التعمق في مجادلتهم؛ خوفًا من سماع ما يُخشى منه، فإن بعضهم يجتهد حتى في أمور عقدية خطيرة، لأن عقله يقوده إلى ذلك، فالعقل عنده (جاهز)، لأنه لا يعرف أو لا يحفظ أثرًا من قرآن وسنة، وليس عنده قواعد وموازين نقلية، فإذا كان أهل العلم جميعًا يقولون أفضل التفسير ماكان تفسيرًا للقرآن بالقرآن، كان الجواب في عقله الموبوء أن الأفضل ما كان تفسيره بالعقل، ولو كان هذا العقل غير مدرك لجوانبه! ولم يأخذ باعتبارٍ قولَ صدِّيق هذه الأمة: "أيُّ أرضٍ تقلُّني، وأيُّ سماءٍ تظلُّني، إذا قلتُ في القرآنِ ما لا أعلم"؟! كما أنه لا

يكاد يقيم للسنة وزنًا، لأنه لا يعرفها، ومن جهلَ شيئًا عاداه، ويسهلُ عليه أن يقول (لا يوجد) أو (لا لزوم له) بدل قوله (لا أعلم) أو (لا أعرف) الثقيلة على (مثقف) مثله!

إن هؤلاء عليهم أن يعالجوا قلوبهم أولاً بالخشية قبل أن يعملوا عقولهم في دين الله، ليتقوا الله ولا يقولوا في دينه ما لا يعلمون، فإنهم ليسو أهل اختصاص، وغير متمكنين في هذا الدين العظيم، وإنهم لمسؤولون أمام الله يوم الدين بما كانوا سببًا في انحراف عقول ومرض قلوب. ليتذكر أحدهم ذلك اليوم الرهيب عندما يسوقه ملَكٌ ويوقفه بين يدي الله، وملَكٌ آخر يشهد عليه بما قال وبما فعل، ماذا يكون جوابه؟ {يَوْمَ يَأْتِ لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ} [سورة هود: ١٠٥].

(ب)
التنويرية المظلمة

حركة التنوير – لمن لا يعرفها – تقدِّس العقل، وتهاجم الدين، وتعتبره من مخلفات البدائية والخرافة. وقد نشأت في الغرب، في قصة صراع مرير مع الكنيسة، وامتدت إلى العالم الإسلامي في غزو فكري مكثف. ويستخدم الليبراليون هذا المصطلح كثيرًا لأنه لفظ برّاق مخادع.

ويتلخص برنامج هذه الحركة وشعارها بقولها: "إن أنوار العقل الطبيعي وحدها هي القادرة على قيادة بني الإنسان إلى كمال العلم والحكمة".

ويعرف بهذا أنها حركة علمانية في وضوح وجلاء، لا تعتدُّ بالوحي مطلقًا، بل تشكك بكل المعتقدات الدينية.

وفي البلاد الإسلامية تطلق على حركة التثقيف والتجديد والتحديث التي بدأت منذ نحو قرن ونصف القرن، متأثرة بالتنويرية الغربية ونهجها، جاهدة في الانفلات من الدين، ونبذ أحكامه وتشريعاته.

وقد نشط لها أولاً مثقفون وصحفيون من الموارنة والأقباط، أولهم (أمين شميل) (ت ١٨٩٧م) الذي دعا إلى استبدال العامية بالفصحى، و(شبلي شميل) (ت ١٩١٧م) المدافع المستميت عن الداروينية والفلسفة المادية... وآخرون أمثالهما، الذين أنشؤوا مجلة (المقتطف) ونشروا فيها سمومهم، وتابعهم في ذلك مسلمون.. وأبرزهم الآن (جابر عصفور) كبير الحداثيين في مصر والعالم العربي، الذي قاد حملة لإحياء التنوير بمفهومه الغربي. ومثله محمد أركون، وصادق جلال العظم، وطيب تيزيني.

ويستعمل أفرادها النهج الوضعي المادي التجريبي، الذي أدَّى إلى الإلحاد، وإنكار الوحي، والعلمانية.

ومن المؤسف أن يقلدهم بعض الكتّاب والمثقفين المسلمين، ويلبِّسوا دعوتهم الإسلامية بغلاف (تنويري) طلبًا للنزعة التجديدية، مما أوقعهم في شطحات غير مقبولة، بل وأخطاء قاتلة، وخرج بعضهم على العقائد والأصول، أمثال محمد شحرور، ونصر حامد أبو زيد،

الذي كان يعتبر القرآن الكريم نصًا بشريًا ولغويًا، ومنتجًا ثقافيًا لا قداسة له، وأن الوحي مجرد ظاهرة، وكل ذلك قابل للنقاش والأخذ والرد! وقد خرج الحكم من محكمة الأحوال الشخصية بارتداده، كما حكمت بتفريقه عن زوجته لكفره كفرًا واضحًا، واعتبر بذلك مرتدًا، فهرب إلى هولندا بتدبير من الدولة... ومات بفيروس غامض لم يعرفه الأطباء.

وقد سمعت أنه كان ذا بدايات طيبة، ولكن العلمانيين والحداثيين مازالوا يوردون له الشبهة تلو الأخرى حتى انحرف..

واتخذ العلمانيون شعار (التنوير) لتصوير معركة بين الإسلام والعلم، وبين الدين والعقل، للتخلص من الماضي، والنهوض بالمستقبل، غير آبهين بالردود في بيان الفرق الشاسع بين الكنيسة والإسلام.

وقد أدرك بعضهم من بعد أن التنوير الزائف في بلادنا ما هو إلا عبث بالأمة، ومسخ لتراثها!

(اعتمدت في بيان هذه الحركة على موسوعة المذاهب الفكرية، مع إضافات).

(ج)
العقلانية والدين

العقلانية مدارس وأفكار، في الشـــرق وفي الغرب، تشـــترك في أن العقل، لا الوحي، هو المرجع الوحيد – أو الأول – في تفسير كل شيء في الوجود.

ولا تؤمن بالمعجزات، أو خوارق العادات.

وتختبر العقائد الدينية بمعيار عقلي، فما وافق العقل منها قُبل، وإلا رُفض!

والعقلانية لها جذور تاريخية في الفلسفة اليونانية، وعند المسلمين، وفي الغرب.

والمهم في هذا المقال هو الاتجاه العقلاني المعاصـــر في البلاد الإســـلامية، المتأثر بالفكر الغربي، والذي فُتن به كثير من المفكرين المسلمين، حتى تسلَّل إلى بعض علماء الإسلام، في درجات من التأثير، ضعيفة وقوية.

وهم بدعوى تقريب الدين للناس تســاهلوا في عرضــه وبيان سماحته ولينه حتى ســقطت هيبته من نفوس كثير من الناس! مثل التهاون في عقيدة الولاء والبراء بدعوى التســـامح الديني وحقوق المواطنة، وهم بذلك لم يرضوا الربَّ ولا الغرب.

وقولهم إن الدين يحتاج إلى "تطوير" للحاق بركب الحضارة الغربية.. مع أن دين الإسلام لم يقف في يوم من الأيام في طريق العلم والتقدم والحضارة.

ومنهم من قرَّب غيبيات الدين بأنها دلالات رمزية غير حقيقية، وأن ذلك ناسب سذاجة العرب في وقتها، فخُذل بذلك وضلَّ.

وردُّوا السـنَّة النبوية الشـريفة كليًا أو جزئيًّا، فمنهم من قبلَ المتواتر منها فقط، وهي بضـعة أحاديث، ومنهم من قبل ما وافق القرآن وحده، مع أن السـنة تشـريع مثل القرآن الكريم إذا صـحَّت، فكلاهما وحي من عند الله تعالى، ورسـول الله صـلى الله عليه وسـلم لا ينطق عن الهوى.

ومنهم من قبل الأحـاديث إذا اتفقت مع العقل والتجربة البشرية.. وهو ميزان قلق لا يتفق مع كل العقول، والتجارب تتغير وتتجدد.. وتوجد أحاديث غيبية لا تخضــع للتجربة.. وقد أجاب عن الشـــبه الواردة على الســـنة أعلام في كتب كثيرة، أبرزها كتاب "الســـنة

ومكانتها في التشريع الإسلامي" للعلامة مصطفى السباعي، و"دفاع عن السنة وشبه المستشرقين والكتّاب المعاصرين" للأستاذ محمد محمد أبو شهبة رحمه الله..

ووضعوا حرية واسعة في الاجتهاد والتخفيف من قيوده. والهدف من الاجتهاد هو إصابة الحق، ولا يقدر عليه إلا من توفرت فيه شروط الاجتهاد، والإحاطة بالمسائل الفقهية، حتى لا يأتي الجواب متعارضًا مع قواعد أصولية وفقهية ونصوص شرعية أخرى. ومن لا يعرف السباحة كيف يسبح؟ وإذا سبح ألا يغرق؟

ثم إنهم يقدِّمون العقل على النقل، يعني على الوحي، وهو من أخصِّ أصولهم وأقدمها، وسبقتهم إليها فرق عقلانية في التاريخ الإسلامي، من مثل المعتزلة والجهمية وغيرهما.

وبتفضيلهم العقل على الوحي كأنهم يفترضون أن القرآن والسنة قد خلوَا من المعقولات! وأن العقل الصحيح يمكن أن يعارض النصَّ الصريح. وهو ما لا يكون في دين الإسلام، لأن العقل والنقل إن تعارضا فإما أن العقل غير سديد، أو أن النص غير ثابت. ولابن تيمية كتاب ضخم في هذا يقع في (١٠) مجلدات، بعنوان "درء تعارض العقل والنقل".

ثم إن تقديم العقل على النقل هو تقديم للعقل البشري الذي يخطئ ويصيب على النص الشرعي المقدَّس.

وقد قال لي أحدهم إن كلمة العقل وتصريفاته وردت في القرآن كذا مرة، فكيف تستهين به ولا تقدمه؟

يا سبحان الله! ومن يستهين بالعقل غير المجنون؟! أليس هو أجلُّ ما خلقه الله في الإنسان؟ إن الذي يستهين بالعقل يستهين بعقله أولاً. ولكن كل ما ورد من (عقل) في القرآن يدعو إلى الالتزام بالقرآن، وإلى طاعة الله ورسوله، وردِّ كلِّ شيء إلى الشرع. يعني باختصار: إلى الوحي. فالوحي أولاً.

وقد يجادل أحدهم ويقول: ما قيمة الوحي إذا لم يكن هناك عقل؟!

أقول: وهل نزل القرآن على مجانين؟ هل الوحي يخاطب العقلاء أم المجانين؟ هل اتِّباعُ الوحي يعني إلغاءَ العقل؟ هل عندما تصلي تلغي عقلك؟ هل عندما تبحث عن جواب فتوى عويصة تضع عقلك جانبًا؟ إنه تشويش بلا فائدة.

لقد نزل الوحي ليضبط العقل في تصرفاته الخاطئة، ليدلَّه على الحق، لينوِّره، فإن الوحي يسدِّد ولا يخطئ، والعقل يخطئ، ولذلك فالوحي أولاً، ثم العقل.

و(العقلانيون) يقدِّمون المصلحة على النص. وهذا يشبه ما قبله، في توهمهم أن قاعدة المصالح والمفاسد الشرعية وقاعدة مقاصد الشريعة قد تأتي مخالفة للنص الشرعي، وهذا باطل؛ لأن الدين شُرع لمصالح الناس، فكيف يوجد فيه ما يخالفها؟

وانساقوا للخضوع إلى الواقع مجاراة للعصر وأهله على حساب الدين وقواعده تساهلاً منهم في ذلك، وهو دالّ على رقة في الدين، وضعف في الشخصية، وانهزام نفسي تجاه المدنية الغربية.

ونشأ من أسلوبهم الانهزامي هذا إضعاف لعالمية الإسلام، بإحلال روابط غير رابطة الدين والترويج لها على حسابه، وجعلوا النصوص الشرعية تابعة للاتجاه الفكري لا العكس، وأضعفوا الثقة بشمولية الإسلام وهيمنته؛ للتوفيق بين الإسلام والنظم الغربية، وزهَّدوا الأمة بسلفها العظام، كما دعموا المذاهب الغربية مع تمريرها.. ورحم الله من اتبع سنن الهدى، وتبصَّر في دينه بقواعده.

(مستفاد من موسوعة المذاهب الفكرية، مع إضافات).

(د)

تقرير "إسلام حضاري ديمقراطي"

هل تعلم أن مؤسسة (راند) من أكبر مراكز البحوث والدراسات في أمريكا والعالم، ولها دور كبير في صنع القرار الأمريكي؟

وقد أعدَّت هذه المؤسسة تقرير "إسلام حضاري ديمقراطي" بعد أحداث سبتمبر ٢٠٠١م بهدف تغيير الإسلام من داخله، والتأثير على المسلمين، وقامت أمريكا بشنِّ هذه الحرب الفكرية ضدَّ الإسلام والمسلمين بكل قوة.

وقد أساء هذا التقرير المذكور إلى القرآن الكريم وتنقَّص منه، كما أساء إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وإلى السنة النبوية.

وقسَّم التقرير المجتمع المسلم إلى أربع فئات فكرية، وخلص إلى أن (التجديديين) هم خيار أمريكا الاستراتيجي لتطوير الإسلام (تطويعه). ووضع خمسة أمور لبناء إسلام (حضاري) يتناغم مع الغرب، ويدور في فلك مصلحته.

وأوصى التقرير بدعم التجديديين وتبنيهم، وهم من يسمى بالتنويريين أو بالعصرانيين، وغيرها من المسميات. وهم امتداد (فكري) للمدرسة العقلانية، وكان لها دور في خدمة المحتلين، ولذا يُراد من أتباعها اليوم ذلك الدور وأكثر.

وينظر للتوسع كتاب: "**الإسلام الذي يريده الغرب: قراءة في وثيقة أمريكية**"، الذي ألفه الأستاذ صالح بن عبدالله الغامدي، وصدر حديثًا، اقرأه، فإنه نفيس جدًا.

(هـ)

حجم جريمة الحكم العلماني

لا يجوز الحكم بغير شريعة الإسلام، في جميع شؤون الحياة، ومن فعل ذلك فهو ظالم، وفاسق وفاجر، يعاقب على فعله.

والذي حدث أن معظم حكام الدول العربية والإسلامية فعلوا ذلك في عصرنا، ليس بعد سقوط الخلافة الإسلامية، لأنهم أثناءها لم يملكوا من أمرهم شيئًا، فقد احتُلَّت بلادهم من قبل عدو صليبي أو كافر، ومن الطبيعي أن لا يحكم المحتل بالإسلام، بل حاربه، وربَّى جيلاً على أفكاره، وكان يرسل النخبة منهم إلى البلاد الغربية ليروا حضارتهم ويتأثروا بأحزابهم ومناهجهم، فيدرسون هناك، ويتدربون هناك، ويخالطون رجالهم الكبار، ويفتخرون بالتتلمذ عليهم، كما يخالطون النساء... فيعودون مبهورين بمدنيته، محبطين بما هو عليه بلادهم، ويقولون: إن الفعل فعلهم، وإن الحضارة حضارتهم.. ويدعون إلى تحرير المرأة من الدين والأخلاق، ويتبارون إلى تأسيس الأحزاب على هيئة أحزابهم اللادينية، لا آية في مبادئها، ولا حديث في لوائحها، ولا موضع لأدب أو خُلق إسلامي في أنظمتها، ويتلقون من أصدقائهم الدعم، ماديًا ومعنويًا، ويصير لهم أنصار من بلادهم، حتى كثروا وانتشروا.

ثم "يفوزون" ويحكمون، طبعًا بغير الإسلام، ولكن بأفكار قومية كما كانت في أوروبا في عهد ما، وبالاشتراكية كما كان في الاتحاد السوفيتي وأوربا الشرقية، ولما تركوا القومية والاشتراكية تبلبلت أفكار الأحزاب في بلادنا واهتزت؛ لأن مؤسسيها وقيادييها ما كانوا سوى ظل لأحزاب الغرب وأنظمتهم، فمنهم من ترك، ومنهم من خلط، ومنهم من نهج نهجه في الليبرالية والعلمانية ودعوى الحرية، بعد تزويق وترقيع.

فالبلاء الأكبر جاءنا من الاحتلال، الذي ربَّى جيلاً على أفكاره.. وقد حكم تلامذتهم وذيولهم نصف قرن، ولكنهم لم يقدِّموا لبلادهم سوى النظم الدكتاتورية.. التي نادت بالحرية والديمقراطية لخدعة أهلها، ولتثبيت قبضتهم على الحكم، ونهب خيراتهم، مثل أساتذتهم الغربيين عندما احتلوا البلاد... فأذاقوا الشعوب أنواع القهر والتسلط والتخلف والجهل والجوع.

وقد بثَّ هؤلاء العلمانيون أفكارهم عبر جميع وسائل الإعلام والمؤسسات الحكومية الكبرى التي تحتضن عقل الشعب وعاطفته، وتربيته ومعيشته، من مدارس وجامعات ووزارات.. مع تربية حزبية صارمة وعنصرية حاقدة، بعيدة عن الدين والمروءة والأخلاق، بل تعتبر الدين رجعية وتخلفًا. وصار هذا منهج كثير جدًا من الشعب العربي والشعوب الإسلامية، بعد تلك التربية المفروضة عليم من جميع الجهات، فصاروا لا يرون حواليهم سوى هذا، ولا يُسمح لهم بغيره.

فإذا أراد أحدهم أن ينشئ حزبًا تكون أهدافه قريبة من الحزب الحاكم، ولا تكاد تزيد عن مفهوم "الوحدة والحرية والاشتراكية"، مع زيادة ونقص هنا وهناك، يدور في فلك أفكار شرقية أو غربية. ولا يوضع فيها كلمة عن الإسلام، وصارت الأحزاب والإدارات والمؤسسات والبنوك والمعاملات والعلاقات الخارجية والداخلية لا مكان للدين فيها، ولا يسمح فيها حتى بوضع البسملة على الخطابات كما هو في سورية. يعني أنهم صبغوا جميع مؤسسات الدولة بعيدة عن دين الله، فصاروا كأنهم يعيشون في بلد غير إسلامي، فلا ولاء لله ولرسوله وللمؤمنين، ولا براء من زعماء الكفر والضلال، ويتبع "المسلم" أفكار الحزب ولو كان صاحبه أو رئيس فرعه مسيحيًا.. وانظر إلى عدد المسلمين المنتسبين إلى الحزب القومي السوري الذي أنشأه أنطون سعادة، وإلى عدد المنتسبين إلى حزب البعث العربي الاشتراكي الذي أنشأه ميشيل عفلق... إنهم ملايين الشباب وكبار القادة والرؤساء والوزراء والمفكرين من المسلمين، وصاروا في درجة من التعصب للحزب إلى الدفاع عنه بأرواحهم، وهو ما لا يفعلونه لدينهم، على الرغم من أنه حزب دكتاتوري ذاق الشعب من جرائه الويلات في سوريا والعراق خاصة، ومعظم الأحزاب العلمانية عندنا متشابهة عمليًا، ولا تغرنك الشعارات.

ولما انطلقت الثورات العربية، وصار الدين أمرًا واقعًا وأساسيًا في الحكم، وخاصة في مصر، وسُمح للأحزاب والجمعيات والمؤسسات الإسلامية بالعمل والحركة، كشرت العلمانية عن أنيابها، وضاقت الدنيا في عينها، فصار العلمانيون يخططون، ويتلونون ويراوغون؛ لأنهم يعلمون أنهم لو تهجموا على الإسلام باسمه ورفضوه، لقام عليهم كثير من الشعب المتدين الذي انغرَّ بهم، ولكنهم صاروا يهدفون رموز الدين، والدعاة والجماعات الإسلامية بأسلوب قذر، فيه التنابز والكراهية، فيقولون "أخونة الدولة" بدل "أسلمة الدولة"، ويخوفون الناس من السلفية ويصبغونها بالجمود والأصولية، وما إلى ذلك.

وقد صدقهم بعض المغفلين من المسلمين، فصاروا يمشون في مواكبهم، ويرددون شعاراتهم ضد أهل الدين، وينادون بإسقاط الدولة الإسلامية الفتية، التي لا يريد لها أعداؤها أن تتنفس، ولما يمض عليها عام، وهو قصير جدًا جدًا في عمر الدول، لا يمكن إلا إصلاح أجزاء يسيرة منها، بعد ظلم وفساد وتخريب ذمم دام أكثر من نصف قرن!

فلا غرو أن تجد بينهم محجبات أو أصحاب لحى، لا يعرفون حقيقة دينهم، ولا ما يريد بهم العلمانيون وبدينهم.

وصاروا يجتمعون وكانوا متفرقين متحاسدين. يجتمعون على محاربة الدين للعودة إلى الحكم بالعلمانية والفساد الاجتماعي الذي تربوا عليه، فهم لا يطيقون العيش في أجواء ربانية، ولا تحت ظل أحكام شرعية، لا غشَّ فيها ولا تزوير، ولا مزايا فيها للكبار ولا رشوة، ولا بلطجية ولا عصابات ولا مؤامرات، فصاروا كأنهم يعيشون في غربة أو فراغ، وقد سُحبت الكراسي من تحتهم، وأُفرغ ما في أيديهم، وهم لم يألفوا ذلك، فبدؤوا يخططون لضرب الإسلام من جديد نيابة عن أساتذتهم المحتلين، الذين ربوهم على ذلك، ويتلقون منهم الدعم مرة أخرى بعد أن شعروا أن مواقعهم ومصالحهم وأصدقاءهم باتوا في خطر، وأن الشباب الجديد صار يربَّى على العمل والإخلاص للدين والوطن.

وباختصار، فإن تجربة الحكم العلماني أفرزت ملايين المسلمين الذين لا يعرفون دينهم حقًا، أو لا يأبهون به، أو لا يفرقون بينه وبين أي نظام آخر!! بل صاروا يدورون في فلك أعداء الدين وهم لا يعلمون أنهم بذلك يساعدون على هدم الدين، أو هم صاروا يحاربون الدين من حيث يدرون أو لا يدرون!

(١)
مقام السجود

مقامُ السجود لربِّ العباد مقامٌ عظيم.

لا يدركه إلا المؤمنُ الحق، المستسلمُ لله رب العالمين، العارفُ بمعناه، الغائصُ في أسراره.

والحركة لا معنى لها ما لم تكن مصحوبةً بنيَّة وفهمٍ يدلُّ عليها.

وحركة السجود مع كلماتٍ في أثناء السكون، هي أعظم دلالة على معناها وأسرارها.

ففيه يقال: "سبحان ربيَ الأعلى".

والكلمة الأولى تنزيه لله تعالى من الشريك، ومن كلِّ نقص، ومن كلِّ ما لا يليق بجلاله وعظمته.

والربُّ هو المنعمُ والرازق، وهو الخالق والمدبِّر، والمحيي والمميت، والذي بيده كلُّ شيء، فهو المتصرف وحده سبحانه في الكون كله، لا يشركه في ذلك أحد.

وهو العليُّ الأعلى، الذي ليس فوقه شيء، المتفرِّد بالعلوِّ والعظمة، ومهما علا الإنسان فلا يتجاوز مقام العبودية له.

وكلُّ هذه المعاني العظيمة تُقال في مقام السجود، الذي يعني العبادة لله بأكبر دلالة عملية، والاعترافَ بالذلِّ له سبحانه، فهو الخالق البارئ، والربُّ الأعلى، الذي خلق البشر ليعبدوه، فمن استجاب لأمره وعبدهُ وصدق في عبادته سجدَ له اعترافاً بالعبودية الحقة له سبحانه، ومن أبَى السجود فقد تكبَّر واستعلى على الربِّ الأعلى، وكان على شاكلة إبليس اللعين، المطرودِ من رحمةِ ربِّ العالمين.

أما أمرُ السجود وأحواله عند أهل الإيمان والولاية والسكينة، فلا أعجب منه ولا أجلّ!

وخاصة إذا خلوا في صلواتهم مع ربهم ولم يكن عندهم أحد، والناس نائمون أو لاهون.. عند ذلك يمرِّغون جبهاتهم بالتراب ويستكينون له سبحانه، في أروعِ منظر للعبودية الصادقة، ويسبحون الربَّ الأعلى من أعماق قلوبهم، ويشعرون بالقرب منه أكثر، ويملأ النور أفئدتهم، وتنحدرُ الدموع من عيونهم، ويقشعرُّ كلُّ جزء في أبدانهم، وينطلقون في مشاعرهم إلى عوالم

ملائكية ونورانية، وتخفُّ أرواحهم بهذا فلا يشعرون بثقل الجسد الذي يحملهم، ويتحولون إلى قطعة من الإيمان تملأ كيانهم كلَّه، فيرتوون من هذا الجلال والصفاء والنقاء، حتى تكتنفهم السعادة من جميع جوانبهم، وتغمر أنحاءهم كلَّها، وهي سعادةٌ لا تشبه سعادةً بمال أو دنيا، بل هي أعلى وأكبر، وهي التي لو قاتلهم الملوكُ عليها الملوك لم حصَّلوا مثلها.

إنه المقام الجليل في السجود، الذي لا يشبهه ولا يضاهيه مقامٌ آخر..

وهو الذي يكون فيه المرء أقربَ ما يكون من ربه، كما في الحديث الصحيح "أقربُ ما يكونُ العبدُ إلى الله وهو ساجد".

وصحَّ في الحديث أيضًا قوله صلى الله عليه وسلم: "أقربُ ما يكون الربُّ من العبدِ في جوفِ الليلِ الآخِر".

إنه الاعتراف في ذلٍّ بعظمة الخالق وجبروته وكبريائه، من جنسٍ حرٍّ بين مخلوقاته.

وإنه طريق معبَّد للمرور إلى الجنة إن شاء الله...

اللهم أعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك.

ووفقنا لأفضل مقامات السجود لك، يا عليُّ يا عظيم.

(٢)
الضعف في الولاية

أبو ذرٍّ رضيَ الله عنه، مع كلِّ ما أوتيَ من علمٍ وإخلاص، ومشاركةٍ في الدعوةِ والجهاد، وصبرٍ ومصابرةٍ على الجهرِ بالحقّ والنهي عن المنكر، وصفَهُ رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ بأنه "**ضعيف**"، ونصحَهُ بأنْ لا يتولَّى أمورَ الناس، ولا حتى أموالَ اليتامى!

"**يا أبا ذرّ، إنّي أراكَ ضعيفًا، وإنّي أحبُّ لكَ ما أُحبُّ لنفسي، لا تأمَّرنَّ على اثنينِ، ولا تَوَلَّينَّ مالَ يتيم**". صحيح مسلم (١٨٢٦).

قالَ الإمامُ النوويُّ رحمَهُ الله تعالَى في هذا الحديثِ أو في آخرَ مثله: هذا الحديثُ أصلٌ عظيمٌ في اجتنابِ الوَلايات، لا سيَّما لمن كان فيه ضعفٌ عن القيامِ بوظائفِ تلك الأمانة[٤].

والمقصودُ بالضعفِ هو عدمُ قدرةِ الشخصِ على تحمُّلِ مسؤوليةِ المنصبِ عقليًّا أو نفسيًّا. فليسَ لديه إمكانيةٌ على استيعابِ الأمورِ والفصلِ بينها، أو لا خبرةَ له فيها، أو لا يتواصَلُ مع المجتمعِ ومشكلاته، أو لا يتحمَّلُ أن يرَى مظاهرَ الفتنِ والدماء، ولا يعرفُ سياسةً مدنيَّةً أو عسكرية.

وهذا مشاهَدٌ في حياتنا الواقعيةِ وعلى مدَى التاريخ، فهناك من يضيقُ بحملِ مسؤوليةِ أسرةٍ واحدة، أو يضيقُ ذرعًا بمراجعةِ الناسِ في فرعٍ من مؤسسة، وغيرُهُ يتحمَّلُ مسؤوليةَ قبيلةٍ كبيرة، أو مدينةٍ أو دولة، ويفتحُ ذراعيهِ للاجتماعِ بفئاتِ الناسِ المختلفة، ويحلُّ مشكلاتهم..

وقد فسَّرَ القرطبيُّ ضعفَ أبي ذرٍّ رضيَ الله عنه بسببِ نهجهِ الشخصيّ في الحياة، وعدمِ قدرتهِ على مراعاةِ مصالحِ الناس، فقال رحمهُ الله:

"أراكَ ضعيفًا": أي ضعيفًا عن القيامِ بما يتعيَّنُ على الأميرِ من مراعاةِ مصالحِ رعيَّتهِ الدنيويةِ والدينية.

ووجهُ ضعفهِ عن ذلك أن الغالبَ عليه كان الزهدَ واحتقارَ الدنيا، ومَن هذا حالُهُ لا يعتني بمصالحِ الدنيا ولا أموالها، اللذين بمراعاتهما تنتظمُ مصالحُ الدين، ويتمُّ أمره.

وقد كان أبو ذرٍّ أفرطَ في الزهدِ في الدنيا، حتى انتهَى به الحالُ إلى أن يُفتي بتحريمِ الجمعِ للمالِ وإن أُخرِجتْ زكاته، وكان يرى أنه الكنزُ الذي توعَّدَ الله عليه في القرآن، فلمّا علمَ النبيُّ صلَّى

---

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم ١٢/٢١٠.

الله عليه وسلَّم منه هذه الحالة، نصحهُ ونهاهُ عن الإمارة، وعن ولايةِ مالِ الأيتام، وأكدَ النصيحةَ بقوله: "وإني أحبُّ لكَ ما أحبُّ لنفسي".

وأما من قويَ على الإمارةِ وعدلَ فيها، فإنه من السبعةِ الذين يظلُّهم الله في ظلِّه[٥].

(٥) أورده له السيوطي في شرحه على سنن النسائي ٢٥٥/٦.

(٣)
وجهٌ آخرُ للهدية

ردُّ الهديةِ في الأحوالِ العاديةِ والمناسباتِ صعبٌ جدًّا،
وقد لا يخطرُ على بالِ أحدٍ أن يردَّ هدية،
فهي محبَّبةٌ إلى النفوس،
وتَبعثُ البهجةَ في القلوب،
وتُذهِبُ الوحْرَ من الصدور،
لكنها في مجالِ الحربِ والسياسةِ شيءٌ آخر،
وفي مجالِ العملِ والوظيفةِ كذلك،
إذا كانت بمثابةِ الرشوة،
فالأمرُ عندئذٍ يتعلَّقُ بالأمانةِ والمبدأ،
وقد ردَّ نبيُّ اللهِ سليمانُ هديةَ ملكةِ سبأ،
أعني لم يكترثْ بها،
ولم يقبلْ هذه السياسةَ العاطفيةَ اللينة،
وسياسةَ المهادنةِ والمصانعة،
سياسةَ الهدايا،
في حربِ الإيمانِ ضدَّ الكفرِ والشرك،
وكان هدفُ الملكةِ أن ينكشفَ لها غرضُ سليمانَ عليه السلام بهذه الهدية:
{وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ} [سورةُ النمل: ٣٥]،
فلمّا وصلتْ إليه الهديةُ قال:
{أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ}،
قال الفخرُ الرازيُّ في تفسيرِهِ الكبير:
"أي أن الله آتاني من الدنيا ما لا مزيدَ عليه،
فكيف يُستمالُ مثلي بمثلِ هذه الهدية،

بل أنتم تفرحون بما يُهدَى إليكم،

لكنَّ حالي خلافُ حالكم".

ثم أنذرَ بالحرب،

وهدَّد بما لا طاقةَ لهم به إذا لم يجيؤوا إليه مسلمين،

فردَّ هديتَهم،

ولم يقبلْ منهم إلا الإسلامَ أو السيف،

فاستسلمتِ الملكةُ وأسلمت،

وأسلمَ قومُها،

على الرغمِ من إشارتهم أولًا إلى أنهم أقوياءُ قادرون على الحرب،

لكنها عرفتْ بذكائها أن أمرَ سليمانَ له شأنٌ آخر،

غيرُ ما هم عليه من قوة.

فالهديةُ مستحسنة،

إذا لم تَحُلْ بين المرءِ وبين وظيفتهِ الأساسية،

ولم تكنْ سببًا لخيانةٍ أو غشّ،

أو مهادنةٍ مع الباطل،

وطمسٍ للحقّ،

أو تغييرٍ وانحرافٍ عنه.

(٤)
هل يجوز الاسترواح بالباطل؟
(مناقشة كلام)

يورد بعض المحدَثين كلام أبي الدرداء رضي الله عنه: "**أجمُّوا النفوسَ بشيءٍ من الباطلِ ليكونَ عوناً لها على الحقّ**".

ومعنى "**أجمَّ الإنسان**": استراح فذهب إعياؤه.

وقد توقفت عند هذا الكلام طويلاً، إذ كيف يدعو صحابي جليل عُرف بزهده وتقواه إلى الترفُّه بعملٍ باطل؟!!

والذي وقفت عليه أولاً هو ما ذكره له ابن حزم في كتابه "طوق الحمامة"، أورده بسنده، ولكنه لم يكمله، ففيه انقطاع، وهو قوله: "... عن عائذ بإسناد يرفعه إلى أبي الدرداء" هكذا فقط.

والذي يرد بسند صحيح من قوله –كما ذكره باحث– هو بلفظ: "**إني لأستجمُّ ليكونَ أنشطَ لي في الحقّ**" كما رواه الدوري في تاريخ ابن معين، وراويه عنه هو عمير بن هانئ، وهو تابعي ثقة (١٢٧هـ) لم يسمعه من أبي الدرداء (المتوفى سنة ٣٢هـ)، بل بلغه عنه.

فليس في نصه "**بشيءٍ من الباطل**" كما ذُكر في الأول. وهذا ليس فيه شيء، ولكن المناقشة هو في طلب الراحة بالباطل.

والأثر بتمامه كما أورده ابن حزم، لكن بإخبار أبي الدرداء عن نفسه، يردُ بغير سند في كتب أدبية، مثل البخلاء للجاحظ، والحمقى والمغفلين لابن الجوزي، وبهجة المجالس لابن عبدالبرّ.

ومن الكتب الدينية: إحياء علوم الدين للغزالي، وتأويل مختلف الحديث للخطيب.

ذكر هذه المصادر عبدالحق التركماني في تعليقه على كلام ابن حزم في "مختصر طوق الحمامة".

ولكنه لم يوفق فيه، فقد ذكر أن الذي ورد بلفظ ابن حزم هو في المصادر السابقة، ويفهم منه أن فيه لفظ "**الباطل**"، وقد وقفت على نصوص بعض المصادر المذكورة وليس فيها كلمة "**الباطل**"، وهي جميعها تذكر بدون سند (أعني فيما وقفت عليه منها).

واللفظ في الإحياء: "**إني لأستجمُّ نفسي بشيءٍ من اللهوِ لأتقوَّى بذلك فيما بعدُ على الحقّ**".

وفي سير أعلام النبلاء للذهبي ٥/ ٤٢١: "**إني لأستجمُّ ليكونَ أنشطَ لي في الحقّ**". فهذا وذاك ليس فيهما لفظ "**الباطل**"، ولفظ "اللهو" الوارد في الإحياء لا يفيد الحرام والباطل، فقد يكون اللهو مباحًا وقد يكون محظورًا، وفرق كبير بين أن يكون الاسترواح بلهو مباح وبين أن يكون بلهو باطل، ولا يتصور صدور القسم الأخير من الكلام من صحابي جليل. وإن هذا أشبه ما يكون بطلب التداوي بالحرام للمريض، وهو مردود بأمور:

- ضابط المداومة على الجد في العمل الصالح خشية الملال هو الحاجة، مع مراعاة وجوه النشاط، وهو يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص، كما أفاده ابن حجر في شرح حديث ابن مسعود "**كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم يتخوَّلنا بالموعظةِ في الأيامِ كراهةَ السآمةِ علينا**" في فتح الباري.

فليس كلُّ شخص يسأم، وبميزان واحد، بل هي طبائع، وهمم!

- لم يجعل الله تعالى فيما حرمه على ابن آدم دواء له، سواء أكان ذلك جسمياً أم نفسياً، فلا فرق بينهما، والحديث في ذلك ظاهر، فيقول عليه الصلاة والسلام: "**إن الله تعالى خلقَ الداءَ والدواء، فتداووا، ولا تتداووا بحرام**". رواه الطبراني من حديث أم الدرداء، وصححه له في صحيح الجامع الصغير (١٧٦٢).

ويقول ابن مسعود رضي الله عنه: "إن الله لم يجعلْ شفاءكم فيما حرَّم عليكم" رواه له البخاري في صحيحه.

وواضح إن الاستشفاء لا يجوز بالقليل كما لا يجوز بالكثير، فقد صح أيضاً قوله عليه الصلاة والسلام: "**ما أسكرَ كثيرهُ فقليلهُ حرام**". رواه الترمذي وأبو داود والحاكم وغيرهم.

هذا، ولا تُنكر الفائدة من أدوية فيها محرَّم، فإن في الخمر أيضاً منافع، ولكن قدرها قليل، في مقابل طغيان ضررها. يقول ربنا عز وجل: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا} [سورة البقرة، الآية ٢١٩].

فمن مضار الخمر أن فيها ذهاب العقل والمال والدين، ولها منافع جسمية ونفسية مؤقتة، كالهضم والطرب... وهي أمُّ الخبائث.

وكذلك يقال في اللهو الباطل، الذي قد يجلب بعض النشاط لصاحبه، لكن فيه مضرَّة أكبر. وضـرر الحرام مؤكد، ولم يحرِّم الإسـلام إلا ما فيه ضـرر. ومن ضـرر اللهو الباطل أنه ينزل من درجة الإيمان، ويوجب الإثم، ويورث الفسق، ويتعوَّد عليه، وقد يفتح للشخص "آفاقاً" أخرى في الحرام، فإن الشـيطان ينتظر من المؤمن لفتة صـغيرة إلى الحرام، ليبدأ معه برنامجاً طويلاً وبأساليب متنوعة ومغرية ليتوسَّع فيه.

وإذا قال العلماء بالتداوي بالنجاسـة إذا لم يجد المريض طاهراً يقوم مقامها، فإذا وجدت حرمت النجاسـة بلا خلاف، كما يقول النووي في "المجموع"، فإن الاسـترواح بالحلال والترفه بما هو مباح، بابه أوسع وأشمل من أن يطلب بدلاً منه اللهو الباطل والحرام.

– فما أباحه الإسـلام من اللهو الحلال كافٍ، وهو أيضـاً يجلب الأريحية والنشـاط للإنسـان، وليس فيه ما في اللهو الباطل من ضـرر، ففائدته مؤكدة دون ضـرر، وفائدة الآخر قليلة وملغومة.

– وأذكر أمراً آخر، وهو أن اللهو الباطل قد يدخل مع الحلال بدون إرادة الإنسـان، فيكون له نصيب من هذا وذاك.. كما في الألعاب، والقنوات الفضائية، وجلسات بعض الأصدقاء.. التي يتفاجأ فيها المرء بمناظر وأحاديث غير لائقة أو محرمة... ولذلك كان أهل العلم والتقوى يذرون كثيراً من الحلال خشـية أن يلحقهم شـيء من الحرام. والحرام ليس في الحلال، ولكنه يأتي من جنبات الطريق.

وفي كل الأحوال، فإنه لا بد للإنسـان من أن يقع في مكروه أو حرام، والأمر كله اختبار وابتلاء.

{إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاء وَتَهْدِي مَن تَشَاء أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ} [سورة الأعراف، الآية ١٥٥].

الباب الثالث
علم النفس وما إليه

(١)
هاجس الإبداع

لا تكاد تجد عدداً من أعداد المجلات الثقافية والأدبية في عصرنا إلا وفيه حديث عن الإبداع، وكأنه صار غاية في حدِّ ذاته، وشيئاً لابدَّ منه، وهاجساً لدى الكتّاب، فيتكلفون في وضع كتاباتهم في هيئة (إبداعية) ولو لم يكونوا من أهل (الإبداع)، بأن يأتوا بكلام غامض، أو ينقلوا نصًّا فلسفيًّا، أو تحليلاً نفسياً لبعض "كبار" الكتاب. ويجري هذا خاصة لدى "الحداثيين"، المبتلين بالخوض في قضايا ليست من ثقافتنا، فينقلون من الغرب، ويقلدون أساليبهم، ولا يدركون جوانب الموضوع، فيتفلسفون، يعني يحومون حول الموضوع ليصلوا إليه باللفّ والجدل والدوران، ويطبقونه على التراث، أو على واقعنا وثقافتنا وبيئتنا الإسلامية...

والذي يهمني في هذا المقال أن أهمس في أذن بعض المفتونين بـ "الإبداع" من الكتّاب المسلمين، وبعضهم يقف في هذا الجانب عن حسن ظن، يعني بتطوير الثقافة الإسلامية والأدب الإسلامي وعدم التشبث بالأسلوب "الكلاسيكي" في تقديمهما للجيل المعاصر، أقول له: إن أداء الإبداع مثل كرة مطاطية أو جوفاء يُلعَب بها، فيتفنن اللاعبون في ضربها وقذفها، وهم قد يصيبون الهدف وقد لا يصيبون، فالإبداع أداء، أداء فكرة بأسلوب ما، وليس غاية في حدِّ ذاته. وقد يكون الإبداع ظرفًا، أو أسلوبًا، أو حقيقة كلامية، يمكن أن يحمل أفكاراً في موضوعات ثقافية وعلمية وأدبية وفلسفية، ويقدِّمها الكاتب للناس بهدف التأثير في نفوسهم. فنحن الآن أمام كيفية إيصال هذه الفكرة، يعني كيف نقدِّم فكرة، جديدة أو عادية، للقارئ، أو السامع، لنؤثر فيه؟ هل يكون عن طريق الإبداع، يعني بأسلوب عصري جديد حيوي متفلسف، أو عن طريق الخطاب المباشر، ويكون مقالاً رصينًا، أو حتى عاديًا مقبولاً؟

لنقل أولاً إن هذا الطرح ليس وليد اليوم، بل هو معالجة (بيانية) قديمة من أيام الجاحظ وعبدالله بن المقفع، ودينياً من أيام المحاسبي رحمه الله، فالأدباء (المبدعون) لم يكتفوا بنقل الخبر كما يفعل

أهل الأخبار، مثل أبي العيناء والأصمعي وعمرو بن العلاء، بل ناقشوا وعالجوا وحلَّلوا قبل أو بعد تقديم الخبر، أو قدَّموه بأسلوب جديد. ولا يُنكَرُ هذا، مثل جهود الجاحظ في "البيان والتبيين"، كما لا تُنكَر القيمة العلمية لكتاب "عيون الأخبار" لابن قتيبة الدينوري. ولا يُغني أحدهما عن الآخر.

والمحاسبي رحمه الله قدَّم الفكرة الإسلامية بتحوير الخبر في مواعظه وحِكَمه، ولم يقدِّمها مثلما نقل الإمام أحمد وابن أبي الدنيا والزهري، من إيراد الأثر فقط وعدم التعليق عليه. وقبلهم الإمام الحسن البصري، الذي جمع بينهما فأحسن وأثَّر أبلغ الأثر.

فكلا الأسلوبين واردان، ولكلٍّ محبوه وناصروه، فبعض الناس يحبُّ قراءة الخبر كما هو بدون تحوير وتفلسف، وكثير من علماء النفس يحبذون هذا، ويرون أنه أجدى وأنفع للنفس، يعني أن يترك المجال لنفس كلِّ قارئ ليفلسف الخبر ويحوِّره من جانبه وبمكوناته الثقافية والفطرية، بينما لو وجد من يفعل له ذلك لشكَّ أو تلكأ، أو (انزعج)، لأنه لم يُعطَ فرصة التفكير بالخبر، وكأن الكاتب لا يثق بالقارئ، فيعطيه الخبر مبطنًا بفكرته وفلسفته.

ونفسيات أخرى تحبُّ الجدل والتفلسف والكلام وتتفاعل معه، وكأنها جانب فيه، ولا تقتصر على أسلوب الخبر المباشر، بل قد تراه قديماً غير مناسب للعصر، والحقُّ أن لكلٍّ طالبه كما قلت، وحتى يومنا هذا. فلا يتعصبنَّ صاحبُ مذهبٍ لمذهب، وليقدِّر نفوسَ الآخرين وإقبالهم وإعراضهم، فإن هذا يحبُّ تقديم الخبر صافياً نقياً كما هو، وآخر يحبه "إبداعياً" فيه بدع من الكلام. والهدف كما قلنا هو إيصال الفكرة، وتحقيق التوعية.

ولا يُقال أيهما أفضل، فإن هذا يُقرَأ وذاك.. والمهمُّ المضمون. وما يوصَف اليوم بالإبداع مرحلة زمانية، وسيأتي وقت تقدَّم فيه الثقافة بمسمّى أو مصطلح آخر، مثله مثل الشعر الحرّ والعامودي... ويبقى المضمون هو المهم.. في كلِّ زمان.

(٢)
تشريح الإبداع

هذه نظرات في موضوع "الإبداع"، هي تشريح، أو تصنيف، أو ما دونهما.

وقد كانت استدراكًا على ما كتبته من مقال بعنوان "هاجس الإبداع"، فلما طال جعلته في مقال مستقل، وبقي المقال الأول ناقصًا!

الإبداع فكرة جديدة، أو تصور جديد، أو تحليل نصّ فيه طرحٌ جديد، أسلوبًا أو معنى.

وهو مثل غيره من الأفكار، متفاوت بين عادي ومبهر.

فقد تُقدَّم ظاهرة أو فكرة أدبية أو ثقافية بأسلوبين: تقليدي، وإبداعي.

أما التقليدي أو "الكلاسيكي" فهو تقديم الفكرة أو النص في نثر عادي أو بلاغي، أو في أسلوب قصصي.

والإبداعي يكون فيه زيادة كلام، بتحليل نفسي وفلسفي، وترتيب أفكار وتعضيدها بأقوال وآراء لكتّاب غربيين أو من يدور في فلكهم. وإتقان اللغة وفنونها، ودراسة علم النفس، والاطلاع على الآداب الأخرى، له تأثير في سير الإبداع.

فرؤية عجوز جالس على طاولة قديمة مغروسة في الأرض متأملاً ساكتًا، أمام كوخ خشبي قد تدلَّت خشبتان من أعلاه لتسقطا، تجلب فضول الشاعر فيصفه كما هو وكأنه جالس أمامك، أو كأنك تنظر من وراء شعره إلى لوحة فنية كبيرة ملونة.

وإذا تعرَّض له شاعر لـ"يبدع" فيه، فإنه يحوم حول نفسية العجوز، ويحلل ما يتأمل فيه وهو في هذا العمر، ويربط بين الخشبتين المتدليتين قريبتي السقوط، وبين أجله القريب أيضًا..

ولا يُنكَر أسلوب الاثنين، ولكن الأصل الأول، الذي يبقى، والآخر يتغير..

وقد يكون الإبداع في التصوير، فالتصوير العادي هو أن تقف أمام باب الدار وتعلو قليلاً لتصور البيت كله من الخارج بوضوح، والإبداع فيه أن تصوره من زاوية يبدو فيه أجمل، من خلال التركيز على ظلال وأضواء طبيعية وتركيبية، ولكن على حساب إخفاء جوانب من البيت.

فيسمَّى هذا إبداعًا في التصوير، لأنه ليس بشكل عادي. وكنا نسميه قريبًا "بشكل فني"، فصار "إبداعًا"!

ولكن هل سيُمحى التصوير "التقليدي" ويطغى الإبداعي؟

لا أظن، فإنه الأصل، وستتغير الطرق الأخرى، ويبقى هو.

ومثله يقال في الرسم، فلكل من الرسامين والفنانين التشكيليين طريقتهم في التعبير بريشتهم، بعضها لا تُفهم ولا تحبَّذ، كما لا تُفهم نصوص وأشعار.. ومع ذلك فهناك من يتفلسف أو يبالغ لأمر في نفسه فـ"يكذب" ويقول إنه إبداع. ورسّامون آخرون يرسمون لوحات طبيعية كما يعرفها كل الناس.. ولا يقال إن اللوحات الطبيعية لم يعد لها محلّ في الفن، بل هي الأصل، وستبقى، وستتغيير الطرق الفرعية الأخرى التي تسمى إبداعية في حينها، من تعبيرية وتجريدية وما إليها.

وعبثًا أُطلق على الأول مصطلح "تقليد"، فإن المرء لا يقلِّد فيه، وإنما يعبِّر عنه كما هو دون تفلسف أو تحوير، وإنما يعني به مَن أطلق عليه هذا المصطلح: الأسلوب السابق، أي: كما عبَّر به السابقون.

وأقول أيضًا: هذا هو الأصل، وسيبقى كما هو حتى بقاء الإنسان، أما ما عداه: فنظرية في الأسلوب، وتقليد بين أصحابه، وطريقة مبتكرة ستبقى مدة وستزول، مثل غيرها من النظريات، ويبقى الأصل، الذي هو التعبير العادي والطبيعي عند كل البشر، وما عداه أساليب وطرق قد يرضى عنها البعض ولا يرضى عنها آخرون، أعني قد يتذوقونها وقد لا... قد يعجبون بها أو لا.. قد يفضِّلونها أو يفضِّلون غيرها.

والإبداع في الأداء والتعبير يمكن أن نسميه "الإبداع التعبيري"، وهو جانب أو صورة من صور الإبداع، أما الفكرة الجديدة، أو الاكتشاف الجديد، فهو المعنى الحقيقي للإبداع، الذي يعني تقديم أمر جديد للقارئ لم يكن موجودًا من قبل، وهو قليل جدًّا.

ولا بأس من التنويع في أساليب الكلام، بل هو مطلوب للفت النظر، ولدفع الرتابة والملل عن القارئ، ويذكر ربُّنا في القرآن الكريم أنه "صرَّف" في التذكير، يعني نوَّع في أدائه والتعبير به ليتلمَّسه الناس بطبائعهم وثقافاتهم وفهومهم المتنوعة، فقال سبحانه: {وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ نُفُوراً} [سورة الإسراء: ٤١] أي: لقد ذكرنا في هذا القرآن،

وكرَّرنا فيه، ونوَّعنا أسلوبَ ما ندعوهُم بهِ إلى الإيمانِ والإسلام، بالحُجَج والبيِّنات، والترغيب والترهيب، والموعظة والحِكمة، ليتذكَّروا ويتَّعظوا، ويَفقَهوا ويتدبَّروا...

فيرد الحدَث الواحد أو القصة الواحدة بفنون من الأداء والتعبير.. والتعبير بأكثر من فنّ في الكلام إبداع فيه.

وقد تميَّزت عصور إسلامية بفنون من التعبير (مصطلحات أدبية أو كلامية أو بلاغية، كالسجع..) لم تكن في عصور سابقة ولا لاحقة، مثل العصر المملوكي، وآداب في العصر الأندلسي، ولم تستعمل من بعد إلا نادرًا.

وأذكر أن الكتابة في أواخر القرن الهجري الماضي استحدثت فيها سمات كتابية لم تكن موجودة في السابق، ولم تستمرَّ عند كل الناس، فكان المؤلفون والكتاب مبهورين بمصطلحات "علمية" تأتينا من الغرب دون ترجمة، أو لا يركز فيها على المعنى العربي لها، فيستخدمونها بكثرة لتدلَّ على ثقافتهم واطلاعهم ومستواهم العلمي، مثل السيكولوجيا، والسوسيولوجيا، والأنتربولوجيا...

وفنٌّ الإبداع الذي يتناوله بعضهم من جانب حداثي، كان، وقد لا يكون من بعد، وهو الغالب على الظن، فإنه نظرة، واتجاه من قبل بعض الكتّاب، وسيقف ولن يعمّ.

(٣)
فرق بين الانطواء والعزلة

العزلة في المصطلح الديني غير الانطواء والانطوائية المستخدمة في علم النفس، ذلك أن الذي يعتزل الناس إيثاراً لدينه، وخوفاً من الوقوع في المعاصي والمكروهات، وكفًّا لشرِّهِ عن الناس، غير الشخص الذي آثر الانفراد بنفسه في زوايا البيت أو المدرسة، ونظر إلى الناس نظرة ريبة وخوف، وأُصيب بالاكتئاب، وقد يكون انطواؤه لشر، كتخفٍّ من عمل مشين، أو تخطيط لجريمة. ويصنَّف هذا الأخير مرضًا، نفسياً أو اجتماعياً، ويعالج أصحابه.

أما الصنف الأول فليس مرضاً، وفي أصحابه خير، وقد يكون انعزالهم محمودًا كما في الفتن، ولكنهم ليسوا بأفضل من غيرهم من الاجتماعيين، فالذي يجتمع بالناس من المؤمنين ويخالطهم أفضل، وهذا ما نطق به رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام في قوله الكريم "**الذي يخالطُ الناسَ ويصبرُ على أذاهم، خيرٌ من الذي لا يخالطُ الناسَ ولا يصبرُ على أذاهم**".

ذلك أن المعتزل يفيد نفسه وحده ولا يفيد مجتمعه، إلا في جوانب قليلة منه، ولا يقال إنه سلبي، فهو لا يشذُّ عن المسلمين في مواقفهم العامة والضرورية، فهو قد يجاهد، ويحضر الجنازة، ولا يتخلف عن الجماعة، ولا يؤذي الناس بشيء، فهو مسالم جداً، أمين، ناصح. بل يحبه الناس ويعتقدون فيه خيرًا، لأنه زاهد بعيد عن الحسد والمال والطمع، ولم يروا منه أذى وشرًا.

لكن الذي يخالط أفضل منه. ذلك أنه يفيد نفسه ويفيد الآخرين، فيدعوهم إلى الدين والفضيلة ومكارم الأخلاق، وينبههم إلى الأخطار المحدقة بهم، ويعرِّفهم أعداءهم، ويأمرهم بالخير، ويرشدهم إلى الطريق المستقيم، ويغيث الملهوف ، ويشارك في الأعمال الخيرية عامة، ويصبر على أقوالهم المنكرة، وكلماتهم الجارحة، ويجابهها بالحلم والأناة.

لكن هناك شيئاً يجمع بين العزلة والانطوائية من ناحية نفسية، ذلك أن المنعزل نتيجة هروبه من الواقع، وعدم اختلاطه بالناس على مدى شهور أو سنوات، يصيبه ضمور، أو إعاقة في العمل الاجتماعي، فلا يتعهد الأعمال كما ينبغي، ولا يكون ماهراً في العلاقات الاجتماعية والسلوكيات والعادات والأخلاق والآداب العملية، وقد يفوته الأداء التعبيري الحسن، والنطق الصحيح لمصطلحات جديدة أو متعارفة بين فئات من المجتمع، بل هو بعد سنوات من الانعزال

لا ينجح في الاختلاط بالناس إذا أراد العودة إليه، فإنه قد سبح في ماء مالح، ولا يقدر العيش في العذب منه، كالأسماك، وإذا جَّرب تلكأ واختلَّ وتباطأ، ولم يعرف حاجات المجتمع وأصول التعارف والمداراة، إلا بعد زمن.

وقد عرف حكام ظالمون في عصرنا هذا ما يصيب القادة والرجال الأكفاء من الدعاة والمفكرين المسلمين من جرّاء ذلك، فأبعدوهم عن المناصب الكبرى والجهات المؤثرة في المجتمع، وحوَّلوهم إلى الحسابات والشؤون البلدية والقروية وما إليها، وقد فتر الكثير منهم بعد ذلك حقاً، وكانوا مهرة وقادة وعباقرة وكوادر عظيمة، وعوَّضه بعضهم بالفرار من هذه المجتمعات الظالمة، أو التفرغ للعلم والتأليف والبحث، أو لمهن مفيدة، وأعمال لا اجتماع فيها، كالمزارع وتربية النحل.

وعندما فُسح المجال لبعضهم للعودة لم يتمكنوا من أداء مهماتهم كما ينبغي، فقد أصابهم (الضمور) نتيجة إبعادهم عن المجتمع والتفاعل معه.

وقد تأكدت العلاقة بين الانطواء والضمور في دراسات حديثة، كما بينه الأستاذ صلاح الدين منصور، أحد رواد الأمراض العصبية والنفسية في كلية الطب بجامعة الإسكندرية (ت ١٤٣٠ هـ)، فهو يقول: "وكما أن الاكتئاب يؤدي إلى ضمور الخلايا الخاصة بالمزاج العام بالمخ، فإن الانطواء والانعزال الاجتماعي اللذين يفصلان الإنسان عن العالم ويعوقان ممارسة النشاطات الحيوية الطبيعية، يؤديان أيضًا إلى ضمور تلك الخلايا، فإذا عاد ومارس الحياة بصورة طبيعية، فإن تلك الخلايا تعاود النمو والنضج والحيوية".

ولي على ما قاله آخرًا ملاحظات:

- العودة إلى الحياة بصورة طبيعية يكون للشباب غالبًا ومن أوتي فسحة من العمر قبل الشيخوخة، أما من عاش منعزلاً إلى الشيخوخة فصعب أمره... فخلايا كل شيء في الشيخ إلى الذبول، ولا يعود إليه الشباب وحيويته، وربنا سبحانه يقول: {وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ} [سورة يس: ٦٨].

وربما كان هذا بصورة عامة، وإلا فإن هناك من الشيوخ من يتوق إلى الاجتماع بالناس، وقد يزيد في الكلام، وقد يكون اجتماعه ببعضهم ثقيلاً.

- الشاب إذا عاد من الانطواء إلى الحياة الطبيعية فيكون في برنامج اجتماعي توعوي منتظم غالبًا، فهو يحتاج إلى مران وتوجيه وخطوات متتالية.

- عودة الخلايا إلى النمو والنضج والحيوية تكون حسب طبائع الناس ومستوياتهم وتجاوبهم مع الحياة الجديدة، فقد تكون هامدة باردة، وقد تكون بطيئة النمو، وقد تكون مبادرة إلى التفاعل قوية النمو. والله أعلم.

(٤)
هل تعرف نفسك؟!

هل يعقل أن يبحث إنسان عن نفسه؟

إن من المؤسف أن كثيرًا من الناس لا يعرفون أنفسهم، وفي ظنهم أنهم ليسوا بحاجة إلى البحث عنها؛ لأنها بداخلهم، وتبيت معهم، فلماذا يبحثون عنها، وإذا بحثوا فكيف؟

ولو أنهم أدركوا ما بأنفسهم لعرفوا ما يصلحها وما يشينها، ولو أنهم كانوا جادين في معرفتها لتفاعلوا مع إصلاحها، والواقع والتاريخ يشهدان بغير ذلك، فالنفوس المنحرفة أكثر من المستقيمة، فمعرفة الناس بأنفسهم إذًا قليل، أو هم على الأقلِّ غير مبالين بمعرفتها، فالكثير من الناس يشرب الخمر وهو يعرف آثارها العضوية والنفسية السيئة.

والحق أن النفس ليست شيئًا واحدًا، إنها لست بطاقة ذات لون واحد حتى يُكتفَى بالتركيز عليها، بل فيها أشياء كثيرة لا تحصى، ولا يظهر بعضها للشخص إلا بعد عمر وتجارب، واشتغال طويل بالعلم والبحث والتحري، بل إن المرء يموت ولا يعرف كل جوانب نفسه، وخالقها وحده يعرف ذلك، فإنه سبحانه يعرف أنفسنا أكثر منا: {رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ} [سورة الإسراء: ٢٥]، {هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ} [سورة النجم: ٣٢].

فما يجهله المرءُ عن نفسه أكثر مما يعرفه عنها!

وإن معرفته بنفسه قد لا تزيد عن معرفته بوظائف جسمه الداخلية.

فإن تركيب النفس وتنوعها في ذاتها، هو مثل عمل الأعضاء داخل جسم الإنسان والقيام بوظائفها. فالقليل من الناس يعرفون كيف يتكون حليب الأم، وكيف تعمل المعدة، أو كيف يُستخلص الدم والفيتامينات من الأطعمة لتتحول إلى قوة وحركة وحرارة في الجسم.

وكم من الناس يعرفون كيف يعمل الجهاز العصبي، والمخ، والذاكرة.. وما هي الوظائف التي يقوم بها البنكرياس، والكريات الحمراء، وكيف تتكون الخلايا وكيف تموت، وما هي الغدد وأنواعها، والقلب كيف يعمل.. والكبد.. وحاسة الشم.. والمريء، مثلاً؟

وإذا عرفوا وظيفة بعض هذه الأعضاء، فكم منهم يعرف وظيفة الأجهزة والتركيبات الدقيقة في الجسم، مثل الأذن وما فيها، كعظمة الركاب، والعصب الدماغي، والخلايا الشعرية.. والموجات الصوتية.. وفي الجسم ما لا يُرى بالعين ولا بالمجهر العادي؟ كذلك هي أغوار النفس.

كما أن معرفة الإنسان بالأمراض النفسية لا تزيد عن معرفته بالأمراض العضوية!

وقد لا يعرف الشخص منها سوى اسمها، أو بعض أعراضها، على الرغم من أنها بداخله.

والمرض النفسي ولو كان بمسمى واحد، إلا أن تطوره وعلاجه يختلف باختلاف الأشخاص، نظرًا لتنوع ظروفهم، واختلاف بيئاتهم..

إنه مثل العضو الواحد في الجسم الذي يصاب بعدة أمراض، بل جزء من العضو، كالمسام، وجذر الشعر، والشعر نفسه، والجلد، والشريان، والعضلة، والعظم.. وكلها في منطقة صغيرة واحدة..

وأمراض جلد الوجه غيرها في الرِّجل، والظهر..

وكذلك النفس بعوالمها الباطنة، وطبائع الأشخاص وبيئاتهم المتنوعة..

ولو أن عالمِا نفسانيًّا سأل شخصًا بعض الأسئلة عن نفسه لتلكأ وما عرف الإجابة عن الكثير منها.

وعلم النفس تطور كثيرًا، وصار أنواعًا عديدة، حتى دخل في العلوم الأخرى، وصار هناك علم النفس اللغوي، وعلم النفس الصناعي، وعلم نفس الإعلام، وعلم النفس العسكري.. وما إلى ذلك.

ونظريات علم النفس ليست كلها مثل بعضها البعض، وتحليلات النفسانيين للنفس وأمراضها تختلف، بحسب ثقافتهم وأمزجتهم وخلفيتهم العقدية والبيئية والتاريخية.. ومعالجة أناس عاشوا في بيئة إسلامية لا تماثل من عاش في بلد إباحي لا يعترف بالدين..

وقد عرَّفنا الله أنفسنا بما يلزمنا منها، من خلال القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة..

وصدرت دراسات وبحوث نفسية متعددة في القرآن والسنة، بحثها متخصصون في علوم الدين والنفس.. وهذا يحتاج إلى مقال آخر..

وفي نظري أن أفضل من كتب في علم النفس في تراثنا الإسلامي هو حجة الإسلام محمد بن محمد الغزالي (ت ٥٠٥ هـ) رحمه الله تعالى، في كتب متنوعة له، وخاصة "الإحياء".

ويحسن أن أشير هنا إلى أن ثلة من العلماء المعاصرين أبحروا في تراثنا واستخرجوا منه علوم النفس التي بحث فيها علماء السلف، وصدرت جهودهم في كتاب "علم النفس في التراث الإسلامي" طبعته دار السلام بالقاهرة في ثلاثة أجزاء.

ومن المفيد أن نستخلص في هذا الجانب أن هناك نفوسًا مؤمنة نقية تستجيب للحق، وترعى العدل، وتأبى الظلم، وتحب الأخلاق الحميدة..

وأخرى كافرة فاجرة مظلمة، تحب الشر، وتنشر الفساد والجريمة، وتحارب الفضيلة..

ليكون الإنسان السويُّ على حذر، ويعرف بمن يثق، وبمن لا يثق، إذا أراد الاستقامة في الحياة.

والمسلم لا يلتفت إلى نظريات النفس إذا كانت مخالفة للدين، بل يأخذ علمه وثقافته النفسية من أهل العلم والدين، الذين يعتمدون على المصادر الإسلامية، وليس على الأفكار الغربية الموبوءة، المغلَّفة بثقافتها الخاصة، البعيدة عن ديننا وآدابنا الإسلامية.

(٥)
علم النفس العلاجي عند ابن حزم

الكتب المؤلَّفة في علم النفس العلاجي كثيرةٌ في هذا العصر، والذي يهمنا في هذا الموضوع هو ما كتبَه علماؤنا المسلمون فيه، من تشخيص الأمراض النفسية، ثم طرق علاجها، مستندين في ذلك إلى علومهم الإسلامية، غير متطفِّلين على موائدَ موبوءةٍ وغريبة، لا تلائم ديننا ومجتمعنا. لقد سجَّل محتوى هذا الموضوع، ودمجه بعلم الأخلاق العالمُ والمفكر المعروف ابن حزم الظاهري، المتوفى سنة ٤٥٦هـ، في كتاب رائع سمَّاه "مداواة النفوس، وتهذيب الأخلاق، والزهد في الرذائل"، وأودعه خبرتَه العلمية، وتجربته العملية، كما أشار إلى ذلك في المقدمة، وذكر أنه أتعب نفسه فيه وأجهدها، وأطال فيه الفكر؛ ليهديه هنيئًا إلى الناس؛ لإصلاح ما فسد من أخلاقهم، ومداواة علل نفوسهم، وأنه أفضل من كنوز المال، وعقد الأملاك، إذا تدبَّره ويسَّره الله تعالى لاستعماله، وأنه يرجو من وراء كتابه هذا أجرًا عظيمًا؛ لنيَّتِه في نفع عباده.

وقد وزَّع موضوعاتِه على أحدَ عشرَ فصلاً، في كل فصل فقرات، كثير منها على هيئة حِكَم ووصايا وإرشادات، منها ما هو قصير، ومنها ما هو طويل، وكان الأول في "مداواة النفوس وإصلاح الأخلاق الذميمة"، وضمنه "باب عظيم من أبواب العقل والراحة"، وموضوعات الفصول التالية هي: العلم، الأخلاق والسير، الإخوان والصداقة والسير، أنواع المحبة، صباحة الصور، ما يتعلق به الناس في الأخلاق، مداواة ذوي الأخلاق الفاسدة، غرائبُ أخلاق النفس، تطلُّعُ النفس إلى معرفة ما يستر عنها من كلامٍ مسموع أو شيءٍ مرئي، وإلى المدح وبقاء الذِّكر، حضورُ مجالس العلم.

ولن أعطي الموضوع حقَّه في هذا المقال، كما أنني لا أعرض ما في الكتاب كله، فإن شأني في الحديث عن الكتب هو بيان موضوعها، وأهم محتوياتها، أو ما تنبغي الإشارة إليه، ومن شاء المزيد، فعليه بالكتاب نفسه، فإنه متوفر.

والذي استوقفني فيه هو حديثُ ابن حزم الصريح عن نفسه، وعن العيوب النفسية والخُلقية التي كانت مترسِّبة في نفسه، وكيف صبر على معالجتها، قال في فصل

"الأخلاق والسير": "كانت فيَّ عيوبٌ، فلم أزل بالرياضة، واطِّلاعي على ما قالت الأنبياء – صلوات الله عليهم – والأفاضل من الحكماء المتأخرين والمتقدمين في الأخلاق، وفي آداب النفس، أعاني مداواتها، حتى أعان الله – عزَّ وجلَّ – على أكثرِ ذلك بتوفيقه ومنِّه".

وما أود التنبيه إليه :أن طبائع الناس وتربيتهم تختلف من شخص إلى آخر، ولو بقي كل شخص على ما هو عليه، لما وجد تواؤمًا ووحدة اجتماعية بينه وبين إخوانه المسلمين، فالكل يتعالج بآداب الإسلام وأخلاقه؛ لأجل ذلك، بقدر ما يستطيع، ومن المؤسف ألاَّ تجد تأثيرًا واضحًا للإسلام على أشخاص، وهم يطبِّقون شعائر الإسلام الظاهرة، لا لشيء سوى أنهم "مرتاحون" مع طبائعهم، ويصعب عليهم التخلي عما تربَّوا عليه، ولو كان ذلك مخالفًا للإسلام، وخاصة في السلوك والمعاملة، يعني أنهم لا يطبقون ما لا يوافق "هواهم".

ولا شك في صعوبة ذلك، وهو ما ألجأ هذا العالم الكبير إلى اتخاذ خطوات حازمة؛ ليعالج نفسه؛ حتى تتوافق وروحَ الإسلام، ومن العجب أن يقوم بسرد عيوبه الخفية أمام الناس كلهم، ويعدِّدها بكل دقة، إلا ما اعتذر من ذِكره، وهو ما لا أعرف سببًا له سوى إشعار القراء وتشجيعهم على الاعتراف بعيوبهم، ومعالجتها أيضًا، والذي يبدو لي أن ستر العيب، وعدمَ إظهاره أفضلُ، إلا للطبيب، والصديق، والعالم؛ بقصد المعالجة، كما أن بالإمكان دراسة هذه الأمراض، وبيان علاجها، دون ذكر مصدرها.

قال رحمه الله فيما ذكرنا من رأيه: "وتمام العدل، ورياضة النفس، والتصرف بأزمَّة الحقائق – هو الإقرار بها؛ ليتعظ بذلك متَّعظٌ يومًا – إن شاء الله".

ثم عدَّد نحوَ (١٢) عيبًا نفسيًّا فيه، وكيف عالجها، أورد بعضًا منها، قال:

"فمنها: كلَفٌ في الرضا، وإفراط في الغضب، فلم أزل أداوي ذلك، حتى وقفت عند ترك إظهار الغضب جملة بالكلام، والفعل، والتخبط، وامتنعت مما لا يحلُّ من الانتصار، وتحمَّلت من ذلك ثقلاً شديدًا، وصبرت على مضض مؤلم، كان ربما أمرضني، وأعجزني ذلك في الرضا، وكأني سامحت نفسي في ذلك؛ لأنها تمثَّلت أن ترك ذلك لُؤْم".

وهو يعني بعلاج الغضب ما ورد في كتمه من أجر؛ في قوله تعالى: {وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [سورة آل عمران: ١٣٤].

قال: "ومنه عُجْب شديد، فناظرَ عقلي نفسي بما يعرفه من عيوبها، حتى ذهب كله، ولم يبقَ له - والحمد لله - أثرٌ؛ بل كلَّفت نفسي احتقار قدرها جملة، واستعمال التواضع".

"ومنها: حقد مفرط، قدرت بعون الله - تعالى - على طيِّه وستره، وغلبته على إظهار جميع نتائجه، وأما قطعه البتة فلم أقدر عليه، وأعجزني معه أن أصادق مَن عاداني عداوة صحيحة أبدًا".

ويذكر هنا ما يعيب عليه الناقدون، وما زالوا، وكأنهم لم يقرؤوا كتابه هذا، فيقول: "وأما الذي يعيبني به جهَّال أعدائي من أني لا أبالي فيما أعتقده حقًّا، عن مخالفة مَن خالفتُه، ولو أنهم جميع من على ظهر الأرض، وأني لا أبالي موافقة أهل بلادي في كثير من زِيِّهم الذي تعوَّدوه لغير معنى، فهذه الخصلة عندي من أكبر فضائلي التي لا مثيل لها".

ثم تحدث عمن ينال منه، وأنواعهم، وموقفه من كل واحد منهم.

أقول :لاحظْ قوله "جهَّال أعدائي"، الذي لا يناسب حديثَه من أنه يعالج نفسه من العيوب؛ فإن الذين ينقدونه مسلمون، ولا يقال لهم أعداء؛ بل هم إخوان، وهذه الأخوة عقدة عقدها الله تعالى لا يقدر أحد أن يحلَّها؛ فقال سبحانه: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ} [سورة الحجرات: ١٠]؛ يعني: حتى لو قتل بعضهم بعضًا فإنهم "إخوة"، وليت هؤلاء الإخوة الذين يتخاصمون، ويتقاذفون بكلمات قاسية، وبعضها متدنية، وبعضها كأنها عقارب، ليتهم عالجوا نفوسهم أولاً، وعلموا أنما يخاطبون إخوة لهم في الدِّين، وأن هذه الأخوَّة شأنها عظيم، لا يعرفه إلا أولو النهى والأحلام.

وانظر كلامًا مخيفًا له في الظالمين، حيث يقول رحمه الله: "وأما مَن طُبع على الجور واستسهاله، وعلى الظلم واستخفافه، فلْييأس من أن يُصلح نفسه، أو يقوِّم طباعه أبدًا، وليعلم أنه لا يفلح في دِين، ولا في خُلق محمود".

أقول: لعله قال هذا عن تجربة ممن حوله، أما ما عدا ذلك فإن رجوعهم إلى الحق والتوبة مما فرَّطوا - واردٌ، وفي القرآن ما يدل على قبول توبتهم بشروط، وفي السنة يذكر القارئُ

الحديثَ المشهور في قتل الرجل تسعة وتسعين، وإكمال المائة، لقوله إنه لا توبة له، ولا شك أن الذي يسفك دماء الناس من غير حق هو من أظلم الظالمين، بعد الشرك بالله.

ويقول ابن حزم في اعترافٍ من أن الإنسان لا يكون كاملاً؛ نظرًا لنقص فيه أصلاً، ولكن يقدر أن يقلِّل من عيوبه: "لا يخلو مخلوق من عيب، فالسعيد من قلَّت عيوبه ودقَّت".

وفي موضوع "الإخوان والصداقة" يقول في حزن ومرارة:

"وأنا أعلمك أن بعض مَن خالصني المودة، وأصفاني إياها غاية الصفاء، في حال الشدة والرخاء، والسعة والضيق، والغضب والرضا – تغيَّر عليَّ أقبح تغيُّر، بعد اثني عشر عامًا متصلة في غاية الصفاء؛ لسبب لطيف جدًّا، ما قدَّرت قط أنه يؤثر مثله في أحد من الناس، وما صلح لي بعدها، ولقد أهمَّني ذلك سنين كثيرة همًّا شديدًا".

ثم ذكر أنه مع ذلك لا يستعمل معه سوء المعاملة؛ لئلا يلحق المرء بشرار الناس، لكن الطريق مع أمثال هؤلاء وعرٌ شاق، فليكن حذرًا، "وهذه الطريق هي طريق الفوز في الدين والدنيا، يُحْرِز صاحبها صفاء نِيَّات ذوي النفوس السليمة، والعقول الصحيحة، البرآء من المكر والخديعة، ويحوي فضائل الأبرار، وسجايا الفضلاء، ويحصل مع ذلك على سلامة الدهاة، وتخلُّص الخبثاء، وهي أن تكتم سرَّ كل مَن وثق بك، وأن تفي لجميع مَن ائتمنك، ولا تأتمن أحدًا على شيء من أمرك تشفق عليه، إلا عن ضرورة لا بد منها".

ويقول: "إذا نصحت فانصح سرًّا لا جهرًا، أو بتعريض لا بتصريح، إلا أن يفهم المنصوح بغرضك، فلا بد من التصريح له".

ويقول: "لا تنقل إلى صديقك ما يؤلم نفسه، ولا ينتفع بمعرفته، فهذا فعل الأرذال، ولا تكتمه ما يستضرُّ بجهله، فهذا فعل أهل الشر".

وفي جانب آخر من هذا الاهتمام، يقول منبِّهًا القارئَ إلى ما يمكن أن يستفيد منه، ولو بدا ذلك في غير بابه: "لكل شيء فائدة، ولقد انتفعت بِمَحْكِ – وهو اللجاجة والمجادلة والمنازعة في الكلام – أهلِ الجهل منفعةً عظيمة، وهي أنه توقَّد طبعي، واحتدم

خاطري، وحمي فكري، وهيَّج نشاطي، فكان ذلك سببًا إلى تآليفَ عظيمةِ المنفعة، ولولا استثارتُهم ساكني، واقتداحهم كامني، ما انبعثتُ لتلك التآليف".

وفي موضوع أنواع المحبة، يقول في الطمع: "الطمع إذًا أصل لكل ذلٍّ، ولكل همّ، وهو خُلق سوء وذمٍّ، وضده نزاهة النفس، وهذه صفة فاضلة، متركبة من النجدة، والجود، والعدل، والفهم".

ويذكر في جانب من التحليل النفسي حول الغَيْرة، وأنه خُلق فاضل: "أخبرني بعض مَن صحبناه في الدهر عن نفسه، أنه ما عرَف الغيرة قط، حتى ابتُلي بالمحبة، فغار، وكان هذا المخبِر فاسدَ الطبع، خبيثَ التركيب، إلا أنه كان من أهل الفهم والجود".

أقول: فإن المرء إذا كره خُلقًا في شخص، فإن فيه أخلاقًا يحبها، فلا يُفْرط في الصدِّ، ولا في القرب، والمعرفة بجمال النفس وعيوبها تورث توازنًا في التعامل معها عند العاقل.

ويقول في سلسلةٍ من تولُّدِ الأمراض النفسية، ونشوء الأخلاق السيئة: "الحرص متولد عن الطمع، والطمع متولد عن الحسد، والحسد متولد عن الرغبة، والرغبة متولدة عن الجور والشح والجهل .ويتولد من الحرص رذائلُ عظيمةٌ، منه: الذل، والسرقة، والغصب، والزنا، والعشق، والمسألة".

وفي فصل ما يتعامل به الناس في الأخلاق، يذكر أن "الكذب متولِّد من الجور والجبن والجهل؛ لأن الجبن يولِّد مهانةَ النفس، والكذابُ مهين النفس، بعيدٌ عن عزتها المحمودة".

ويشير إلى دواء نافع لهموم الدنيا، وهو الزهد، فيذكر أن الزاهد إذا نام لا يخشى على شيء مما يملكه، أو يتنافس فيه، فلا يذكر أهلاً ولا منصبًا، ولا فقرًا ولا غنًى، كما يذكر أن من أساليب تأثير الوعظِ الثناءَ بحضرة المسيء على مَن فعل خلاف فعله.

وانظر إلى هذا الاستنتاج منه، لتطعمه ناضجًا، ولتأخذ حذرك، قال: "تأمَّلت كلَّ ما دون السماء، وطالت فيه فكرتي، فوجدت كلَّ شيء فيه، من حيٍّ وغير حي، مِن طبعِه إن قويَ أن يخلع على غيره من الأنواع كيفياتِه، ويلبسه صفاته، فترى الفاضلَ يودُّ لو كان الناس فضلاء، وترى الناقص يودُّ لو كان كل الناس نقصاء، وكل ذي مذهب يودُّ لو كان الناس موافقين له".

قلت :ولعلك عرفت الآن ما حكاه الله تعالى عن المشركين والمنافقين في القرآن الكريم، أنهم وَدُّوا لو كانت أمة محمد مثلهم كفارًا؛ قال سبحانه: {وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا} [سورة النساء: ٨٩]، وقال أيضًا: {وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ} [سورة الممتحنة: ٢].

ومما تعجَّبَ منه: قوم غلبت عليهم آمال فاسدة، لا يحصلون منها إلا على إتعاب النفس عاجلاً، ثم الهمِّ والغمِّ آجلاً، كمن يتمنى غلاء الأقوات التي في غلائها هلاك الناس، وقال بعد مزيد من الوصف: "فلو تمنى الخير والرخاء، لتعجَّل الأجر والراحة والفضيلة، ولم يتعب نفسه طرفة عين فما فوقها، فاعجبوا لفساد هذه الأخلاق بلا منفعة".

والفصل المهم هو "مداواة أدواء الأخلاق الفاسدة"، الذي بدأه بلزوم معرفة الشخص عيوبه، وأنه إذا لم يعرفها أو لم يعترف بها، فهو ممتحَن بالعُجب، وأنه بهذا أعظم الناس عيوبًا، وأضعفهم تمييزًا، ثم ذكر أن مثل هذا ضعيف العقل، عاجز، وأحمق، وأورد أوصافًا أخرى له، تجعله في أدنى المستويات الإنسانية.

ونصح المعجَب بنفسه أن يقارن بين نفسه وبين مَن هو أفضل منه، وأنه بهذا يفيق من الداء القبيح الذي يولِّد عليه الاستخفاف بالناس، وذكَّره بأن فيهم – لا شكَّ – خيرًا منه، قال: فإذا استخففتَ بهم بغير حق، استخفُّوا بك بحق؛ لأن الله تعالى يقول: {وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا} [سورة الشورى: ٤٠]، وأنه يتولَّد في نفسه بهذا أنه أهل للاستخفاف به على الحقيقة، مع مقت الله – عزَّ وجلَّ – وطمس ما فيه من فضيلة.

ثم نصح وفصَّل، وركَّز على المعجَبين بعلمهم، وأنه لا ينبغي أن يسخطَ الله على هذه النعمة بهذا الخُلق السيئ، وذكَّرهم أنه – سبحانه – قادر على أن يسلبه منهم بعلَّة، ويسوق في ذلك خاطرة لطيفة، عن عبدالملك بن طريف، الذي وصفه بأنه كان ذا حظ عظيم من الحفظ، لا يكاد يمرُّ على سمعه شيء يحتاج إلى استعادته، وأنه ركب البحر، فمرَّ به هول شديد أنساه أكثر ما كان يحفظ، ولم يعاوده ذلك الذكاء بعدُ.

قال: وأنا أصابتني علَّة، فأفقت منها وقد ذهب ما كنت أحفظ، إلا ما لا قَدْرَ له، فما عاودته إلا بعد أعوام.

ثم تحدث عن الإعجاب بالشجاعة، وبالجاه في الدنيا، وبالمال، وبالجمال، وبالنَّسَب، وبحب الامتداح، وبالبطولة، وهو في كل موضوع منه ينصح، ويعالج، ويضرب الأمثلة، وبيَّن بعد ذلك مضارَّ العجب ونتائجه السيئة، في عِلم وقدرة وخبرة.

وفي متابعة لسلوك الناس ومواقفهم في هذا المجال، استنتج أنه :"كلما نقص العقل، توهَّم صاحبه أنه أوفر الناس عقلاً، وأكمل ما كان تمييزًا"، ويقول: إن في هذا شغبًا عجيبًا، فالجاهلُ الناقص يهزأ بالحكماء وأفاضل العلماء، والصبيان الصغار يتفكهون بالكهول، والسفهاء يستخفون بالعقلاء، وضعفة النساء يستنقصن عقول أكابر الرجال وآراءهم.

وذكر أن أحسن دواء لهؤلاء هو الفقر والخمول، ولعلَّه يعني :عدم الالتفات إليهم، وعدم استعمالهم، قال: "وإلا فَدَاؤهم وضررهم على الناس عظيم جدًّا، فلا تجدهم إلا عيَّابين للناس، وقَّاعين في الأعراض، مستهزئين بالجميع، مجانِبين للحقائق".

ويورد نوادرَ في علم السلوك الاجتماعي، كالرجل يمدح أولاده، وزوجَه وما بها من حسن وجمال، وأنها أعقل منه.

وإذا أردت معرفة العدل والإنصاف في أمر، فينصحك أن تتوهم نفسك في مكان الخصم، فإنه يظهر لك ذلك.

وإذا كنت تريد العافية؛ يعني: الهناء والطمأنينة، و"عدم وجع الرأس"، فهو يدلك على ذلك بقوله: "كم شاهدنا ممن أهلَكَه كلامُه، ولم نرَ قط أحدًا – ولا بلغَنَا – أنه أهلكه سكوتُه، فلا تتكلم إلا بما يقرِّبك من خالقك، فإن خفتَ ظالمًا فاسكت".

ويبدو أن اللقاء بين "المتزاعلين" أفضل من ابتعاد بعضهم من بعض، فهو يقول: "اللقاء يذهب بالسخائم، فكأن نظر العين إلى العين يُصلح القلوب".

ويصنف الأشياء التي تكدر صفو النفوس وتزعجها، وتحيل الحياة إلى حزن، وقلق، ونكد، فيقول" :أشد الأشياء على الناس: الخوف – يعني فقدان الأمن – والهمُّ، والمرض، والفقر".

ويقول في حكمة — بعد كلام -: "وأشد الأمراض كلها ألمًا وجعٌ ملازم في عضوٍ ما بعينه، وأما النفوس الكريمة، فالذلُّ عندها أشد من كل ما ذكرنا، وهو أسهل المخلوقات عند ذوي النفوس اللئيمة".

ويركز على الفضائل الإسلامية باعتبارها أساسية للتكامل النفسي، والحيازة على درجة السعادة في الدارين، من ذلك قوله :إنما ينبغي أن يرغب العاقل في الاستكثار من الفضائل وأعمال البر، التي يستحق مَن هي فيه الذِّكرَ الجميل، والثناءَ الحسن، والمدحَ، وحميدَ الصفة، فهي التي تقرِّبه من بارئه تعالى.

وقال في موضع آخر: مَن جهلَ معرفة الفضائل، فليعتمد على ما أمر به الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم فإنه يحتوي على جميع الفضائل.

خاتمة:

كان ما سبق قراءة في فكر ابن حزم من خلال كتابه "مداواة النفوس"، التي ركز فيها على العلاج النفسي بالنصوص والتوجيهات الإسلامية؛ ليحظى المرء براحة نفسية، وأخلاق عالية، وليستفيد منه مجتمعُه ووطنه، وليرضى عنه ربُّه، فيكون بذلك أحرز درجة الفوز والفلاح، في دنياه وآخرته - إن شاء الله - كما ركز على المبتلين بالعيوب النفسية الشديدة، وأمراضها، وما يبحث في علم النفس الإكلينيكي أو السريري، فقد بيَّن ضرورة العلاج منها إسلاميًّا، وإلا تفاقم الأمرُ فأضرَّ صاحبُها بنفسه وبالآخرين، كما ذكر في أكثر من موضع أن الاستشفاء منها لا يتأتى بسرعة؛ نظرًا لتوطنها وتمكنها من النفس، وعلاقتها بالطبيعة، وأنه لا بد في ذلك من إيمان، وصبر، وعزيمة، ومتابعة.

أقول :والحديث في هذا يطول، وما أوردتُه هو نموذج للمعالجة النفسية عند أحد علمائنا ومفكرينا المسلمين، وقد تحدث فيها مَن هو أكثر منه علمًا وتجربة، بأسلوب أرقى، وأجمل، وأحب إلى النفس، وهم علماء الزهد والرقاق والسلوك، ولا يخفى على القارئ أن هذا يحتاج إلى كتاب، أو كتب، المهم أن نعلم أن عندنا علومنا في هذا، وأن استيراد علاج نفسي من أطباء ومفكرين نفسيين لا يؤمنون بالإسلام، ومن ثم تطبيقه على النفوس المسلمة - هو عين الخطأ والخطورة، والله المستعان.

اللهم آتِ نفوسنا تقواها، وزكِّها أنت خيرُ من زكَّاها، أنت وليُّها ومولاها.

الباب الرابع

العلوم الاجتماعية والسياسية...

أولًا: علم الاجتماع

(١)

الهواية... زينة

مما استأثر باهتمامي في الحياة الاجتماعية ما رأيته من انغماس أفراد في أعمالهم إلى درجة لا تصدَّق! وليس المقصود عملاً معيَّناً، بل أعمال كثيرة، قد تكون صغيرة تافهة، وقد تكون في تخصص عال ونادر!

وهذا ما يلاحظه الناس كلهم تقريباً، ففي الدوائر الحكومية والمؤسسات الأهلية والمراكز العلمية والنوادي الرياضية والمصانع المتنوعة والجامعات المختلفة والمكتبات والمطارات والفنادق والمطاعم والأسواق والمستشفيات... أشخاص كثيرون يقومون بمهام لا يقدر عليها غيرهم، ولا يصبرون على ممارستها دقائق أو ساعات، بينما يعمل فيها أصحابها سنوات أو طوال عمرهم!

وإذا فُرز من بين العاملين في المهن المختلفة الذين أقحموا في أعمال لأنهم لم يجدوا غيرها، وأمثالهم من الكسالى واللامبالين الذين لا يصلحون لأي عمل، وقد يقاس على حالهم الذين يعاملون معاملة سيئة، ولا تعطى لهم حقوقهم، فإن سائرهم يعدون من المنهمكين والمنتجين الفاعلين في أعمالهم، وعلى أكتافهم، وبأفكارهم وإدارتهم تنمو وتنتظم وتتقدم المجتمعات.

وهذا التنوع في التخصصات والهوايات مما خلقه الله تعالى في نفوس عباده، حتى تكتمل الجوانب العلمية والعملية في المجتمع، وتقوم بها عمارة الدنيا. ولو أن هوايات الناس وتخصصاتهم تماثلت لما تصوِّر إقامة دولة على وجه الأرض!

فلو أن معظم الناس أحبوا الصيد وتوجهوا إليه في البر والبحر، أو كانوا علماء لا يغادرون مكتباتهم إلا قليلاً، أو حقوقيين ومحامين وكفى، أو أدباء وشعراء فقط... كيف تتصور الحياة

عندها؟ من الذي يحمل ويعمل في أعمال البناء وأسواق الخضر والمزارع وحقول النفط والحراسة وما إليها لو كان الناس كلهم أصحاب شهادات وأغنياء ذوي ثروات، أو أطباء، أو قادة...

إن الله سبحانه هو المتصرف في الكون، وهو خالق التخصصات والمواهب في البشَر، وسيبقى هذا الأمر موجوداً حتى آخر الدنيا.

يقول سبحانه وتعالى: {وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى} [سورة الأعلى: ٣] أي: الذي قدَّر لكلِّ شيء ما يُصلحه فهداه إليه. ومثله قوله عزَّ وجلَّ: {رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى} [سورة طه: ٥٠]. فالله يوجِّه كلَّ شيء لما خلقه له، حيث أودع فيه صفات ومكونات خاصة تؤهله وتدفعه لأداء وظيفته التي خُلق لها في الحياة.

ونأتي إلى صلب الموضوع، وهو أن الله سبحانه رسخ في كل نفس ما تهواه، بحيث تصير مرتبطة به، فلا تكاد تنفك عنه! وقد خيَّره في توجيه هذا التخصص أو الهواية، بعد أن بيَّن له سبيل الخير والشر.

يقول ربُّنا العليم الحكيم: {كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ} [سورة الأنعام: ١٠٨]. وقد جاءت الآية ضمن تعلق المشركين بأصنامهم. ومعنى الآية: ومثلُ هذا التزيينِ الذي زيَّناهُ للمشركين، بحبِّ أصنامهم والدفاعِ عنها، زيَّنا لكلِّ قومٍ عملهم الذي ارتبطوا به وتفانوا فيهِ منْ خيرٍ وشرّ، فهذا ما أرادوهُ أصلاً وتعلَّقوا به.

وتتمة الآية الكريمة: {ثُمَّ إِلَى رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} أي إنَّ مصيرهمْ إلى مالكِ أمرهم، فيُخبرهمْ بما كانوا عليه، ويُجازيهمْ على ذلك، ثواباً أو عقاباً.

والهاوي المسلم لا ينسى ربَّه وهو منغمس في تخصصه أو لعبته التي يهواها، وأنا أجمع بين الهواية والتخصص، لأن معظم المتخصصين يتلذذون بما هم فيه، حيث ينسون أموراً كثيرة من زينة الحياة ولهوها ولعبها، وهم في ذروة أداء أعمالهم!

وقد رأيت من الناس من نكب عن الرسالة الأساسية في هذا، واهتم بالشكل والمظهر.

فألوان الطعام والفاكهة ليست هدفاً وغاية وأساساً للإنسان، لكننا نرى أن بعض الأشخاص يهتمون به إلى درجة لا تتصور، ويغضبون ويهيجون ويتهاوشون لأجله!

والبحوث العلمية والعملية في المراكز والجامعات والمعاهد والمختبرات والمزارع يجب ألا تصرف المرء عن الغاية الأساسية التي وجدت لها هذه الأشياء، فهي علوم وآيات وأدلة على وحدانية

الله وقدرته وعظمته، فكل نتيجة جديدة يجب أن تُربطَ بالخالق العليم، والوصول إلى نتائج جديدة بعد بذل الجهد والوقت والمال تفرح قلب المؤمن بما يدل على صحة الرسالة وتأييد الدين، وتنطق كل جزئية فيه بقوله تعالى: {رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} [سورة آل عمران: ١٩١].

وتعلم علم الآثار منحرف عن مساره الأساسي الذي وضعه له الدين، فقد نبَّه الله سبحانه في أكثر من آية إلى أن ينظر الإنسان إلى آثار الأمم الماضية التي أهلكها، لأنها كذَّبت رسله وأصرَّت على الكفر، ليعتبر منها ولا يكون مثلها، فيزداد إيماناً والتزاماً بدين الله. ومن تلك الآيات: {فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ} [سورة آل عمران: ١٣٧].

لكن الملاحظ أن التركيز في تعلم هذا العلم هو على معرفة كيفية معيشة تلك الأمم، والاستفادة من أشياء لهم، والبحث عن كنوز إن وجدت، وما إلى ذلك. أما العبرة وزيادة الإيمان في ذلك، فقد لا يخطر إلا على بال المؤمن، على الرغم من بقاء الآثاريين في مواقع آثارية شهوراً وسنوات في ظروف مناخية صعبة... ولينظر ما أقصده في هذا، وهو العبرة، والتركيز على العقيدة المنحرفة التي كانوا عليها، وإصرارهم وعنادهم على الخطأ، فلم يُغنِ عنهم ما كانوا عليه من حضارة ومدنية وقوة ومال، فقد أهلكهم الله رغم كل ذلك، فالعقيدة هي الأساس، والإنسان هو دائرة التركيز، فجميع العلوم يجب أن تتجه إلى توجيهه وإصلاحه، ثم تأتي الأمور الأخرى.

ولا شك أن الآثاريين والمؤرخين يذكرون -من ضمن ما يذكرون- عقيدة القوم وسلوكهم، نوعاً ما، ولكن ليس بتوجيه ديني سديد، ونقد وتمحيص، وذكر الحقيقة في عاقبة أمرهم. هذا إذا كان معروفاً أمرهم في ذلك، وإن الدارس للتاريخ يرى كثيراً جداً من العقائد الباطلة عنهم، ويستشهدون بالآثار الدالة على ذلك.

والكتاب وسيلة للمعرفة، وهو عند المسلم مرجع وثقافة إسلامية وعلم قيمته أكثر من المال مهما بلغ، لكن من الناس من عشقه لا لعلمه، بل لشكليات ومظاهر أخرى فيه، كأن يكون قديماً، وبخط فلان، ومذهَّباً، ومجلداً بجلد الحيوان الفلاني، وهكذا. يعني أنه لا يهمه العلم، بل الحبر والورق وما إليه. ثم تراه قاعداً في مكتبته ساعات وهو ينظر في الخط أو يلمس الجلد وهو لا يكاد يقرأ منها شيئاً! وقد ينسى أن يذكر الله طوال هذا الوقت، ويذكر العلماء أن كلَّ ما ألهى الإنسان عن ذكر الله فهو حرام، وربما يعنون إذا ألهى عن واجب؟

وهكذا نرى أن العلوم والهوايات والتخصصات يجب ألاّ تُخرِجَ الإنسان عن وظيفته الأساسية في الحياة، وهي عبادة الله، سواء بأدائها، أو بالتفكر في كونه العظيم وما فيه من آلاء وعبر.

وليس معنى هذا الانحرافَ عن مقاصد العلوم، بل هو توجيه وتصحيح لمسارها الأساسية، حتى لا ينحرف الإنسان ويستعمل هذه العلوم في الإضرار بالبشرية، والإسلام يحث على العلم، ولا يشك في هذا إلا مغرض لجوج.

وانظر إلى قوله تعالى: {وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ} [سورة يوسف: ١٠٥] أي: وكمْ مِنْ آياتٍ دالَّةٍ على وَحدانيَّةِ اللهِ وقُدرتِهِ مَبثوثَةٍ في السَّماواتِ والأرض، مَعروضَةٍ أمامَ الأعيُن، يُشاهِدُها النَّاس، ولكنَّهمْ لا يَتفكَّرونَ فيها، ولا يَعتَبرونَ بها، للأُلفَةِ والعَادةِ التي هُمْ عَليها، فاكتَفوا برُؤيتِها هكذا دونَ التعمُّقِ فيها ومَعرِفةِ الحِكمةِ منها، ولذلكَ لا تَجِدُ أكثرَهُمْ مؤمِنين.

وأخيراً، فإن الهواية زينة حقاً، ككل زينة في الدنيا، فألبِسْها ثوب الدين وسماحته حتى تكون زينة لك في اليوم الآخر، ولا تغترَّ بما يزينه الشيطان لك منها حتى يجعل الباطل في ثوب الحق، فإنه عدو لك، يريد أن يأخذك من الطرف الذي تحب، وأنت لا تشعر!

(٢)
اللامبالاة مرض

اللامبالاة من أبغض الأخلاق الاجتماعية.

إنها تعني الفوضى وعدم الاهتمام، وتعني الكسل، وتعني الأنانية، وتعني هدر الحقوق، وباختصار تعني "اللاحضارة" و"اللاالتزام".

وبينه وبين "اللامسؤولية" عموم وخصوص.

وقد تحدَّث الناس عن الثقلاء وعن البخلاء كأمراض اجتماعية غير مقبولة في المجتمع، ولكن خلطوا مع ذلك الهزل والطرفة، ولا أعرف أحداً خصَّ خُلق اللامبالاة بكتاب، مع أنه يستحقُّ ذلك وأكثر، على ألاّ يكون ذلك من باب الطرفة والنكتة، وفي مجتمعاتنا كثيرون من أمثال هؤلاء، ولو تتبعت أخبارهم وآثارهم منذ أن التقيت بهم وعددت جوانب لامبالاتهم وضررهم على المجتمع، لأتى ذلك في كتاب مهم، فإنه مرض فتّاك حقاً، وعنوان ضخم من عناوين التخلف، وهذا الضرر يتبيَّن في جوانب الحياة كلها، بحسب مواقع اللامبالين في المناصب المتعددة والمختلفة التي اعتلوها في الدولة والمجتمع.

وأعلاها إذا كان الحاكم الكبير واحداً منهم، فيهتمُّ بمنصبه، ويعدُّ الرجال من حوله كما يريد هو، ويغدق عليهم المال، ويفتح لهم مجال الشهوات، ويقسم تركة بيت المال بين السلطة والشعب، بما يسد جوعة هؤلاء أو لا يسدُّ، ثم لا يسأل عنهم ولا يبالي بمشكلاتهم وآمالهم وآلامهم في الحياة، وقد يغادر الملايين أو مئات الألوف من شعبه إلى الخارج لأنهم لا يجدون ما يعملون ولا ما يأكلون، وهو مشغول بتعزيز منصبه ونشر عساكره وعناصر "أمنه" وأكل أموال شعبه، أو توفيرها لرجال سلطته، وليمت الشعب في أوحال الفقر والجهل والمرض!

والوزير مثل سيِّده... مهتم بالأسفار واللقاءات، ويعطي الأوامر بالاجتماعات ورفع التقارير...

وهي منظومة روتينية لا تنتهي، ويخلو فيها أحياناً كثيرة الشعور بالمسؤولية أمام الله تعالى.

وإذا طرقنا باب المسؤولين المباشرين الملتصقين بالشعب، والأفراد المعينين في الوظائف لتنفيذ الأعمال، في المؤسسات الحكومية والأهلية، لرأينا أن تبعية كبرى تقع على عاتقهم. وهؤلاء

تتبيَّن أخلاقهم المهنية والاجتماعية في اســتقبال الجمهور والتعاون معهم أو إهمال شــؤونهم ومعاملاتهم.

وهؤلاء متفاوتون، فبعضــهم جدير بعمله، وصــل إليه بعد شــهادة وخبرة وأمانة، ولكنه قد لا يُعطَى حقَّه المالي، أو لا يُقدَّر منصــبه، أو يطلب منه المســؤولون تنفيذ أعمال لا يقبلها دينه وضميره.

وآخرون وصــلوا إلى هذه المناصــب بالمال أو الواســطة أو الحزبية، وما إليها، فيكون هذا وبالاً على الأمة، وجاثماً على صــدورهم غصــباً عنهم! وهو بهذا لا يبالي بشــؤون الناس، ولا يدقِّق أوراقه ولا يرتِّبها، ويريد أن يتخلَّص من تبعاتِ المواطنين بإظهار أعذار يمنع تنفيذها، ويحوِّلهم إلى فروع وأقسام لا صحة لها. وهو لا يحضر في مواعيد العمل كلها، فله علاقات أخرى... كما يعطي مواعيد غير حقيقية، ولا يتقيد بها.

وإذا لم تكن له علاقة بالجمهور بطبيعة عمله، اســتأنس بصــديق أو صــديقة أو أمور دنيوية تافهة أكثر من العمل المطلوب منه، فلا يعمل إلا القليل، أو هو يعمل ولكن لا يتقن، ولا يوزع تبعة أعماله على الأقســام الأخرى في مواعيدها كما يطلب منه، فيُبحث عن معاملات المراجعين حتى تصــل إليه... وقد تُرَى في دروج مهملة، أو يُعثَر عليها بين أوراق غير نظامية! وبعضها لا يُعثَر على أثرٍ لها.

وإذا جئنا إلى العامة رأينا عند كثير منهم ما يوافق هذه العادات والآداب المشــينة بما يناســب وضعهم...

في تجمعات الناس في المناســبات الاجتماعية والثقافية والرياضــية، وعند أصــحاب المحلات أو العاملين فيها، وفي مواقف السيارات، وفي المزارع وحظائر الحيوانات...

وفي البيت تبدو آثار اللامبالاة إذا تركت الأم شــؤون المنزل والأولاد للخادمة الغريبة، التي تشعر أن البيت ليس بيتها، وأن الأولاد ليسوا أولادها... وتكون النتيجة الفوضى، واللاتربية، واللاأدب...

وما تقول في الذي يترك صــنابير المياه مفتوحة في بيته، في أوقات طويلة، وأحيانًا من المســاء حتى الصــباح، أو لا يغلقها جيداً، أو يفتحها على آخرها عند اســتعمالها، ســواء بفعله، أو بعدم تنبيه أهله وأولاده إلى ذلك؟

وما تقول في الذي لا يحلو له الكلام أو معانقة صـــاحبه أو لبس نعله إلا عند الأبواب، وخاصة أبواب المساجد، حيث يدخل أو يخرج منه المصلون بالعشرات.

وما تقول في المؤذِّن الكسـول اللامبالي، الذي لا يتنبَّه إلى أوقات الصلوات إلا عندما يسـمع الأذان من مســاجد أخرى، ولذلك تســمع صــوته في أكثر الأحيان بعد المؤذِّنين كلهم.

وبعضـهم يكون في المسـجد، ويعلم دخول الوقت، ولكنه يشـغل نفسـه بالجوَّال، أو لا يقطع حديثه مع آخر عنده!! ولا يهمه أمر إخوانه الذين قد تجد بعضــهم صــائمًا ينتظر الأذان بالثانية والدقيقة، والعجائز والمرضى الذين ينتظرون وقت الأذان ليؤدُّوا الفريضة في أول الوقت لأعذارٍ لهم...

وما تقول في الذي يوقف سيارته على المدخل اليمين من الشارع فيحرم السيارات أن تدخل منه، ويبقى أصحابها هكذا ينتظرون حتى تضيء الإشارة الخضراء أمام حضرة ذلك اللامبالي!

وقس على ذلك شؤونًا وأحوالاً.

إنها أمور كثيرة تفصل الإنسان عن عمله الحقيقي، لأنه لم يتربَّ على المسؤولية، ولم يتربَّ على الخوف والخشـية من الله، ولم يُتابَع في عمله ويُنبَّه إلى أنه إذا لم يفعل كذا فإن أخاً له يتضـرَّر به، وأن الله سيحاسبه لأنه لم ينفِّذ عمله كما ينبغي...

وإن المجتمع... والوطن كلَّه يتضــرَّر من هذا المتكاســل اللامبالي، الذي يهمل الأعمال أو يؤخرها، فتهمُّه نفسه وراحتها، ولا يهمُّه إخوانه وتدبير شؤونهم وتسهيل أمورهم، كما لا يهمه أحوال التمدُّن والحضـــارة والتقدُّم في بلده، فبأمثاله تنحطُّ الأمور، وتتخلَّف الدواوين والمكاتب، ويتضجَّر الناس ويتأففون، ويدعون عليه وعلى أمثاله، والله المحاسِب يوم الدين.

وإن القضـاء على هذه الآفة الاجتماعية والمهنية تكون بالتربية الإسـلامية المرحلية الشـاملة، أعني الفردية والأسـرية والاجتماعية والوطنية، ويُنَشَّـأ الطفل على الالتزام، ولا يسـامح إذا لم يُبالِ مرات، حتى لا يكون ذلك له عادة، وتقام دورات متتالية للموظفين داخل الدوائر وخارجها لتذكيرهم بسوء عاقبة اللامبالاة، وأنهم محاسبون على تقصيرهم...

(٣)
الأطفال... والأيادي المجرمة

هذه إحصائية مؤلمة، قرأتها قبل سنتين (١٤٢٩هـ) ولا شك أنها في ازدياد.

هذه الإحصائية تقول: إن ما بين ٨٠ و٩٠٪ من الأطفال يتعرَّضون للضرب في أبدانهم في العالم كله، وأن ثلث هذه الحالات أو أكثر تستخدم فيها الأدوات للعقاب، وأن أكثر من (٥٠٠٠٠) طفل يموتون سنوياً من جرّاء هذا العنف!

الصدمة كبيرة، ويبدو أن الوالدين لهما نصيب في هذه الإحصائية، وربما كان العقاب في البيوت أكثر من أي مكان يكون فيه الأطفال (في العالم الإسلامي على الأقل)، والأبوان هما اللذان يشرفان على الأطفال في البيوت غالبًا، ومن المفترض أن يكونا أشفق الناس وأحنَّهم على الأبناء، فكيف يضرب الأبوان أولادهما حتى الموت، أو يكرران الضرب حتى يصابوا بعاهات ويموتوا من جرّائها ولو بعد حين!

وماذا يُقال عن حال الأطفال في المؤسسات والجمعيات التي تشرف على اللقطاء واليتامى، وفي الروضات، وأجنحة الأطفال في أماكن أخرى، وعند المربيات، ممن ليسوا فلذات أكباد عندهم وعندهنّ؟

وإذا ذُكرت الكبائر، وذُكر أكبرها، فإن جسم المؤمن يقشعر، وقلبه يوجل، لأن الاقتراب منها يعني التعرض لغضب الله ونقمته وعذابه الشديد، والمسلم رسالته في الحياة أن يعبد ربه ويرضيه بطاعته له لا بمعصيته، وهو مأمور بتربية أبنائه تربية حسنة وسليمة ليكونوا عناصر فاعلة في المجتمع، ومؤدبة وذات قيَم عليا وأخلاق كريمة، ولن يتأتى هذا كله إلا بالكلمة الطيبة والتربية المسؤولة، أما الضرب فيستعمل عند الضرورة، ولكن في أماكن غير مؤذية من الطفل، ولا يكون ضرباً قوياً، يعني أن الضرب يكون للتأديب، وبشفقة، وليس انتقاماً نفسياً يفجِّر فيه الأب أو الأم غضبه في طفله.

ولجزاء هذا العمل الشنيع الذي يخافه المسلم، أحسب أن نسبة الأموات من الأطفال نتيجة الضرب تكون قليلة جدًا في بيئة المسلمين، إذا كانوا هم المشرفين على أطفالهم وفي بيوتهم،

وقد بلغت هذا العمر ولم أسمع أن طفلاً مات من الضـــرب، إلا قليلاً جداً، والنادر لا حكم له. ولا يكون قصد الوالدين الضرب حتى الموت.

وهل مقتل (٥٠٠٠٠) نفس بريئة أمر هيّن؟ وخبر يمرُّ بدون تألُّم وتحسُّـــر وعمل ما يمكن تداركه؟

أما المدنية الحديثة، فهي أشقى من أن تجد لذلك حلاًّ مناسباً وكافياً، لأنها هي سبب شقاء معظم الأطفال، فهي التي أقصت الدين عن العلاقات الاجتماعية، وأحلَّت السفاح، وجعلت الناس همجاً في علاقاتهم الجنسية، حتى كثر الأطفال بدون أبوين، وبدون تربية، وبدون متابعة مسؤولة.

وجعلت توعية الأبوين والمشرفين على الأطفال بوسائل تربوية غير الضرب، هي سبيل النجاة من هذه المشكلة الجريمة.

والأمر يتعلق بأكبر من هذا الأمر.

إن استـــشـــعار هذا الذنب الكبير، وهو ضـــرب الطفل حتى الموت لا يتصـــوَّر إثمه وعقوبته العظيمة إلا المسلم الحق، الذي جعله الإسلام في الدرجة الثانية من أكبر الكبائر، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول كما في صحيح البخاري: "أكبر الكبائر الإشراك بالله، وقتل النفس، وعقوق الوالدين، وقول الزور".

ولا فرق بين هذه الجريمة وجريمة الوأد التي كانت تُمارس في الجاهلية، حيث كان الجاهلي الكافر يضع طفلته الحيَّة في حفرة ويهيل عليها بالتراب!!

{وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ . بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ}؟ [سورة التكوير: ٨-٩].

والمســـلم لا ينسَـــى هذه الصـــورة الفظيعة التي كانت تُمارس في الجاهلية، وترتعدُ لها جنَباتُ جسمه كله!

والمطلوب من المؤسسات الخاصة بالأطفال أن تتحرّى في أمانة المشرفين على الأطفال، بأن يكونوا ذوي دين وخُلق وأدب، وليسوا فسقة ومجرمين.

اللهم احفظ المسلمين وأطفالهم.

(٤)
هل العالم بخير؟

آلمني آخر إحصائية أعلنتها منظمة الصحة العالمية عن عدد المنتحرين، في كل يوم، وفي كل عام! من هذا العام (١٤٣١هـ)

ولم أصدق عيني عندما قرأت أن عدد المنتحرين هو (٣٠٠٠) شخص، وقلت: لعلهم (٣٠٠)! ثم كأنه انطبع في نفسي أن هذا العدد هو للمنتحرين سنوياً، ولما تأكدت من أن (٣٠٠٠) من البشر ينتحرون يومياً، كانت المفاجأة أكبر وأقسى.

إنهم مساكين، هؤلاء الذين لا يجدون أملاً في الحياة، ويستصعبون العمل والعيش مع البشر، فيرون أقصر طريق للخلاص من حياتهم هو إعدامها، ظناً منهم أنهم سيصبحون مثل التراب، لا يحسون بشيء ولو وطئتهم الأقدام!

إنه باختصار (اليأس)، هذا الداء العلقم، الذي لا ينبغي وجوده في حياة المسلم أصلاً، بل هو في دفتر الكافرين، حيث ورد في القرآن الكريم: {إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ} [سورة يوسف: ٨٧]، {وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّآلُّونَ} [سورة الحجر: ٥٦].

لكن من المؤسف جداً أن تجد بين هؤلاء المنتحرين آلافاً من المسلمين أيضاً، وهو ما يُنبئ بشرّ، فإن التربية الإسلامية غائبة، وهؤلاء الضعفاء هائمون سادرون غائبون عن الدين وعقوبة الانتحار، فإن "من تردَّى من جبل فقتلَ نفسَهُ فهو في نارِ جهنم يتردَّى فيه خالداً مخلَّداً فيها أبداً، ومن تحسَّى سمًّا فقتلَ نفسه فسمُّه في يده يتحسّاهُ في نارِ جهنم خالداً مخلّداً فيها أبداً، ومن قتلَ نفسه بحديدة فحديدتهُ في يده يَجَأ بها في بطنه في نارِ جهنم خالداً مخلَّداً فيها أبداً" كما في صحيح البخاري.

إن الإسلام يجلب السكينة للنفس، والاطمئنان للقلب، فيعيش المسلم راضياً بقضاء الله ولو كان فقيراً، وطيِّب النفس ولو لم يكن ذا مكانة في المجتمع، ومطمئن القلب ولو تكالبت عليه الهموم، لأن المسلم يعلم أن الله لن يتركه، وأنه لن يبقى على حاله التي هو فيها، بل ينتظر الفرج وهو موقن به، ويبتسم للحياة ولو من بعيد، فلا تبقى حال على ما هي عليه، بل هي متقلبة، من حسن إلى سوء، ومن سوء إلى حسن، والحكمة في ذلك هو الابتلاء الذي يبتلي الله به

عباده بالسرَاء والضرّاء، ليرى صبرهم وشكرهم، والتجاءهم إلى ربهم أو يأسهم، ولذلك لا بد للمسلم من أن يتبحَّر في أعماق دينه، ليعرف مبادئه وحكمته في الخلق وفي الحياة، ويطَّلع على حال الإنسان في القرآن، مع الله ومع البشر، وفي التاريخ، ليعلم أن لا ملجأ من الله إلا إليه، وأن الخير كله بيده سبحانه، فيتلمس منه الفرج، والتغلب على الصعوبات، والنجاح في الامتحان الدنيوي.

وإنه على الرغم من التقدم في المدنية وأساليب الحياة والتقنية الضاربة بأعماقها في معيشة الإنسان، إلا أنها مع الأسف لا تجلب له السعادة، إنها فقط تخفف من التعب، وتبهره بالمعلومات، وتحقق له رغبته في الاستطلاع، وتزيد بعضهم ثراء... ولكنها لا تجلب قط الاطمئنان والراحة النفسية، فالإنسان هو الإنسان، هو الروح وهو الجسد، والمدنية الحديثة تعطي جسده أكثر من حقه، وتترك روحه هملاً، وهو الأهم، لأنه لا حياة حقيقية للجسد إلا بالروح، وإذا كانت الروح مريضة فلن تجد الجسد صحيحاً، وصحتهما بما خلقهما الله له، وهو التوجه إلى ربِّ الخلق كلهم، في عقيدة صحيحة، وعبادة صحيحة، وممارسة صحيحة للحياة، وهو ما لا يوجد إلا في دين الله الخاتم.

ومن المؤسف أن الإنسان يزداد شقاء في هذه الحياة!

فإن في الـ(٤٥) سنة الأخيرة قفزت معدلات الانتحار بنسبة ٦٠٪ في جميع أنحاء العالم! كما ذكرته منظمة الصحة العالمية!

ولا حلَّ صحيح لدى هذه المنظمة لـ"علاج الانتحار"، لأنها لا تملك ديناً صحيحاً! وكل ما ذكرته من حلٍّ أنها تتعاون مع الرابطة الدولية لمنع الانتحار، وأنها ستحث وسائل الإعلام على توخي المزيد من العقلانية لدى تغطية حالات الانتحار، فقد لوحظ أن كل محاولة انتحار (ناجحة) تقابلها (٢٠) محاولة انتحار أو أكثر.

بقي أن يعرف القارئ أن مستويات أعمار الانتحار هي قمة نضوج العمر في حياة البشر، وهي ما بين (١٥- ٤٤ سنة)!

إن روحك هذه التي بين جنبيك أيها الإنسان ليست ملكك حتى تنهي مهمتها في الحياة بإرادتك وعزيمتك، إنها أمانة من الله عندك، فإذا لم تحترم هذه الأمانة، بل تعديت عليها حتى بالقتل، فإن جزاءك هو النار الدائمة التي تحيط بك يوم الحساب.

وتأكد أيها الإنسان، أن العالم ليس بخير، ما دام الإسلام غائباً عن حياة البشر، في عقيدتهم، ومسلكهم، فهو دين الحياة، وهو دين الوسطية والاعتدال، الذي يعطي الجسد حقه، ويعطي الروح حقه.

(١)
مزالق الثقافة

عندما ينحرف القطار عن مساره يُصابُ الركاب، فيُجرَح الكثير منهم أو يموتون، حسب (الوقعة) التي وقع فيها القطار، فإذا كان مسرعًا وبه عدد كبير من الركاب كانت المصيبة أكبر، وإذا كانت أقلَّ كان أقلّ.

وهكذا الثقافة إذا انحرفت عن مسارها الصحيح، وخاضت في أوحال الهوى والمصالح، وانزلقت في مزالق العصبية والقبلية والطائفية، واتسمت بالشحناء والتباغض، ولبست لباس الغرباء، وجهرت بالعيب والفحشاء، وفرضت نفسها بكل عيوبها على بيئة لا تؤمن بها ولا تناسبها، عندئذ تكون الكارثة قد حلَّت بالمجتمعات، وتصادمت فيها النفوس بأمزجتها المختلفة، بين مؤيد لها لمصلحة، ومجاف لها لمبدأ، فتتضارب الأفكار، وتختلف النفوس، ويشتعل الصراع ... هذا بدل تجييش المفكرين والمثقفين للانتصار للحق الذي يتفق عليه المجتمع في بيئة مسلمة، تناسب جميع فئات المجتمع وتتفق عليها، تناسبها وتدافع عنها، وتؤلِّف المجتمع في نسيج واحد، ووحدة متكاملة، وتكون بذلك عونًا للحاكم الصالح، وللمحكوم الذي لم تُصادر عقيدته، ولم توْأد كرامته، ولم تُهدَر ثقافته.

وأكثر ما يضرُّ المجتمع هو الثقافات الحزبية الضيقة، فكل حزب يريد أن يفرض رؤاه وثقافته على الآخرين في الوطن كله، بوسائله الإعلامية المختلفة، ومن خلال التربية الحزبية لأعضائه، على الرغم من أنها نتاج أفكار شخصية، بل عدة أشخاص، هم الأعضاء المؤسسون للحزب، وكل حزب يخالف الآخر!

كان بومدين يقول بكل صراحة إنه يطبق الاشتراكية في البلاد بدون رضا شعبه! فماذا كانت النتيجة في الجزائر الحبيبة؟

وفرض القذافي كتابه "الأخضر"، وأنفق على طبعه وترجمته وتوزيعه في أنحاء العالم أموالاً لا تحصى، وأمر بتلاوته أو دراسته في اللجان والمدارس والجامعات، ووجد من يساعده ويحلِّل

"نظرياته" في طبقات مثقفة عالية! ولكن ما مصير كتابه بعد أن رُفعت يدُ السلطة القوية عنه؟ لقد كان قناعات شخصية، وثقافة خاصة، أراد شخص أن يفرضها بقوة على الآخرين، ولو لم تناسب دينهم وبيئتهم.

وانتشرت أفكار حزب البعث (القومي الاشتراكي) في بلاد الشام والعراق خاصة، فمكر بأهلها، وخرَّب ضمائر الكثيرين منهم، وجعل البلاد ثكنات حزبية لا يعترف بغير ثقافتها التي تُفرَضُ على الجميع... فماذا حلَّ بسورية والعراق خلال أربعين عامًا من حكم البعث وثقافته؟

وفي عدن، حيث طبق (الرفاق) الأفكار الماركسية، والمبادئ الشيوعية؛ بهدف إزاحة تاريخ وثقافة إسلامية على مدى قرون. فماذا كانت النتيجة؟ وما مآل تلك الثقافة المفروضة بغير رضا أهلها؟

والنفوس عجيبة، تستجيب للحق وللباطل، يعني أن بعضها تتآلف مع الثقافات المنحرفة وتمتزج معها، كما تتآلف النفوس الطيبة مع الثقافات الصحيحة، وما زال هناك أنصار لمحمود محمد طه الذي ادَّعى النبوة في السودان وقُتل مرتدًا! وقد تابعه مثقفون وأصحاب شهادات عليا وأساتذة جامعات في الاقتصاد!!

ولم تخلُ الساحة الإسلامية من صراع الثقافات، ومن المؤسف أن تجد بعض من تشبَّع بثقافات غربية وحزبية، وإسلامية هزيلة، أن ينفرد بأفكار يلصقها بالإسلام، ويحشد لها نصوصًا ويتوسَّع في تأويلها، ويقول إن دعوته "إسلامية"، فصار كلٌّ يعَضُّ من الإسلام عضَّة، حتى صار جسدُ الإسلام جريحًا، ونتج عن ذلك تصارع أحزاب إسلامية!

ولكن هذه الأفكار والاجتهادات الخاصة لن تعمَّر، وإن وجدت آذانًا تسمع حالاً.

فقد فرض الخليفة المأمون ثقافة الاعتزال على المسلمين، ودعا خليفته المعتصم إلى القول بخلق القرآن، وسجن أحد أئمة المسلمين الكبار لأجل ذلك. ولكن ما نتيجة هذه الثقافة، وما مآل أصحابها؟ لقد كادت أن تنمحي لولا انتشار بعض علمائها في بلدان، وانتهى الإمام الممتحن في هذا (أحمد بن حنبل) إلى أن المتوكل ابن المعتصم كان يكرمه ولا يولِّي أحدًا إلا بمشورته!

إنه صورة من صور الثبات على الحق، ونبذ للثقافة الباطلة، البعيدة عن معتقد المسلمين.

إن تبعة الثقافة وتوجيهها أمانة ومسؤولية، لا يستقيم فيها إلا من أسلم وجهته لله، وكتب بنفس صافية لا تريد إلا الخير والصلاح للمسلمين وبلادهم، ولن يستقيم أمرها مادامت مستوردة، وغير مناسبة لمعتقد المسلمين، وإن خرَّبت نفوسًا قلقة، أو خاوية، أو ضعيفة، أو فاسدة.

ثالثًا: الإعلام

(١)
الاعلام الحاقد
(صحيفة الأهرام أنموذجاً)

أعني بالإعلام الحاقد توظيف وسائل الإعلام أو بعضها لبث الحقد والبغض والكراهية في المجتمع، وذلك بتوجيه الأقلام المسمومة والحناجر المستأجرة المبغوضة للإضرار بفئة أو فئات من المجتمع، بقصد إقصائها، أو تنفير الشعب منها، أو تشويه سمعتها، ولتبقى هي مستأثرة بالسلطة والبقاء في الحكم.

والأمراض الإعلامية كثيرة في مجتمعاتنا العربية والإسلامية، في ظل كبت الحريات، والتلويح بالعقوبات، والتهديد بالإضرار. وهذا نوع منها.

وقد تابعت صحيفة "الأهرام" القاهرية سنوات، لمتابعة الوفيات فقط، فلفت نظري فيها أشياء كثيرة لا تبهج نفس القارئ، ويكفي أن يُقال إنها صوت الحكومة، أو صدى صوتها، حكومية كانت هذه المؤسسة الصحفية أو أهلية. وإذا عرف القارئ العربي ذلك فكفى بذلك معرفة!

والذي لفت نظري من بين هذه الملاحظات، وهو سياسة جديدة في ظل رئاسة أسامة سرايا لم تكن من قبل، توجه إعلامي خطير يؤثر في صميم المجتمع المصري، ويولِّد نفوراً شديداً من الجريدة والقائمين عليها، وهو اعتبار المعارضين للحكومة بالطرق السلمية كالمجرمين، على ما يأتي تفصيله!!

ومن المعروف أن أكبر تجمع معارض للدولة هو جماعة "الإخوان المسلمين" ومؤيدوها، ذات التاريخ العريق في الدعوة والإصلاح، التي تحمَّلت صنوف العذاب في السجون والمعتقلات مما لم يشهد العالم له مثيلاً تقريباً، التي فرضها عليهم الحكام المستبدون المنادون بالديمقراطية، الذين خدعوا الشعب بشعارات الحرية والاشتراكية وما إليها. وقد اختارت هذه الجماعة طريق السلم والنقد والحوار في التغيير والتنمية والبناء، ولكن الحكومة لا ترضى

بهذ الأسلوب- المقبول في المجتمعات العالمية كلها- لأن القائمين به من المتدينين الملتزمين بالدعوة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية، وصار الإعلام الحكومي يعاملهم معاملة المجرمين، فإذا أُوقفَ بعضهم أو سُجنوا أياماً، أو حوكموا، وضعت أخبارهم في صفحة "الحوادث"، التي تُعنى بأخبار القتلة واللصوص والبلطجية ومدمني المخدرات والمسكرات وما إليها!

وهي نظرة حاقدة، وسياسة إعلامية متدنية، ومعالجة للخبر الصحفي بنفسية تحمل في طياتها الظلم والضغينة والكره والتعسف...

ومن المؤسف أن يحمل راية هذا الإعلام الحاقد المشوَّش أشهر جريدة في مصر، التي من المؤمَّل أن تكون الوجه الثقافي والحضاري والإعلامي للبلد، لكنها نزلت إلى الحضيض عندما توجهت إلى هذا التقسيم الإعلامي المزري، لتبثَّ الفرقة والحقد في المجتمع المصري المسلم، وتوصل هذا التوجه البغيض إلى أنحاء كثيرة من الأرض، في نظرة بشعة وسيئة لا تدلُّ على الحقيقة، حيث يُنظرُ فيها إلى المعارض المسالم أنه كالمجرم يستحق العقوبة والسجن وما إليه...!

وحتى أضع القارئ الكريم في الصورة، فإني أنقل له من جريدة الأهرام رؤوس الموضوعات التي كانت تنشرها عن "الإخوان" في صفحة الحوادث، مع عناوين لموضوعات أخرى في الصفحة نفسها تخص المجرمين، ليدرك بنفسه الأسلوب الصحفي التي تسلكه هذه الصحيفة، لبث الحقد والتفريق بين فئات المجتمع المصري.

وهذه العناوين نماذج غير مختارة، بل أخذتها من تسلسل زمني صدرت في الجريدة مدة أسبوعين، تبدأ بالعدد (٤٤٠٨٥) تاريخ ١٤٢٨/٨/٦ هـ، وتنتهي بالعدد (٤٤١٠١) تاريخ ١٤٢٨/٨/٢٢ هـ. وهذه هي:

- بعد ضبطهم متلبسين بعقد اجتماع تنظيمي بالجيزة، النيابة بدأت تحقيقاتها مع عصام العريان و١٥ من قيادات وكوادر الإخوان.

وجاء مقابله تماماً: أم وابنتها تقتلان الأب بالمطارق الحديدية.

وأسفله: إخلاء سبيل الجزار المتهم بذبح جملين داخل حديقة الحيوان.

- وفي عدد آخر: حبس ٨ أشخاص من جماعة الإخوان المسلمين المحظورة بالإسكندرية.

وجاء فوقه: مصرع طالب إيطالي بسبب جرعة مخدرة زائدة [في مصر].

- وفي عدد تال: حبس ٨ من جماعة الإخوان المحظورة.

وأسفله: العثور على جمجمة داخل مخزن أخشاب بالإسكندرية!

- وفي عنوان طويل جاء فيه: ضبط أموال ومجوهرات داخل منازل عدد من المتهمين [يعني من الإخوان] جمعت لمصلحة قضية فلسطين (لاحظ الجريمة التي لا تغتفر!!!).

وفي يسار الخبر: لاستيلائه على أموال الشركة بالتزوير: المؤبد لمدير مكتب مصر للسياحة بفرنسا سابقاً.

وتحته: جزار بالمنيا يذبح عامل المجزر بسبب علاقته بابنة شقيقه.

- النيابة تحصل على أدلة عن المواقع التنظيمية للنائبين بالجماعة المحظورة.

وفي يساره: مصرع طفل صعقاً بالكهرباء في شبرا الخيمة.

- تجديد حبس ٩ من عناصر جماعة الإخوان المحظورة.

وتحته: سائق يذبح شاباً ويصيب ٢ آخرين بساطور.

- استمرار حبس عصام العريان و١٥ من مسؤولي الجماعة المحظورة.
- وتحته" طالب جامعي يقتل شقيقته بالجيزة بعد محاولته ابتزاز أموالها.

وهذه العناوين والأخبار تأتي في أول الصفحة، ثم تليها من تحت وعن يمين ويسار بقية أخبار الجرائم. وهذا يوحي بأن نظرة الصحيفة إليهم أنهم أكبر المجرمين! إذا عرفنا أن تصنيف الأخبار والأحداث يأتي في الأول حسب أهميتها في سياسة التحرير الصحفي، وكما نشاهد ونقرأ في بقية الصفحات.

ومن المؤسف جداً أن تمتد سياستها الحاقدة هذه إلى خارج حدود مصر، يعني أن تكون نظرتها إلى جماعة الإخوان المسلمين عامة هو التعامل معهم كمجرمين، فقد كتبت في صفحة الحوادث هذه نفسها عن جماعة الإخوان في الأردن منتهجة الأسلوب السابق، على الرغم من أنهم يشاركون في الحكم منذ عقود من الزمن!! وهذا جزء مما أوردته الجريدة عنهم:

" الإفراج عن أربعة إسلاميين في الأردن: قال مسؤول في حزب جبهة العمل الإسلامي، وهو أكبر الأحزاب الأردنية أمس، إن السلطات الأردنية أفرجت عن أربعة من سبعة موقوفين من الحزب...".

وقد يعني إيراد الخبر هكذا أنهم كالمجرمين ولو أفرج عنهم! وإلا فما معنى إيراده هكذا بين أخبار الجرائم والحوادث؟!

وإذا كانت القيادات الإعلامية المسؤولة هي التي تقود دفَّة الحقد والعنصرية في المجتمع، فماذا يُقال عن سياسة غير القياديين وغير المسؤولين؟ وماذا يكون حال المجتمع إزاء هذه السياسة الإعلامية المنكرة؟

إن الذي أذكره أن رئيس التحرير السابق (إبراهيم نافع) كان يستضيف قيادات من الإخوان في الصحيفة، ويورد حواراتهم، بل أذكر تماماً أنها نشرت حواراً مع المرشد العام للحركة، تفاعلاً وتجاوباً حضارياً وإعلامياً مع المعارضة المسالمة، وإبراهيم نافع على الرغم من أنه يعتبر من أقلام الحكومة، لكنه كان واسع الفكر، ديِّناً، له كتابة يومية في الدين في شهر رمضان خاصة... ولا أذكر أنه أورد مرة واحدة أخبار اعتقالاتهم ومحاكماتهم في صفحة الحوادث..

إن الذي أريد قوله لرئيس التحرير الجديد أن أسلوبه المنكر هذا لا يجلب له تأييداً وشكراً من الشعب، بل إنه ينقلب إلى عكس ما يتوخاه، إن هذا يجلب له ولجريدته البغض والكراهية، وهو يعرف اتجاه الصحافة جيداً في مصر، حتى قال أنيس منصور في زاويته بالجريدة نفسها أكثر من مرة: ألا يوجد شيء صحيح في مصر؟ رداً على التكثيف الإعلامي

والنقد المستمر للحكومة من قبل الصحف... وليقارن بين رأي الشعب والإعلام الحر، وبين ما ينتهجه، من قِبل نفسه، أو مغلوباً على أمره.

إن سبب اتجاه الصحافة، بل الشعب، إلى عكس ما تريده الحكومة، هو لاستهتارها بقيمته، وبما يحبه، وما يختاره، وما يريده. ومن الأفضل للجريدة أن تعرف أن المعارضين ليسوا مجرمين، ولا هم أعداء للشعب ولا للحكومة، بل إنهم يحبون مصر وشعبها، ويريدون لها التقدم والرقي ويبغون لها الإصلاح، وتاريخ هذه المعارضة الجليل يعرفه القريب والبعيد، ولن يستطيع أحد أن يطمسه، مهما حاول.

إن كتّاب الحكومة عليهم أن يعرفوا أنهم أفراد من الشعب، وأن هذه الحكومة ستذهب كما ذهبت حكومة عبدالناصر وحكومة السادات، وعليهم أن يدركوا أن قيمة الإنسان هو بموقفه المؤيد للحق، وليس للهوى والحزب والسلطة والمال.

وإن الذي يحب شعبه ويحترمه يفتح له قلبه ويقول له: قل ما تريد، يجب عليك أن تنبه على الخطأ، وأن تبيِّن مواضع الخلل، وتطالب بالإصلاح، حتى لا يكون هناك استبداد وتفرد بالسلطة... بأسلوب حضاري، وفكر متفتح، ونفس مبتهجة...

فمتى يتدبرون، ومتى يعتبرون من الدراسات والإحصاءات الرسمية وغير الرسمية التي توضح نتائج الظلم والكبت والتهميش لفئات المجتمع والتحكم بالهوى والحزب...؟

كتب في (١٤٢٨/٩/١٧ هـ)

نشرته في الشابكة باسم (محمد إسماعيل)

رابعًا: السياسة

(١)
لماذا فرنسا أكثر؟

الإعلاميون الإسلاميون غالبًا ما يتحاشون ذكرَ الحقيقةِ في أسبابِ تركيزِ الجهاديين على فرنسا أكثرَ من غيرها من الدولِ الأوروبية،

وتحليلهُ سياسيًّا في نظري،

أن السببَ هو الوجودُ العسكري الفرنسي المكثفُ في إفريقيا،

وخاصةً شماليها،

ليكونَ رأسَ حربةٍ ضدَّ إقامةِ أيِّ حكمٍ إسلامي،

وجاهزًا ضدَّ أيِّ تحركٍ إسلامي لا يناسبُ مصالحَ أمريكا والغرب،

كما فعلت في مالي،

وقد أشارَ إلى هذا سابقًا وزيرُ الدفاعِ الفرنسي (جان إيف لودريان) عندما تفقدَ قاعدة "ماداما" الفرنسية العسكرية في أقصى شمالِ النيجر قربَ حدودِ ليبيا،

وأنها بهدفِ مواجهةِ الجماعاتِ المتشددةِ في شمالِ أفريقيا. (الجزيرة ١/٢/٢٠١٥م).

وكذلك لمواقفها السيئةِ ومناهضتها لثوراتِ الربيعِ العربي،

ووقوفها إلى جانبِ الثوراتِ المضادة،

وتحريكِ مناصريها من الداخلِ لأجلِ ذلك،

ووضعِ ثقلها ضدَّ رغباتِ الشعوبِ في الحريةِ والديمقراطيةِ في بلادها،

على أملِ اختيارِ قادتها بذاتها دون ضغوطٍ خارجية،

كما وضحَ وقوفها مع أمريكا إلى جانبِ (حفتر) وريثِ القذافي ضدَّ إرادةِ الشعبِ الليبي،

ولتعكيرها الجوَّ السياسي في تونسَ بعد نجاحِ ثورتها حتى حققت كثيرًا مما تريدُ منه،

ولتاريخها الأسودِ في احتلالِ بلادِ المسلمين،

وقتلِ العلماءِ فيها خاصة،

وتعذيبِ المجاهدين،

وإعدامِ القادةِ المخلصين في البلاد...

والتاريخُ لا يُنسَى..

وهل ينسَى الشعبُ السوري ما فعلتهُ وتفعلهُ روسيا من قتلٍ ودمارٍ في بلدهم؟

ألا يكونُ عارًا على قادةِ سوريا المستقبلِ أن يعيدوا العلاقاتِ مع روسيا كما كانت،

بعد كلِّ الذي فعلتهُ بها،

كما أعادوا علاقاتها مع فرنسا بعد احتلالِ بلادهم،

وكأن شيئًا لم يكن؟!

وأخيرًا،

فإن الجهاديين يرون أن حربهم لم تنتهِ مع الغرب،

ما داموا يتدخلون في شؤونِ بلادهم،

ويساندون الحكام العلمانيين والظالمين ضدهم.

(٢)
الانحراف الفكري لدى القادة في مصر

لم يرضَ القادة في مصر بحكم الإسلام.

ولذلك اجتمعوا على إسقاطه قبل أن يتمكن منه أهله.

وسبب وقوفهم ضدَّ نفوذ الإسلام في الدولة هو انحرافهم الفكري، والتربية الثقافية المعوجَّة التي نشأوا عليها، مدنيًا وعسكريًا؛ ولذلك لم يتحمَّلوا إقامة الحقِّ بينهم. ويُفهم من هذا أنهم غير راضين عن الإسلام، أو هم على الأقل غير راضين عن الاحتكام إليه، أو عن حملته والداعين إلى تطبيقه.

ومن يقرأ كتاب "تهويد عقل مصر: قبل أن تفكر مصر بعقل صهيوني أمريكي" يعلم مدى تغلغل الأخطبوط الأمريكي والإسرائيلي في المجتمع المصري، حتى في المجال العلمي، حيث تبعية جامعات ومراكز بحث مصرية للمؤسسة الأكاديمية الأمريكية، واستخدام وكالة الاستخبارات الأمريكية والموساد الغطاء الأكاديمي في مجالات "التجسس العلمي" في إطار التوظيف السياسي للبحوث العلمية المشتركة لخدمة أهداف أمريكا والكيان الصهيوني.. فكيف بغيره من المجالات!

والتربص بمصر وأهلها والتدخل في شؤونها من قبل الدول الأجنبية القوية وأصحاب النفوذ المنحرفين ظهر منذ الحملة الفرنسية عليها، ومنذ محاولات القضاء على الخلافة العثمانية، وكان التركيز في ذلك على القادة الكبار والمؤثرين وذوي النفوذ من أهل الإدارة والثقافة والدبلوماسية والجيش، وقد اجتمع على هذا التأثير: الاحتلال، والاستشراق، والتنصير، والبعثات، والامتيازات الأجنبية، والإعلام، بإعلاء شأن المدنية الغربية، والتركيز على تفريغ مصر من مصدر قوتها ووحدتها وتماسكها، وهو الإسلام، وإثارة الشبهات حوله لأجل ذلك، وفرض القوانين الوضعية في مصر فرضًا، في ظروف مختلفة.

وبدا ذلك من تصرفات محمد علي باشا (الكبير) أولاً، الذي يعتبره كثير من مؤرخي مصر رجل النهضة الأول في مصر، نظرًا لإحداثه أدوات جديدة في الحكم، ولتعاونه مع الأجانب في النواحي الثقافية والعلمية وغيرها. وكان منحرفًا فكريًا، غير صادق مع أهل مصر، وعندما

سمع بكتاب مكيافللي في السياسة "الأمير" (وفيه الغاية التي تبرر الوسيلة) طلب ترجمته ليستفيد منه في سلطانه، ولكنه لما قُرئ عليه طلب الكفَّ عن إتمامه، وقال: "إني أملك من الحيل ما لا يعلمه هذا المؤلف"! يعني أنه يملك من الحيل والمكائد والطرق الملتوية للوصول إلى أهدافه أكثر مما طرحه هذا الكاتب في كتابه، الذي انتشر واقتناه القادة وأصحاب النفوذ للاستفادة منه لبسط سيطرتهم على الناس.

ويعرف من هذا أنه يريد بذلك الابتعاد عن الإسلام أصلاً، القائمة أحكامه على الصدق والإخلاص والعدل، والبحث عن البديل الذي يناسب أهدافه وطرقه الملتوية للالتفاف على هذه الأحكام، وعلى الشعب الذي يدين بها، لأجل أن ينحرفوا هم أيضًا، وينشأوا على هذه الانحرافات بعد أن تتمكن منهم.

وتبعه على هذا أولاده حكام مصر من الخديويات والباشاوات والأمراء، فكانوا متعاونين مع بريطانيا المحتلة، لأجل تثبيت حكمهم، ولو أدَّى ذلك إلى التخلي عن الإسلام شيئًا فشيئًا.

ولما اقترب استقلال مصر عن المحتل الإنجليزي، كان قد فتك بعقول مفكرين بارزين منهم، وهيَّأها للحكم، وأهم صفة فيها التزامها الجانب العلماني وبعدها عن الإسلام، وقد ذكر حاكم مصر (كرومر) في تقاريره السنوية أثناءها أنه يعدُّ جيلاً جديدًا من الشباب المصري المتفرنج المعجب بالغرب ويقبل العمل مع بريطانيا. وكان أبرز الوطنيين الذين قدَّمهم الإنجليز للشعب هما لطفي السيد وسعد زغلول، اللذين مازالا حتى الآن يمجَّدان من قبل الحكومات المصرية المتعاقبة، وقد عيَّن كرومر سعد زغلول وزيرًا للمعارف لأنه كان منحرف الفكر متعاونًا مع الإنجليز، تمامًا كما عيَّن جمال عبدالناصر طه حسين وزيرًا للمعارف لأنه كان منحرف الفكر متعاونًا مع الغرب إلى أقصى درجة، حتى الكتابة من الشمال إلى اليمين!! وليستمرَّ الانحراف عن الإسلام عن طريق المدارس والمعاهد والجامعات والمراكز الثقافية، التي تحتضن أكبر وأهم العقول المؤثرة في المجتمع! ولم يتغيَّر الأمر في هذا حتى الآن!

وكما يقول الأستاذ أنو الجندي في كتابه "الشبهات والأخطاء الشائعة" ص ٢٤٦: "كان لطفي السيد وجماعة الجريدة وحزب الأمة غير صادقين في الدعوة إلى "مصر للمصريين"، فقد كانوا باعترافهم على ولاء مع النفوذ البريطاني في مصر، وكانوا حيث سماهم كرومر: (الذين التقوا بالإنجليز في منتصف الطريق)، وهم بدائل الاستعمار وخلفاؤه (لطفي السيد وسعد

زغلول وعبدالعزيز فهمي)، وغيرهم هم تلاميذ مدرسة كرومر التي قامت على أساس فلسفته التي رسمها في تقاريره السنوية".

ولما تسلم "سعد زغلول" رئاسة الوزراء، استبشر أهل مصر خيرًا، لأنه مصري.

ولكنه كان منحرفًا فكريًا، ومرتبطًا بفكر المحتل، وما كان أمر الإسلام يشغل مساحة من فكره، بل بدأ صديقًا للإنجليز وانتهى كذلك. وهو يفصح عن هذا في مذكراته بقوله إن كرومر كان يجلس معه الساعة والساعتين "كي أتنور منها في حياتي السياسية"! وقد رأس الوزارة ومصر تحت نير المحتل. وكان معجبًا بكرومر إلى أقصى درجات الإعجاب، حيث قال عنه في مذكراته للذين انتقدوه: "صفاته قد اتفق الكل على كمالها"!!

وعندما خرج كرومر من مصر ـــ بعد ربع قرن من الحكم الحقيقي فيها -لم يمدح سوى رجل واحد، هو سعد زغلول، الذي مازالت الحكومات المصرية المتعاقبة تعتبره أبرز الوطنيين المخلصين الغيورين فيها!!

ولم تفده صراحته في صداقة كرومر.. وأنه كان مقامرًا مدمنًا، حتى قال في مذكراته "... حتى خسرت فيه صحة وقوة ومالاً وثروة"!

ولما حارب الإخوان المسلمون القوانين الوضعية، وخاف الحكام والغرب من عودة الإسلام إليها، فتكوا بهم، وحلُّوا جمعيتهم، وصادروا صحفهم، وقتلوا زعيمهم.

وامتدَّت السياسة نفسها مع الإسلام والمسلمين في مصر على هذا المنوال، وإن تغيَّرت بعض الأساليب والنظريات في عهد عبدالناصر والسادات، فقد نادى الأول بالاشتراكية، وكرَّس الحياة الحزبية، والقومية والعنصرية، ودولة المخابرات، وفتك بالإخوان وجهودهم الرامية إلى عودة السيادة الإسلامية إلى أرض الكنانة، فتك بهم كما في العهد الملكي...

لقد انحرف القادة في مصر عن الإسلام كما خطَّط لهم المحتل ومن شايعهم... وبقوا مخلصين لخططهم..

ولما جاء طوفان الثورة على حكومة حسني مبارك، بل على الحكومات السابقة كلها، نجح الإسلاميون في الانتخابات وفازوا بالحكم... فكان ذلك حسرة في قلوب العلمانيين والليبراليين، وغصة في حلوقهم، وعرفوا أن لا مجال لهم في الحكم بالانتخابات والكلمة النزيهة والعمل الشريف.. فلجأوا إلى القوة العسكرية، التي تجذَّر الانحراف الفكري في قادتها كما في

القادة المدنيين.. فعزلوهم بالقوة..

ويا ويح مصر من هذا..

ويا ويحها إذا أصرَّت على الانحراف عن الإسلام..

فإنه لا عزَّة لها إلا به..

وستبقى في دائرة الاحتلال والتخلف مادامت مصرَّة على سيادة المنحرفين على أرضها وشعبها.

والعزَّة لله ولرسوله وللمؤمنين.

(٣)
نحو قيادة صادقة مسؤولة

إن ما يجري في العالم من أحداث كبيرة، وما تنفذه حكومات من سياسات طاغية ضد شعوب وجماعات، ثم ما تتخذه الدول بالمقابل من مواقف متباينة أو متلونة، يصبُّ معظمها في ميزان مصالحها، يعُرف من هذا أن العالم ليس بخير، وأن الحكام والقادة لا يحرِّكهم محرِّك الحق، ولا ينطلقون من منطلق العدل، بل ينظرون من طرف ما يجلب لدولهم المال والمصلحة والقوة، والمزيد من الرفاهية والبذخ، وإن سقطت شعوب مجاورة لهم في أوحال الفقر والجهل والمرض، بل قد يكونون هم السبب في ذلك.

فالانحراف ظاهر في الاتجاهات والمواقف السياسية للدول، والإعلام الدولي صار مضللاً، اختلط فيه الكذب بالصدق، بل لا تُعلَن حقيقة الأمور للشعوب في غالب الاجتماعات التي تُعقد بين القادة، وتصريحات المسؤولين الكبار كانت سابقًا بميزان، وهي الآن تتعثر كثيرًا، بل قد تتغير بين يوم وآخر بدون خوف أو حياء، ولتُنظر المواقف الضعيفة أو قليلة الجدوى من الحكومة السورية التي نفذت عشرات المجازر ضدَّ شعبها، ونزحت الملايين، ومواقف أخرى مترنحة بين مؤيدة، وأخرى متلونة أو غير مبالية، من الانقلاب الحاصل في مصر ضدَّ رئيس منتخب من الشعب، وما يُمارس من كذب ودجل، وتزوير وإفك وتخبط في وسائل إعلام مصرية رسمية وأخرى عربية مساندة لها..

ولا تُنكر مواقف إنسانية لدول أوربية وأمريكية تجاه شعوب مستضعفة أو مقهورة، فإنها تحسب حساب شعوبها من خلال مواقفها من حقوق الإنسان، ولكنها صارت في هذا الوقت تغلِّب مصالحها بكل صراحة، ولا تنظر إلى حقوق الإنسان إلا بمقدار قربها من مصالحها، وما يجلب لها من مال أو مكان في المنطقة.

وهي قد تتخذ مواقف مناسبة ظاهرًا خشية الثورة عليها من الداخل، أو خشية على أمنها من الخارج، وتنفذ مآربها خفية، فهي خادعة كاذبة في تصريحاتها.

لقد انتشر الكذب والتضليل والتزييف والتحليل السيء والتعليق المنحرف المضلل للأحداث في وسائل الإعلام وتصريحات المسؤولين بشكل رهيب أكثر من كل ما مضى، خلا الحروب

العالمية... من مثل تصريحات لقائد الانقلاب في مصر كذَّبه فيها رئيس الوزراء السابق هشام قنديل، والمفكر الأستاذ محمد سليم العوا، وآخرها قوله: نحن نحمي الإسلام، بينما يُلاحق كل ذي لحية في مصر!

إنها سياسة كتاب "الأمير" التي تبرر الوسيلة بأي فعل كان، ولو كان مخالفًا للحق والعدل، وللأعراف ولحقوق الشعوب...

وكل هذا يبرز حاجة العالم، إلى قيادة راشدة، تأخذ أحكامها من دين الله الحق، ومن كتابه الذي لا ينطق عن الهوى، تلتزم الاستقامة في حكمها على الأشياء، والاعتدال في سياستها الخارجية، وتلتزم الصدق في تصريحاتها، وتناصر الشعوب المظلومة والمقهورة والضعيفة في حقوقها وتطلعاتها، وتعلن مواقفها العادلة من كل قضية تجري في الساحة، ليتفاعل الناس مع الحقائق بغضِّ النظر عن المصالح، وليعرفوا الحق والعدل من التزييف والظلم، وليظهر أهل الباطل على السطح كما يقال، وتنكشف أحابيلهم وأهدافهم في حينها، لا بعد سنوات وقد بردت القضية وانتهى أثرها. {لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ} [سورة الأنفال: ٤٢].

ومازال الخير في أمة محمد صلى الله عليه وسلم، وفئات منها تطلب الهدى ونصرة الحق والحكم بالعدل، في دعوتها وجهادها المستمر، وإذا خبت في ظروف فإنها تنطلق وتتجدد بين الفينة والأخرى، حتى ينتصر الحق، وتتحقق القيادة الراشدة بإذن الله؛ لتكون أنموذجًا في تحري الحق والاستقامة.. وتكون صادقة في تصريحاتها ومواقفها، ومسؤولة عنها أمام الله أولاً، ثم الشعوب عامة، وتبدِّد قتامة الظلم الواقع في العالم، والطغيان والكذب الذي انتشر فيه وطغى عليه.

(٤)
كلمات في الثورة

إنها باختصار ثورة على: الظلم، والعنصرية، والفقر، والبطالة، والتخلف، والذل..

هكذا رأى المواطن السوري نفسه منذ نحو أربعين عاماً، حينما قام وزير الدفاع (حافظ الأسد، وهو من الطائفة العلوية) بانقلاب عسكري، وسماه (الحركة التصحيحية) بزعم أن رجال حزب البعث قد انحرفوا، وأنه جاء ليصحح المسار! وكانوا منحرفين حقاً، ولكنه جاء فانحرف أكثر، فقد كان الحزب وحده مسلطاً على رقاب الشعب، فجاء هو وجعل السلطة ومقاليد الحكم بيد طائفته ذات النسبة القليلة في سوريا، وبيد المخابرات، وبيد البعث، وجعل الاقتصاد، والسياسة، والإعلام كله على هذا النحو العنصري. وقد عرف الإخوان المسلمون هذا التوجه من الحكومة الجديدة منذ بدايتها، فلم يقبلوا، وعارضوا جهاراً، وبقوة، فنكل بهم وبقادتهم والدعاة المخلصين، فقتل عشرات الألوف أو مئاتها منهم، معظمهم من مدينة أبي الفداء حماة، إضافة إلى سجن الآلاف أو عشرات الألوف كذلك، وتسليط العذاب عليهم، وتشريد عشرات الألوف الآخرين الذين انتشروا في أطراف الأرض، ومن بقي منهم كان مراقباً، ومشلولاً لا يستطيع حراكاً. ولم يساعدهم أحد من (حركات المعارضة)، الذين كانوا قلة أصلاً، ماعدا الأكراد، أصحاب توجه خاص في المعارضة. وبعدها تحكم في السلطة أكثر، وزاد من "درجة" قانون الطوارئ، ولم يرفعه طوال مدة حكمه، ليبقى كل شيء بيد الطائفة والمخابرات. وصار أهل سورية في أسوأ حال، وانتشر الفساد في كل أجهزة الدولة وبدون استثناء، حتى في الجيش، وأثري أصحاب السلطة وأتخموا، وصاروا أصحاب الملايين والمليارات، يأكلون مؤونة المساكين، ويشربون عصائرهم، ويسرقون مواردهم، ويستأثرون حتى بعلف حيواناتهم! ومع كل هذا يظلمونهم، ولا ييسرون معاملاتهم في الدوائر الحكومية إلا إذا دفعوا الرشاوي، ومعظمهم لا يجد عملاً إلا أدناه، في شقاء وكد وتعب، وإذا وجده أنفق قسمًا منه في الرشاوي، ومنهم من لا يجد مالاً ليرحل إلى دول أخرى فيعمل.

أما الأكراد فشأنهم أصعب وأعقد، فالآلاف منهم محرومون من حقوقهم المدنية حرماناً تاماً، حيث لا هوية لهم، فلا يسمح لهم بالعمل في دوائر حكومية، ولا يعطون أرضاً يعيشون منها،

ولا يقدرون على الخروج من البلد لأنهم لا يعطون جواز سفر،.. وليتفكر المرء بحال آلاف العائلات المسكينة المكتوية بنار البعث والسلطة على هذا المنوال.

ومع كل هذا الظلم فإن الشعب كان يتعرَّض لأقسى أنواع الظلم السياسي والحرمان حتى في الحقوق الشخصية، فلا حرية لأي مواطن، إلا في إطار السلطة والبعث، والمخابرات تتدخل حتى في مسائل الزواج والطلاق!! والويل لمن يعارض أو لا يسمع، فالسجون مهيأة لكل حرٍّ أبيّ يجهر بالحق، والظلم والعنصرية تباع في كل دائرة (مجاناً)، ولا سلام على الشعب! ولا قيمة له ولا اعتبار.. والانتخابات كلها مزيفة مائة بالمائة، ومجلس الشعب هو مجلس السلطة والبعث والمخابرات، فالعناصر منتقاة...

وورث الابن من أبيه الحكم، وسلك خطاه في هذا كله، وزاد الطين بلة بأن فتح يد إيران والشيعة على أهل البلد من السنة، فصارت الكلمة لهم، والقوة بيدهم..

وما كان الشعب قادراً على إسماع نبضات قلبه الضعيفة ورفعها إلى مستوى الهتاف والثورة، فبقي كاتماً أنفاسه، غائظاً حانقاً، كله حقد ورفض وكراهية وحنق على هذا الوضع المأساوي الذي لا يطاق.

ولما انطلقت ثورات عربية ضد الأنظمة الدكتاتورية والعنصرية والفساد، في تونس ومصر وليبيا واليمن، كانت الأرضية جاهزة لتشتعل في سوريا الأبية، فنقاط النزف متوافرة، والوقود منسكب على أرضها.. فقط احتاجوا إلى عود ثقاب من شجاع أبي، لينقل وهج الاشتعال من منطقة إلى أخرى.

فكانت البداية من حوران الحرة، بلد الإمام النووي، الذي أرغمه الظاهر بيبرس على مغادرة دمشق عندما لم يوافقه في مظلمة لأهل دمشق، وأبى أن يعود إليها بطلب منه ما دام فيها، حتى يموت.. ومات بعد مدة قليلة.. فعاد!

وهكذا كان الشعب، الذي أبى أن يضيّع ثورته، وهو يعلم أنه يستحيل أن يستقيم الظلُّ والعودُ أعوج، وهؤلاء لحاكمون طغاة متجبرون ظالمون وعتاة مستكبرون، لا يمكن لهم أن يقودوا مبادئ العدالة، ويعيدوا للمواطن عزته وهم الذين أذلوه، وأذاقوه مرَّ العيش، وظلمات السجون، والقهر والتعذيب، والذل وسوء السمعة بين الأمم.

ورفعت الحكومة قانون الطوارئ، وسمحوا في قانون جديد بالمظاهرات السلمية، وبعودة المغتربين، ولكن بدا من ممارساتهم العملية مع الشعب كذبهم عليه، فقد قتلوا المئات من المتظاهرين العزَّل في مظاهراتهم السلمية، وفتحوا السجون بأبوابها العريضة ليرموا فيها الأحرار الأبطال من الشباب خاصة الذين ثاروا على: الظلم، والعنصرية، والفقر، والبطالة، والتخلف، والذل.

وتنفَّس الشعب الصعداء، وصار يردِّد هتافات الحرية ويسمعها العالم كله، وشعر معه مئات الألوف بل ملايينهم المغتربين بالعزِّ والفخار، وأنهم جميعاً مثل غيرهم يحبون العيش الكريم، والعدالة، والحق، والرفعة، والتقدم، والحضارة، وأنه لا علاقة لهم بمبادئ وتصرفات من تسلط عليهم.

إنها الثورة حتى النصر إن شاء الله.

والعزة لله.

والله أكبر.

(كتب في أوائل انطلاق الثورة السورية ١٤٣٢ هـ، ٢٠١١ م)

(٥)

أشجان الثورة

هناك أشياء لا توصف حقاً، أو أنه لا قدرة للإنسان على وصفها، إما لعظمها وكونها فوق طاقته، أو لفظاعتها وإطباقها على النفس، فلا يملك من أثرها القدرة على التعبير، أو لعدم إحاطته بها جميعاً، فهو كلما وصف أمرًا وجد أنه ما زالت هناك أشياء لم يعرفها.

وهذا الأنواع الثلاثة اشتركت في أحوال إخواننا بسورية ضد الظلم والطائفية والحزبية، فقاموا بثورة شعبية عارمة ضد حكومة ظالمة وعنصرية حاقدة، لا تعرف شيئاً اسمه الرحمة، ولا وشيجة عالمية اسمها الإنسانية، ولا عرفاً عشائرياً، ولا ديناً، ولا خُلقاً، ولا أدباً، بل فاقوا كل وصف في الظلم والقتل والفتك والتعذيب والتنكيل، وأنواع الفتن والاعتقال والعذاب، كانوا هم أصحاب الشرف في اختراع فنون لها وتطبيقها على البشر. ولشدَّة وحشيتهم لم يستطيعوا إخفاءها، بل طغت وحشيتهم على سطح الأرض، وأبرزوا في وسائلهم الخاصة كيفية تعذيب وإهانة الشعب!! وطغوا وتجبروا وعاثوا فساداً أكثر، متحدِّين الدول العربية والإسلامية والعالمية كلها بارتكابهم أفظع الجرائم الإنسانية!

إنه شيء لا يوصف! إنهم يتصرفون بلا حياء، ولا دين، ولا إنسانية، بل ولا مشاعر حيوانية! من أين جاء هؤلاء؟! وأين تربَّوا؟! وأية قلوب هي التي يحملونها في صدورهم؟! وكيف هي أحوالهم مع أسرهم، ومع جيرانهم، ومع بعضهم البعض، بل ومع الشعب! فإنهم لم يولدوا من جديد، بل عاش معظمهم في أرض سورية! وكانوا يتعاملون مع الناس!

إنها باختصار (تربية خاصة)! تربية نشأتها وتركيزها على الحقد والكراهية والعداوة الشديدة، وحبِّ الجريمة والتلذذ بسفك الدماء، وعلى القتل والفتك والتعذيب بمن يعادي النظام، أو يتكلم على الرئيس وأعوانه، أو يرفع رأسه (فوق المسموح به).

وطريقتهم مع الشعب هي الإذلال والعبودية بكل ما تحمل من معنى! إذلالهم في كل مناحي الحياة، فأينما اتجهوا وجدوا أمامهم شخصاً أو أشخاصاً كخُشب مسنَّدة، يمنعون أي إنسان من رفع راية اسمها (كرامة الإنسان)، وإذا أبوا وتكلموا فأمامهم السجون، أعني المسالخ، التي تسلخ الإنسان من كرامته أولاً، وتحيله إلى كتلة من المشاعر المحبطة المكبوتة، المقهورة الذليلة،

حتى يقول إنه لا شيء ألبتة في الحياة. ويتمنى لو كان حيواناً حراً أو مقيداً، بل وجمادًا يُرمَى ويُوطأ عليه بالأقدام، وليس إنساناً يعيش في هذا البلد!

وهذه التصرفات لم تكن جديدة على الحكومة، بل هي متأصلة فيها، ولكن لم يعرفها سوى الأحرار الذين قُتنوا أو قضَوا في غياهب السجون، وأمضوا فيها على مدى أربعين سنة من حكم الأب والابن أقسى وأفظع ما عرفه الإنسان في تاريخه بالسجون! وذهبت قصصهم المؤلمة، وحكاياتهم الممضَّة معهم، ومن نجا منهم ما كانوا يستطيعون البوح بها، وإلا فإن السجون مفتوحة ولم تغلق في يوم من الأيام، ومن تكلم فخارج البلد، وتضيع آهاته ونداءاته بين أكوام الإعلام المنظَّم، وكانت حكومات عربية وإسلامية تعرف ذلك، ولكن ما كان يهمها أمر الإسلام والمسلمين؛ لأن معظم المسجونين والمعذَّبين والملاحقين والمقتولين كانوا من جماعة الإخوان المسلمين، الذين أبوا السكوت على الظلم.

وقد انتقلت صورة الحكومة البغيضة من السجون إلى الشوارع والساحات في الثورة، لأن الأحرار كثروا، والثورة امتدت، وواكبتها كذلك جرائم بشعة ارتكبت ضدهم.

وكان من أوائل ما ظهر من ذلك قتلُ المشيِّعين للموتى، المصاحبين لمراسم الدفن، فقد قُتل المئات منهم، بدون أي ذنب منهم. وماذا عسى أن يفعل ماشٍ في جنازة يتجه نحو القبور؟!

وتفنَّنوا أكثر، فجعلوا الجرحى أو جثمان الموتى في الشوارع مصيدة لمن ينتشلهم منها أو ينقذهم، فتناقلت أخبارهم الأمم استبشاعًا لفعلتهم المنكرة، وصنعتهم المزرية.

ولكنهم زادوا، فنشروا صورهم وهم يذلُّون الأسرى والمسجونين في صور كثيرة لا تشرِّف أحداً من بني البشر، إلا الحكومة البغيضة وأتباعها.

كما عُرفوا من بين الأمم والشعوب بقتل الأطفال عمداً؛ لترهيبهم، ولتخويف آبائهم وأمهاتهم؛ ولإرسال رسالة إلى الشعب الأبيّ أنه لا يعرف رحمة مع أحد، لا كبار ولا صغار. فهذه ميزة أخرى لهم يتباهون بها أمام القوميات والشعوب ليُعرفوا جيداً، وليُذكروا بهذه الصفة على مدى التاريخ!!

وكانوا قد سبقوا هذه الفعلة بقتل النساء في عدة مظاهرات حتى انتهين.

ثم اغتصابهن، فزنوا بفتيات الإسلام، المؤمنات المحصنات الغافلات، بصور بشعة وقذرة ومتكررة تفوق وصف حالات الوحوش، بل حاشاها، فإن حياتها الجنسية منظَّمة!

ثم حرق البيوت والمزارع التي تخص المواطنين، وهدمها، بمرأى من جميع العالم...
هذا عدا المجازر والإعدامات الجماعية و...
ألم أقل إن هناك أشياء لا توصف... لعظمها... ولاستبشاعها... ولعدم الإحاطة بها جميعاً... ولعدم القدرة على المضي في وصفها؟!

وأذكر أنه سردَ أحدُ الإخوة حالات التعذيب التي تعرَّض لها، وحالات أخرى تعرَّض لها إخوانه في سجون الأسد الأب، حتى كدت أن أسقط على الأرض، أو أن أخرج من المجلس، أو أن أضع يدي على فمه... وطلبتُ منه ألاّ يسرد مثل هذه الوقائع على الشباب خاصة، فإنهم لن ينتموا إلى عمل إسلامي بعده أبدًا؛ خوفًا من أن يصيبهم ما أصابهم... كان شيئًا رهيبًا فوق تحمل المخلوق البشري أو الحيواني.. كنتُ أتلمَّس مواضع من جسدي بدون شعور مني وأنا أتذكر صنوف الأذى التي تعرَّض لها إخواني.. أعصرها.. وأضغط عليها.. بدل أسياخ الحديد الملتهبة.. المحمَّرة، وبدل أسلاك الكهرباء الغليظة وفيها التيار الكهربائي القوي...في العين.. وفي الفم.. وفي الثديين...وما دنا...

وقد لاحظ المشاهد في لقطات عديدة كيف يُذلُّ المواطنون بالدهس على رقابهم.. وكلُّ أنواع التعذيب والتنكيل تتلخص في إخضاع الشعب وإجباره على الإذلال وقسره على التركيع للرئيس وحاشيته وللحكومة التي صنعها. وحتى في الحياة المدنية، بتجويع الشعب، وربط مصالحه بالمخابرات وما إلى ذلك. وللناس أن يسألوا أرقى المحاضن العلمية، طلاب المدارس والجامعات والدراسات العليا، في تعامل المسؤولين والمدرسين الطائفيين والحزبيين معهم، ليسمعوا أغرب الأخبار والحوادث والحكايات المؤلمة والذكريات المخزية معهم... وكلها تتلخص في إذلالهم وتبكيتهم، وهم طلبة، معظمهم فقراء، يريدون النجاح والشهادة، فإذا لم يذلُّوا أنفسهم أبقوهم في صفوفهم وألصقوا بهم التهم ونكلوا بهم... فكيف بالدوائر الأخرى؟!

ولا شكَّ أن كل هذا القتل والحرق والتدمير ممنهج، ليبقى الشعب في فقر وانتكاسة طويلة ولو نجح في إقصاء الحكومة، حتى لا ينهض إلا بعد مدة طويلة. إنها سياسة اليهود.. والأرض المحروقة!
وهل هناك مسلم يؤيد كل هذا القتل والتعذيب للشعب المسلم؟

إنه لا يكون إلا ممن أضله الله على علم، وإلا من الشيعة الذين يبررون كل ما يفعله الرئيس بالشعب المسلم، لأنه ينتمي إلى فرقة منهم، ولو كانت أفظع وأقسى الجرائم التي ترتكب بحق البشر، وعلى رأسهم حزبٌ... أين هو من الله؟ وأين هم من الإسلام؟!

(٦)
ليلة سوداء في تاريخ جزيرتنا السورية

في بقعة مباركة من أرض عالمنا الإسلامي، في جزيرتنا السورية الحبيبة، التي كانت في يوم من الأيام ثغرًا من ثغور الإسلام، وحدًّا بيننا وبين الروم، وفتحت في عهد الصحابة الكرام رضي الله عنهم، نعمت هذه الجزيرة العريقة بنظام إسلامي أربعة عشر قرنًا، حتى جاء العدو الفرنسي المحتل، فغيَّر ما غيَّر منه، وفرض قوانين أخرى، لكن جانبًا من شريعة الإسلام لم يمسّ، هو جانب الأحوال الشخصية، مما يخص فقه الأسرة المسلمة، حتى عندما حكم البعث لم يتغيَّر منه شيء.

وفي ليل أسود بهيم، والبلد يعيش حربًا أهلية طائفية دينية، امتطى قيادي كردي حصانًا أسود (مسؤول حزب الاتحاد الديمقراطي الكردي، الذي هو نسخة من حزب العمال الكردي في تركيا، الذي نشأ وقويَ ودُرِّب تحت إشراف النظام السوري، صديق عبدالله أوجلان)، ورفع سيف الجلاد على شعب هذه الجزيرة العريقة، وأرهبهم، بالتعاون مع رأس النظام الطائفي البعثي.. ولم تمرَّ سنتان حتى كشَّر عن أنيابه الخبيثة، وحكم برفع ما بقي من حصانة إسلامية على فقه الأسرة، فمنع الزواج بأكثر من واحدة كما أباحه الإسلام، مع السماح طبعًا بالزنا والبغاء والفاحشة والخنا، بعشرة وخمسين ومئة من النساء، أما الاقتران باثنتين أو ثلاث أو أربع منهن بالزواج العفيف فممنوع، ويجرَّم صاحبه إذا التُبس بهذه الجريمة!

والمعروف عن الكرد أنهم أهل شرف وغيرة على نسائهم، لا كما يفرض عليهم هذا الحزب وأمثاله من أدعياء التقدمية والثقافة المنحرفة والاشتراكية المريضة.

كما ألغى نظام الإرث الذي يفرّق بين نصيب المرأة والرجل فيه، وقد أكد العلماء أن المرأة في النظام الإسلامي تحوز أكثر من نصيب الرجل باعتبار وضعها الأسري، فهي لا تنفق على أحد، والرجل ينفق عليها وعلى أولادها، أبًا كان، أو زوجًا، أو أخًا، أو ابنًا.

ولو جاء نصيبها من تركةٍ ألفًا، وحاز أخوها الشقيق ألفين منها، فإنها غالبًا ما تشتري به الحلي، أو تحتفظ بالمبلغ بشكل ما، أو تنمّيه، أو تهبه لمن تشاء من أهلها، أو تنفقه في

النذر والمبرّات.. بينما الرجل ولو أخذ ضعفها، فإنه لا يلبث أن يُنفقه في أيام قليلة، لكثرة ما يُطلب منه، ولمسؤولياته المتعددة.

فحاجة المرأة إلى المال أقل من حاجة الرجل بكثير.

وقد أكرم الإسلام المرأة بالتفرغ لمهمة حساسة ونبيلة، هي شرف تربية الأولاد، وعملها هذا أصعب من عمل كثير من الرجال، بل إن الرجال لا يطيقون ما تقوم به، وهي لا تكاد تنعم بالراحة في ليلها ونهارها، وتعمل أكثر من (١٤) ساعة في اليوم... فهل من إكرامها زيادة عملها خارج المنزل أيضًا؟

وهل من العدالة زيادة نصيبها من الميراث وهي تنعم بالأمان والإنفاق عليها أينما كانت، وكيفما كان وضعها؟ وقد جُعل لها هذا القدر من النصيب لتتفرغ لوظيفتها الأساسية، التي خلقها الله من أجلها.

إنه ميزان الإسلام، الدينُ العدل.

لقد صنع هذا القيادي الكردي بالجزيرة ما صنعه بورقيبة بتونس.. وهو الدكتاتور الذي فرض نفسه على شعبه، مثل غيره من (الزعماء) العرب، وادَّعى أنه سحب من الشعب تأييدهم بأن يكون رئيسًا عليهم طوال عمره الممسوخ!

وجاء هذا القيادي الكردي ليفرض نفسه أيضًا على الأكراد والعرب هناك بالقوة، بالتعاون مع جلاّد سورية، وأمر المحاكم بأن تنفذ قوانينه في رفض نظام الأسرة الإسلامي.

فهل استشار الشعب هناك على ذلك؟

وهل رضي الشعب المسلم هناك (العربي والكردي) بالنظام الكافر الجديد؟

إن مثل هذا القيادي لا يعرف شيئًا اسمه الشورى والتعاون والديمقراطية، فهو لم يأتِ بإذن من الأكراد أو العرب، وإنما فُرضَ عليهم بعناصر من حزب العمال الكردي والنظام العنصري الحاكم، فهو لا يعرف سوى الأمر بالقوة والرصاص.

إنه مثل هواري بومدين، الذي قال: إنني أطبق الاشتراكية على شعبي وأنا أعلم أنه لا يريدها ولا يرضى بها!

فمن تحكم إذًا أيها الرئيس؟

فأنت لستَ من هذا الشعب إذًا، وليس هو الذي انتخبك ورضي بك، وإنما فُرضتَ عليهم، كما فُرض هذا الكردي على شعب الجزيرة السورية (محافظة القامشلي وما حولها).

وانظر ماذا كانت نتيجة تصرفات بومدين في الجزائر المسلمة، الذي فرض على الشعب ما لا يرضى به. تذكَّروا الحرب الأهلية التي امتدت عشر سنوات، وحصدت عشرات الألوف من العلمانيين والإسلاميين.

وستكون هي نتيجة غيره إذا فعل مثله.

وها هو ذا يحدث ما يحدث، من انتفاضات وثورات وبراكين بشرية، فلم يعد الشعب يطيق السكوت على الظلم والدكتاتوريات.

وهذا القيادي الكردي يريد أن يفعل بالشعب الكردي ويعيد ما فعله قياديون عرب بشعوبهم.

إنها مسرحية مضحكة، ولكنها مؤلمة، فهي تدلُّ على عقل متخلف متعصب ودكتاتورية عمياء لا يُجنى من ورائها سوى المزيد من الجهل والمرض والتخلف والدماء والفتنة.

إنه يوم أسود مدلهم، هذا الذي غُيِّرت فيه القوانين بالقوة، وبدون رضا الشعب، من رجل عُرف بأنه ملحد، لا يؤمن بالقرآن، ولا بأي دين من الأديان، وفرض أفكاره وأفكار حزبه البغيض على شعب مسلم، أمضى تاريخه في خدمة الإسلام والديانة له.

إنها جزيرة فتحها المسلمون بدمائهم، فهي غالية عليهم، وهذا القيادي الأرعن يريد أن يقطع صلتها بالإسلام..

فمن يقف في وجهه وحزبه؟

ومن يوقفه في حدِّه قبل أن يستفحل شرّه أكثر، وقبل أن ينشر الفساد في بلاد الإسلام، وسيفعل بعين العرب كما فعل بالجزيرة إذا سنح له ذلك، بدعوى أنها بلاد الكرد. والكرد مسلمون أصحاب دين وشرف وعِرض وعفاف، ولا يتخلون عن آداب دينهم.

فمن يُعيد للمسلمين دينهم وآدابهم وكرامتهم الجريحة؟

إن القوانين إذا طُبِّقت فليس من السهل تغييرها.

والخشية من أن تستمر هذه القوانين الكافرة، وخاصة إذا حاز الأكراد على حكم ذاتي في جزيرتنا الحبيبة، وامتدَّ فيها حكم دموي كهذا..

والله المنتقم.

ولن يسكت المسلمون على هذا وأمثاله، ولو بعد حين.

(٧)
الطفل الغريق.. وهموم الثورة

تبيَّن أن الطفل الغريق الذي رمته أمواج البحر إلى شاطئ معزولٍ هو من اللاجئين السوريين الأكراد، غرق مع شقيقه وأمِّهما، التي بدت محجَّبة في صورة لها معه قبل نحو عام من الغرق.
وهجرة الأكراد من سورية هي نتيجة ظلم حزب العمال الكردي السوري لهم، ومن فساده وطغيانه ووحشيته بهم، وخاصة إذا كانوا أهل دين، فهو نسخة مطابقة من حكم حزب البعث العربي الاشتراكي وأسلوب طاغية سورية، وما هو سوى صناعة استخباراتية علوية.
والأكراد هم أول الهاربين من جحيم حكّام سورية، فهجرتهم إلى أوربا لم تنقطع منذ أن حكم البعث، وحتى حكم الحزب الكردي المشؤوم في الجزيرة السورية، وكانت هجرتهم ستكون مضاعفة، ولكن كثيرًا منهم ما كانوا يملكون الهوية السورية، ويطلقون على هؤلاء مصطلح (أجانب)، وبذلك كان الآلاف منهم لا يُمنَحون جوازات السفر ليسافروا إلى خارج سورية.
والحزب الكردي المذكور لا يرحم كرديًّا ولا غيره، في هذه الظروف وغيرها، ومعاملته للأكراد يعرفها الذين فرُّوا منه ومن زبانيته، وهاجروا من سورية إلى بلاد الغربة.
والأكراد إذا لم يتخلَّصوا من هذا الحزب اليوم، فسيفعل بهم مثلما فعل طاغية سورية بالعرب وغيرهم.
وليتذكَّر السوريون كيف قام الإخوان المسلمون وحدهم ضدَّ والد هذا الطاغية في أوائل حكمه؛ لأنهم كانوا يدركون خطره وخطر طائفته على البلاد وأهلها، وعلى دين الإسلام أيضًا، ولكن لم يساندهم أحد من الطوائف والأحزاب والجماعات السورية الأخرى، بل كانوا مؤيدين للحكومة وتصرفاتها، ولينظروا ماذا حلَّ بهم نتيجة هذا الموقف، وليعتبر الأكراد من ذلك أيضًا، حتى لا يحلَّ بهم مستقبلاً ما حلَّ بأهل سورية، إذا لم يزيحوا الحزب المذكور من دربهم.
ولم يغيِّر الإخوان موقفهم، ولا هم ذلُّوا للحكومة، على الرغم من بطشها بهم وبمن أيَّدهم من أهل الدِّين، فقُتِّلوا وشُرِّدوا وعُذِّبوا، ومأساة حماة غدت عالمية وليست وطنية فحسب، ومع ذلك لم تستنكرها الأحزاب السورية، وخاصة التي تسمِّي نفسها (تقدمية)، وتسمي الإخوان

وكل المجاهدين الذين يدافعون عن سورية الآن ضدَّ الطاغية (رجعيين)! وهذه الأحزاب هي مصيبة سورية على رأس أهلها.

(٨)
لن يستمر الطغيان

لا ثورة بدون ألم، أو جراح، أو دماء.

وهي تتفاوت بين شعب، ووطن، وزمن.

وآلمها وأشدها فتكًا اليوم الثورة على طاغية الشام، الذي لم يدَع حظرًا من محظورات الحروب إلا وارتكبها، غير عابئ بدين وخُلق وعُرف وإنسانية، ووصلت ضحاياه إلى أكثر من مائة ألف والثورة في عامها الثالث، معظمهم من فئة الشباب، الذين تُبنى الأوطان على سواعدهم، وبحماسهم ونشاطهم، عدا مئات الألوف من الجرحى والمعتقلين والمفقودين، وملايين النازحين.

وما كان قادرًا على الصمود في وجه صولة الشعب وهدير أبطاله الميامين مهما أبلغ في القتل وأفحش في سفك الدماء، لولا أنه احتمى بقوة كبرى تنافس أكبر قوة في العالم، هي روسيا، ودولة أخرى قوية صاعدة، مذهبية عنصرية حاقدة، هي إيران.

والأولى آذت المسلمين كثيرًا على مدى تاريخ صعودها، في بطش قياصرتها، وجرائم بلاشفتها بقيادة لينين وستالين، الذين قتلوا ملايين المسلمين، عذَّبوهم وهجَّروهم ونفوهم واحتلوا أوطانهم، وامتدَّت جرائمهم إلى ما بعد ذلك، ولو خفَّت، وحقُّها أن تكون هناك منظمة دائمة للانتقام منها، لما فعلته وتفعله بالمسلمين في أفغانستان والشيشان وسائر القوميات المسلمة التي كتمت أنفاسها في بلاد روسيا، فلا تدَع لها صوتًا يُرفَع، ولا شأنًا يُسمَع، إضافة إلى ما تفعله بشعب سوريا اليوم.

والأخرى دولة دينية متطرفة، مبنية على مذهب باطل، تبغض المسلمين في كل أنحاء الأرض لأنهم لا يدينون بمذهبيتها، وصارت تنفث حقدها وكراهيتها عليهم من خلال صنيعة لهم ينتمي إلى فرقة منهم، هو حاكم سورية الذي ورث عن أبيه الخطط لبقاء الطائفة النصيرية (العلوية) في الحكم وهم لا يتجاوزون عُشر أهل السنة أو نصف عُشرها، فجنَّد كلَّ شيء في الدولة لأجل ذلك، وأخذ احتياطاته ليوم يثور عليه الشعب، فإنه لابدّ، فوجَّه كلَّ ما ادَّخره من قوة عسكرية للشعب من أهل السنة، وليس للعدو، وخاصة قوة الدفاع الجوية، التي

خصصها للقيادة العلوية، فقتل وذبَّح وشرَّد الملايين حتى ضاقت بهم الدول المجاورة ، ليس هروبًا من الحرب الداخلية وحدها، بل لأنه لم يعد بالإمكان الحصول مقومات المعيشة، حتى الدواء البسيط لم يعد بالإمكان العثور عليه، أو حتى إدخاله من الحدود إلا بصعوبة بالغة، حتى حبوب الإسبرين، بحجة أنها تصل إلى الجيش الحرّ!! وإنما الهدف إماتة الشعب وتحقيره وتذليله وتركيعه، حتى لا يعرف من الحياة سوى البحث عن قطعة خبز أو حبة دواء، ولئلا يفكر بدفاع أو مقاومة، ولا يمتلك ما يمكِّنه من ذلك.

ولن يطول الأمر إن شاء الله، فإن المسلمين صاروا يدركون الخطر الواقع عليهم أكثر فأكثر، من خلال ما يلمسون من آثار الطاغية وأعوانه يومًا بعد آخر، وهذا يبعثهم على الوحدة أكثر، والدفاع عن وطنهم وأعراضهم وأموالهم حتى إزالة الظلم والطغيان الواقع عليهم إن شاء الله، مهما نزفت الدماء، وافتُديت الأنفس، فإنهم إن لم يقدِّموا أنفسهم اليوم للدفاع، ذبَّح أبناءهم وذراريهم غدًا.

ولم يستمرَّ طاغية في الحكم حتى يستمرَّ هو، والشواهد كثيرة في التاريخ وفي الواقع، والمظلومون كثر، والدعاء على الطاغية مستمر.

(٩)
قيادات مجرمة

هذا التضخيمُ والتفخيمُ للقياديّ المقتولِ (بدر الدين)،

حربٌ نفسيةٌ يشاركُ فيها أهلُ السنةِ بإعلامهم ضدَّ أنفسِهم بقوة،

مما يرفعُ من شأنِ ما يسمَّى بحزبِ الله وقياداتهِ المجرمين،

الذين هُزموا على أيدي المجاهدين في سوريا فلجؤوا إلى الحصارِ والتجويعِ للأطفالِ والنساء،

وبين المجاهدين الأبطالِ قياداتٌ أعلى شأنًا وأكثرُ حنكةً وتخطيطًا واستراتيجيةً عسكرية،

بدليلِ صمودهم ووقوفهم أمامَ أكبرِ القوى العالميةِ وأسلحتها الفتاكةِ وجنرالاتها وعتاةِ حربها:

أمريكا وروسيا وإيران،

إضافةً إلى إجرامِ الحكومةِ السوريةِ العنصريةِ البغيضة،

وفلولِ ما يسمَّى بحزبِ الله اللبناني.

فالخزيُ والعارُ لهذا الحزبِ وقياداتهِ المجرمة،

والنصرُ والتمكينُ للمجاهدين وقياداتهِ العظيمةِ إن شاء الله.

(١٠)
الطغاة الجبناء

الجبانُ هو الذي ينتقمُ من الضعيفِ إذا لم يقدرْ على القويّ!

كحالِ طاغيةِ الشامِ وجنده،

وما يسمَّى بحزبِ الله الشيعي،

الذين لم يقدروا على مقاومةِ المجاهدين الأبطال،

فانتقموا من الضعفاء،

من الشيوخِ والأطفال،

ومن المرضَى والنساء،

ومن المدنيين العزَّل،

فجوَّعوهم ليموتوا بأنفسهم،

منعوا منهم الخبزَ والطعام،

فعاشوا على النباتاتِ والجيفِ شهورًا حتى قرحتْ أجسادهم،

وخارتْ قواهم،

وصاروا كهياكلَ عظميةٍ وأشباح،

تتحاشَى العينُ النظرَ إليهم،

ويتألَّمُ القلبُ ويتفطَّرَ إذا تفكَّرَ بأحوالهم...

هذه هي شجاعةُ الطغاة،

وهكذا سيكونون وأقسَى إذا حكموا أهلَ السنة،

كما فعلَ الطاغيتان بأهلِ سوريةَ على مدَى أربعين عامًا وأكثر،

وكما يفعلون بهم في إيرانَ والعراق،

فيخطفون ويرهبون ويعذِّبون في غياهبِ السجونِ وهم يضحكون!

ليَدخلوا في دينهم أو يَبقوا هكذا مقهورين!

وهذه هي المقاومةُ التي كان يقصدها حزبُ نصر الله المجرم،

هذه هي شجاعتهم التي لا يقدرُ على أن يُنكرها أحد،
كما ظهرتْ للعيان،
وبكلِّ وقاحةٍ وخذلان،
وهكذا سيعيدون القدسَ للمسلمين!!

(١١)
التحول الأمريكي إلى الشيعة

ظهر اتجاه أمريكا نحو الشيعة والتعاون معهم ضدَّ أهل السنة منذ احتلال العراق في عهد الرئيس الأمريكي جورج بوش الابن، وقد صرَّح بهذا التحول بول بريمر في مذكراته، وكان المندوب (السامي) الأمريكي للعراق، ومهندس نقل الحكم من السنة إلى الشيعة.

وكان الرئيس الروسي بوتين قد أقنع الإدارة الأمريكية والغرب أيضًا بالتعاون مع العنصر الشيعي، ولذلك كان تعاونه مع إيران قويًّا وناجحًا؛ لأنه لم ير من نهجها الديني خطرًا على مصالح روسيا وغيرها من الدول الأجنبية.

وقد اقتنعت أمريكا بهذا الموقف، وساندته بقوة، وكرَّسته في دبلوماسيتها، ورأت فيه مخرجًا من أزمات لم تنجح فيها. ولن تنجحَ في هذه أيضًا.

والتاريخ يشهد أن الشيعة أصدقاء مخلصون مع أعداء المسلمين، فابن العلقمي الشيعي (ت ٦٥٦ هـ) عندما ثبت منصبه وزيرًا للمستعصم بالله، مالأ هولاكو وأقنعه بغزو العراق لكي تسقط الخلافة الإسلامية. وكان قد ولي الوزارة (١٤) عامًا، فوثق به المستعصم وألقى إليه زمام أموره.

وتعاونُ الشيعة مع اليهود موثقٌ تاريخيًّا، بل إن أصل ومنشأ التشيع يهودي، فالذي أسس هذه الفرقة هو ابن السوداء (عبدالله بن سبأ) الذي قدَّس عليًّا وجعله في رتبة الإله، كما يقدِّس الشيعة أئمتهم (المعصومين) ويجعلون لهم صفات إلهية!

من ذلك قول الخميني في كتابه «الحكومة الإسلامية» ص٥٢: "إن للإمام مقامًا محمودًا ودرجة سامية وخلافة تكوينية تخضع لولايتها وسيطرتها جميع ذرّات هذا الكون. وإن من ضرورات مذهبنا أن لأئمتنا مقامًا لا يبلغه ملك مقرَّب ولا نبيٌّ مرسل"!

وقد تنقَّل ابن سبأ بين البلدان في عهد عثمان رضي الله عنه وهو ينشر بدعته، ونفاه عليّ رضي الله عنه إلى ساباط المدائن بعد أن عرف نحلته.

ووجود الخميني في فرنسا قبل إعلان ثورته الشيعية، واتصالاته باليهود وتنظيماتهم السرية يعرفها المؤرخون والباحثون، ولم تعد تخفى على أحد، ولذلك فإن الإعلام الفرنسي سانده وهوَّل من

شأنه ورفع رايته على راية الشاه عندما أعلن الثورة ضده عام ١٣٩٩ هـ (١٩٧٩م)، وفرنسا لم ولن تفعل مع تنظيم إسلامي سني مثله؛ لأنها تعرف منطلق الثورة الشيعية وأصل تركيبتها جيدًا.

وما يظهر من اختلاف بين أمريكا وإيران، وبين الكيان الصهيوني وما يسمى بحزب الله، هو اختلاف مصالح، وكما يحدث بين أولا العم من أسرة واحدة، فقد يصل الخلاف بين بعضهم أن يقتلوا أفرادًا منهم. ولكن الحقيقة تبقى أنهم أهل وأصحاب، يوالي بعضهم بعضًا.

ثم إن الذي دوَّخ أمريكا والغرب، وهدَّ أركانها، واستنزف قوتها، هو تنظيم القاعدة، الذي ينتمي كل عناصرها إلى أهل السنة، فلا شيعيَّ بينهم، بينما التنظيمات الدينية الشيعية لم تسبب مشكلة لها، فلم تجرحها، ولم تنفذ عملية ضدها، إلا ما كان منها ذرًّا للرماد في العيون.

كما تبيَّن لأمريكا والغرب أن التنظيمات والحركات والجمعيات الإسلامية ظهرت وكثرت وقويت في كل أنحاء العالم الإسلامي، ولم تعد قادرة على مجابهتها كلها، فرأت أن التعاون مع إيران وتقوية الأقليات الشيعية في مناطق أخرى يخفف عنها هذا العبء، وأن الشيعة إذا حكموا فهم الذين سيحاربون القاعدة والحركات الإسلامية الأخرى بدلاً منها.

أما علاقات أمريكا مع دول أهل السنة – ومعظمهم علمانيون يحاربون الدين — فهي علاقات دولية، تقوم على المصالح الاقتصادية والسياسية، وهم الأكثر والأقوى اقتصاديًا.

وما كانت هناك قوة حقيقية للشيعة حتى وقت قريب، فقد دحرت العراق قوات إيران وكبدتها خسائر كبيرة جدًا في الأرواح والمعدّات الحربية، حتى انسحبت من الحرب خاسرة، ولم تقوَ إيران إلا بعد أن احتلت أمريكا العراق، فتعاظمت قوتها منذ ذلك الحين، يعني منذ أن ساندت أمريكا العنصر الشيعي واعتمدته بدل السنة.

فالفرق في اختلاف علاقات أمريكا وغيرها هنا هو تعاونها مع الشيعة، القوة المصنعة الصاعدة بمساعدة أكبر قوتين على الأرض، هي أمريكا وروسيا، لضربِ أهل السنة والسيطرة عليهم، ولو كان الشيعة أقلية في دول.

فالعلاقة الدبلوماسية الأمريكية هنا تحولت إلى طائفية، وليس إلى مصالح اقتصادية أو سياسية أو حتى توازن إقليمي.

والهدف من هذه العلاقة الجديدة هو وأد أو إضعاف القوة الإسلامية المتعاظمة عند أهل السنة، كما كان وما يزال يقوم به طاغية سورية وعميل إيران الأول، من ضرب أقوى التنظيمات

الإسلامية في الشام، ثم تنظيماتها العسكرية الآن، بمساعدة ما يسمى (حزب الله) له، ودعم إيران الكامل له، وتغطية أمريكية وغربية وروسية خاصة، بأشكال الدعم الظاهرة والخفية.

وهذا الاتجاه في العلاقة في نظر أمريكا يخفف عنها العبء العسكري الطويل، حيث ترى في كل تنظيم إسلامي سني إرهابًا، سواء أكان مسالمًا أم مسلحًا، بينما لا ترى عمليًا في أقوى التنظيمات الشيعية المسلحة إرهابًا؛ لأنها في الواقع لا تهدف إلى ضرب أمريكا ومصالحها، ولا الكيان الصهيوني، بل تستهدف أهل السنة وحدهم.

وهذه العلاقات الجديدة رسالة إلى كل أهل السنة، الملتزمين بدينهم وغير الملتزمين، للاعتماد على أنفسهم، وتشكيل قوة ذاتية منهم، لمجابهة الحلف الأمريكي الشيعي ضدهم.

وكان الشيعة منذ سنوات قليلة مضت ينادون بالبراءة من المشركين، ويعيّنون أمريكا بالذات، ويسمونها (الشيطان الأكبر)، وحديثًا قالوا (قوى الاستكبار)، ويعيّرون أهل السنة بذلك، وأنهم بموالاتهم لهم صاروا مثلهم، وهاهم الآن صاروا في حضن الشيطان، بعد موالاتهم لهم، بالتعاون معهم ضد المسلمين، فهم منهم، بشهادة علمائهم.

(١٢)
حلب في القلب

الأهوال في حلب فوق ما نتصور!

الإبادة صارت كلمة عادية في ظلّ ما يفعل بأهلنا هناك.

إنهم الشيعة وكفى!

الشيعة الذين أنسَوا أفعال اليهود والصليبيين والشيوعيين في بلاد المسلمين.

اعرفوا الشيعة جيدًا بأفعالهم أيها المسلمون،

ولا تنخدعوا بالشعارات الزائفة بعد اليوم،

ونفاقِ أمم ودول كثيرة،

وادفنوا (العروبة) في أول حفرة تجدونها.

××× ××× ×××

لكم الله يا إخواننا وأحبابنا في حلب الصابرة،

قلوبنا عندكم،

وأيادينا مرفوعة إلى السماء،

وعيوننا بانتظار ما يأتي به ربنا من فرج،

اللهم فرّج الكرب،

وارحم الضعف،

وانتقم من وحوش البشر ومجرميهم،

اللهم لا طاقة لنا بهؤلاء الذين اجتمعوا علينا من كل صوب،

وتركنا أهلنا وأقرباؤنا فريسة لهم،

اللهم إنا مغلوبون فانتصر.

××× ××× ×××

حلب تنزف دمًا،

حلب جرحنا النازف اليوم،

حلب صبرت وجاهدت وثبتت،

وكانت شوكة عصية في حلق الأعداء،

ولكنهم كثروا واجتمعوا،

وتركَنا جيرانُنا،

لم يمدّوا إلينا أيديهم،

ولم يجتمعوا معنا بالقوة والسلاح كما اجتمع الأعداء من كل صوب،

فباتت حلب الصامدة فريسة للأعداء،

يدنّسون أرضها،

ويفتكون بأهلها،

يقتّلونهم ويشرّدونهم وينتهكون أعراضهم،

بوحشية لا مثيل لها.

اللهم لا راحم إلا أنت،

ولا ناصر إلا أنت،

وإنْ لم ترحمنا هلكنا.

نعوذ بك من غضبك.

نعوذ بك أن تتركنا لأعدائك أعداء الدين،

من الكذَبة والفاجرين والظالمين،

والأصدقاء المزيفين.

××× ××× ×××

حلب لن تموت.

حلب إن خسرت أرضًا فإنها لم تخسر نفوسًا اعتزَّت بدين الإسلام،

ووهبت نفسها لله،

ستذيق العدوَّ الأمرَّين في الخفاء،

وتعود فتجتمع لتنتصر بإذن الله.

والتاريخ خير شاهد،

فقد نكبت حلب نكبات قاتلة في تاريخها،

ولكنها عادت إلى الحياة قوية عزيزة.

الأمل في الله ناصر المؤمنين،

والعزيمة من عباده الأوفياء المتقين.

{وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ}.

(١٣)
قذائف حق

- أرضُ الشامِ أرضٌ مباركة،

تُنبتُ المجاهدين نباتًا،

مرَّ أكثرُ من أربعين عامًا استعملَ فيها الطاغيتانِ أقسَى أنواعِ التنكيلِ والقتلِ بالمسلمين،

ولم يتمكنا من القضاءِ على الدعوةِ والجهادِ فيها،

ولن تتمكنَ أيةُ دولةٍ خارجيةٍ من ذلك،

فالأرضُ أرضُ الإسلام،

والرجالُ رجالُ الإسلام،

والشبابُ متحمّسون،

والكبيرُ والصغيرُ يتمنَّى الشهادةَ في سبيلِ الله،

وكتابُ الله تعالَى قائمٌ بيننا،

نستمدُّ منه السدادَ في أمرنا،

ولا أحدَ يقدرُ على أن يُطفئ نورَ الله.

- كلُّ الجبهاتِ والتنظيماتِ التي تقاتلُ في سوريا ضدَّ الظلمِ والطغيانِ هي إسلامية،

أو تسعونَ منها بالمئة،

وهم الذين يُقتَلون ويُجرَحونَ ويُسجَنونَ ويُعذَّبون،

والعلمانيونَ والليبراليونَ للكلامِ والدسائسِ والمؤامراتِ والمناصب،

وهم وأساتذتهم الغربيونَ لا يريدونَ أن يكونَ للإسلاميينَ شيء،

ولا ظِلّ.

وهكذا كان الأمرُ عندما تمَّ تحريرُ البلادِ الإسلاميةِ من الأعداءِ المحتلّين.

الإسلاميون يدفعونَ أرواحَهم في كلّ مرة،

ثم يُستبَعَدونَ بقوى غربيةٍ أو وطنيةٍ عميلةٍ ومشبوهة،

ويدعونَ إلى الحوارِ والانتخاباتِ والاعترافِ بالأكثرية،

فإذا نجحَ الإسلاميونَ في كلِّ ذلكَ وحصلوا على أعلى الأصوات،
كادوا لهم وتآمروا عليهم وقاموا ضدَّهم،
يعني رفضوا الحوار، ولم يعترفوا بالانتخابات، ولم يتبعوا الأكثرية!
واستعانوا بأوليائهم الغربيين وأزاحوهم عن الحكم.
لماذا؟
لأنهم لا يريدون الإسلامَ الحقّ،
إنهم أعداءُ الدين،
ويعني أنهم أعداءُ الله.
فهل اتخذتموهم عدوًّا؟

- إلى الذين يرقصون مع كلِّ نغمة،

ويتَّبعون كلَّ ناعق،
إلى متى تقلدون أعداءَ دينكم في رأسِ كلِّ سنة؟
وما الذي تستفيدونهُ لدينكم ومجتمعكم ووطنكم وأنفسكم من هذا؟
ولْيَتذكرْ ولْيَعتبرِ البعضُ من أهلِ السنَّة،
بل الكثيرُ منهم،
كيف كانوا يهتفون لطاغيةِ سورية،
ويخرجون في مسيراتٍ تأييدًا وافتخارًا بما يسمَّى حزبُ الله وزعيمه،
تأثرًا بإعلامهم ودعاياتهم وأبواقهم،
وتقليدًا لجماعاتهم وأنصارهم ومخابراتهم،
ولينظروا ما الذي فعلوهُ اليومَ بموطنهم وأهليهم وذويهم وأموالهم؟
فإلى متى يستمرُّ النظرُ القصير،
والخطوةُ العشواء،
والتقليدُ الأعمى؟
متى تكبرُ العقولُ الصغيرة؟

ومتى يعرفُ هؤلاءِ الحقَّ من الباطل،
والأخَ من العدو؟

- مرَّ جيشُ النبيِّ سليمانَ بمنطقة،

فقالت نملةٌ لأخواتها خوفاً من أن يُحطَمنّ:
{يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ}
سورة النمل: ١٨.
فماذا تقولُ نمالُ سوريةَ الجريحةَ وهوامُّها وخَشاشُها،
والحربُ مستمرةٌ منذ سنوات؟
هل تجدُ لها مخبأً تحت الأرض؟
وكيف تحصلُ على رزقها فوقها؟
ألا تطالها قذائفُ الطاغوتِ وبراميلهُ أيضًا؟
وماذا يقولُ أطفالُ سوريةَ وشيوخها ونساؤها ونازحوها،
وقد كُسرت أجنحتهم وفَرغت أيديهم وعَريت بيوتهم؟
وأهلها المقيمون فيها وهم يعيشون أسوأ حياةٍ على وجهِ الأرض؟
اللهم عليك بالظلمة ومن عاونهم،
فقد سفكوا الدماءَ بغيرِ حق،
وخرَّبوا البلاد،
وانتهكوا الأعراض،
ونهبوا الأموال،
ولا ينتهون إلا بانتصاركَ للمظلومين،
وبقوتكَ التي تؤيدُ بها المجاهدين.

- ما يحدث في سوريا شيء لا يوصف!

تآمر دولي على شعب قتلًا وخنقًا وتعذيبًا وتهجيرًا..

اجتماع صليبي يهودي شيعي عل الفتك بشعبٍ أعزل..
لا يمكَّن من الدفاع عن نفسه كما ينبغي..
لم أسمع حتى الآن أن حاكمًا عربيًا (استنكر) ما حدث لإخوانهم في خان شيخون من القصف الكيميائي!
مع أن نتنياهو (عدو الإسلام والمسلمين) أعلن استنكاره لهذه الإبادة الوحشية.
على الرغم من عدم فائدة هذا (الاستنكار) الذي عُرف به العرب!
ولكنها المواساة.. والمشاركة في إظهار الأسى..
بينما يهرعون إلى تعزية بوتين المجرم، قاتل أطفال سوريا، مستنكرين ما حدث في بطرسبورغ من مقتل بضعة أشخاص...
وفرنسا وبريطانيا تدعوان إلى انعقاد مجلس الأمن لهذه الحادثة الفظيعة...
والنتيجة معروفة.. مثل كل مرة..
الفيتو الروسي والصيني...
وهكذا يفعل بنا العدو في الشرق والغرب.. يسرون ويجاهرون في قتلنا... ولم يعد هناك شيء مخفي..
فلا بدَّ من المواجهة.. شئنا أم أبينا..
رفعنا رؤوسنا أم دفنّاها...
(٨ رجب ١٤٣٨ هـ)

- نعم، قالها بوتين بكل وقاحة وعنجهية! إنها فرصة أن يتدرب جيشه على القتال بسورية، بقتل الآلاف منهم، وبتدمير بلدهم!!

  لم يرَ أذلّ من العرب والمسلمين حتى قالها بدون خوف، وبدون أن يحسب حساب ذبابة تقف على أنفه!

  آهٍ من قومي ومن ذلّهم وانتكاستهم!

  لقد كتبت منذ أربع سنوات، إنه يجب أن تكون هناك قوة إسلامية عالمية لدحر روسيا ووقف جرائمها ضد المسلمين...

وكنت أعلم أن كلمتي ستقع على الأرض في وقتها، ولا يأبه بها أحد....
وما زلنا كذلك فنحن بانتظار أطماع أعداء كثيرين..
وها هي إيران واحدة منهم..

- يلومون أمريكا على موقفها مما يجري في سوريا،

وأمريكا عدوّ،
وهل يُطلَبُ النصرُ من الأعداء؟
لكنَّ اللومَ والعارَ على الدولِ العربيةِ والإسلامية،
التي ذلَّت وخنعت وسكتت سكوتَ الجبناءِ والمنتكسين،
وعلى رأسها الحكومةُ الانقلابيةُ في مصر،
التي فتحت ذراعيها لليهودِ ودويلتهم،
وأيدت روسيا وإيرانَ في تدميرِ سوريا وشعبها.

- الغربُ يريدُ أن نكونَ تابعين له،

أو نبقَى تحت حكمِ صنائعهم الطغاة،
يعني لا يقبلون أن نبقَى مستقلين بذواتنا.
ولم يرضوا بحكمِ الإسلاميين (المعتدلين).
وقد ولَّدت لهم هذه السياسةُ تنظيمَ القاعدة،
ودولةَ الخلافة،
والباقي في الطريق.

(١٤)
قذائف أخرى

- شرقنا يموجُ بالفتنِ والجرائمِ والمؤامراتِ على الشعوب، وعلى رأس تدبيرها إيران، وقد فاقت أمريكا والكيانَ الصهيوني في جرائمها بسورية.

- استطاعت إيرانُ أن تجعلَ ملَّةَ الكفرِ معها: أمريكا وروسيا. وهذا يدلُّ على ضلالها وخبثها، وتعاونها الخالصِ مع الكافرين ضدَّ المسلمين أهلِ التوحيد.

- الكبارُ يسكتون عن جرائمِ بعضهم بحقِّ الشعوبِ لتمريرِ أعمالهم، كما تسكتُ أمريكا عن جرائمِ إيرانَ والكيانِ الصهيوني. إنهم جميعًا مجرمون محترفون.

- ما يحدث الآن لأهل السنة في العراق، هو ما حدث من فعل الصفويين بأهل السنة في إيران لتصفو لهم الأرض، من إكراه أو إبادة على مراحل.

- الجهاد، إلى الجهاد يا أمة الإسلام، يا خيل الله اركبي. بلاد الإسلام تتعرض لغزو صليبي جديد.
- حلبُ تُبادُ لأنها تحملُ رايةَ الجهادِ بحق، لا تخشى طاغية، ولا توالي كافرًا، ولا تداهنُ منافقًا.

- لا حلَّ في سوريا إلا بتكثيفِ الجهاد، والمزيدِ من القوةِ والانتقام.

- بالدمِ نعتقُ رقابنا من عبوديةِ الغربِ والطغيان، حيث لم تنفعِ السياسةُ والدعوةُ والحوار.

- إن قتلَ القياداتِ الحكيمةِ حمقٌ سياسي أيضًا، إنهم يهدِّئون العامةَ ويصبِّرونهم، فإذا فُقدوا انتشرتِ الفوضَى ودبَّ الخراب.

(١٥)
السياسة علم وخبرة ومسؤولية

قال: لماذا لا تكتبُ في السياسة؟

قلت: لأني لا أتقنُ هذا الفن.

قال: ولكنَّ كلَّ الناسِ يقولون فيه ويكتبون.

قلت: وعن علمٍ وخبرةٍ وكياسة، أم ظنونٍ وآراءٍ عابراتٍ وكما يقولُ الناس؟

قال: بل يضربون فيه بسهمهم كيفما كان.

قلت: ويعرفون دهاليزَ السياسةِ وخفاياها وما يحاكُ من مؤامرات،

وما يتفقُ عليه الساسةُ سرًّا ويُظهرون غيرَهُ علنًا؟

أم يغترفون من وكالاتِ الأنباءِ الغربية ومصادرَ حكوميةٍ غاصبةٍ وظالمةٍ وما لا يُعرف،

وصحفيين مشبوهين وعناصرَ غيرِ ثقات؟

قال: بل من كلِّ مكان، وقليلًا ما يتحرَّون الصدقَ والبحثَ عن الحقيقة.

قلت: ويصيبون في تحليلاتهم وحواراتهم وتوجيهاتهم...

قال: لا يهمهم هذا،

المهمُّ أن يقولوا رأيَهم أو رأيَ الجهة التي ينتمون إليها ويشاركوا في الحدَث.

وقد يرجعون عن رأيهم، او يتعصبون له وهم يعرفون أنه خطأ..

أو يتركونَهُ وينتقلون إلى موضوعٍ آخر... وهكذا.. في مجالسَ أو صحفٍ أو فضائيات..

قلت: أمَا اعتبرَ المسلمون منهم مما وردَ في القرآنِ الكريم،

عندما سألَ أهلُ الجنةِ أهلَ النار:

{مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ}؟

فكانَ من جوابهم:

{وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ} [سورة المدثر: ٤٥]،

أي: وكنَّا نتكلَّمُ في الباطِل، وفيما لا يَعنِينا، وفيما لا نَعلَم،

معَ هؤلاءِ الذين لا يَزالون يَتكلَّمونَ صباحَ مساءَ في أفكارٍ ونَظريَّاتٍ وأمورٍ شَتَّى،
ولا يُبالونَ فيها بحقٍّ ولا باطِل،
فنَميلُ معَهمْ حيثُ مالُوا، ولا نُبالي.
وقلتُ لصاحبي: وهذه هي رسالةُ المسلمِ في الحياة؟ أن يشوّشَ على نفسهِ والآخرين؟
ويتكلمَ فيما لا يعلم، ويعطيَ رأيهُ دون بيّنة ومن غير تأكيدٍ للخبرِ أصلًا؟!
وقد يشاركُ في تزويرِ الكلامِ ونشرِ الباطلِ والاتهامِ من غيرِ حقّ؟
ومدحِ الظالمِ والافتراءِ على الضعيف؟
أين هو من قولهِ تعالى:
{وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا}
[سورة الإسراء: ٣٦].
أعطاكَ الله كلَّ هذه الحواسَّ لتَسمَعَ وتَعرِفَ وتَتدبَّر.
ولتعلمَ وتتأكدَ وتَصدق، وأنت مسؤولٌ عنها كلِّها، كما في الآية.
وهذا ما ينبغي أن تتميزَ به شخصيةُ المسلمِ المتزنة.
وما لم تفعلْ فإنك محاسَبٌ بين يدَي الديّان.
وأشخاصٌ لا يحصون،
غرَّتهم السياسةُ بظاهرها فدخلوا في طرقها الوعرةِ من دونِ علمٍ ولا خبرة،
فصدَّعوا الناسَ وتصدَّعوا...
دخلوا في أحزابٍ علمانية، ودعَوا الناسَ إليها،
ثم رجعوا بعد أن رأوا ضلالهم.
لقد أخطأوا، بعد أن ضلُّوا، وأضلُّوا آخرين،
وما زالَ الذين أضلُّوهم في الأحزابِ يعملون، وهم أيضًا يَدعُون غيرَهم!!
وكانوا يُبدون رأيهم كما تملي عليهم أحزابهم وتجمعاتهم،
وينادون بحياةِ أصنامٍ وطواغيت، حتى كلَّتْ حناجرهم ونَفِدتْ محابرهم.
عقودًا من الزمن!!
وتأتيهم الذنوبُ حتى بعد موتهم،

من دأبِ الذين أضلُّوهم، فما زالوا يعملون، وهم يُضِلُّون آخرين...
يعني أنهم اكتسبوا جبالًا وجبالًا من الذنوبِ والآثام.
بعضهم علماءُ في الدين،
ومؤرخون، ومثقفون، وعلماء اجتماع، وأساتذة، ومصلحون، وأدباء...
كانوا ملءَ العين!
وقعوا في أخطاءٍ كبيرةٍ جدًّا؛ لأنهم دخلوا في علومٍ لا يتقنونها، ولا يعرفون أسرارها،
ولأنهم لم يؤتَوا خشيةَ الله مع العلم،
فقالوا كما يقولُ الناسُ من دونِ تحرٍّ ودون خشية،
ودون خوفٍ من الحساب.
فاتقِ الله أيها المسلم،
ولا تضربْ بسهمِكَ فيما لا تعلم،
إن الله لا يسألُكَ لماذا لم تقلْ فيما لا تعلم،
ولكنْ يسألُك: لماذا قلتَ فيما لا تعلم.
فكلٌّ يكتبُ فيما يعلم.
وإياكَ أن تقولَ أو تكتبَ فيما لا تعلم.
فهلّا اعتبرت، واكتفيتَ بما تعلم؟

خامسًا: التربية والتعليم

(١)
التربية بالإعراض

كتبتُ في تواصلٍ مع الإخوة والأحباب أقول ناصحًا ولدي:

"يا بني، إذا بدرَ منكَ سوءٌ فقد أغلقتَ به بابَ رضايَ عنك، ولن أفتحَ هذا البابَ إلا إذا علمتُ أنكَ دفنتَ ذلك السوءَ وأحدثتَ حسنةً تدلُّ على صدقِ توجُّهك".

فاعترض أحد الأساتذة الفضلاء وقال في أدب العلماء:

"إذا بدرَ منكَ سوءٌ أغلقتَ به بابَ رضايَ عنك" تعبير جميل، ولكن الفكرة فيها بعض القسوة أستاذنا.

فأجبته: "نعم، هو من باب الترهيب، والتأديب يأتي هكذا وهكذا". أعني ترغيبًا وترهيبًا.

وقلت: "الترغيب والترهيب لهما أشرعة طويلة في كتبنا، وخاصة كتب الزهد والرقائق، وهما مفيدان لمن علم متى وكيف يستخدمهما".

فأبدَى موافقته في توازنٍ مع الترغيب وقال مشكورًا: "أوافقك تمامًا... في أنه لا يمكن الاستغناء عن الترهيب كجناح يقابل الترغيب لموازنة الخطاب الوعظي ومعادلة الحياة...".

ثم أحببت أن أتوسَّع فيه من خلال هذا المقال القصير، وأزيد فيه فوائد.

والأمر يدور حول "الإعراض"، الذي يدلُّ على عدم الرضا، ويَظهرُ في صورة الهجر أوضح ما يكون.

وقد كُتب في "الهجر" من ناحية فقهية وعقدية، دون الناحية التربوية.

ولهذا الأسلوب أصلٌ في السنة النبوية، بحيث يعدُّ تربية عملية وليس نظريًّا وترهيبًا فقط.

فقد بوَّب البخاري في صحيحه بقوله: "باب ما يجوز من الهجران لمن عصى".

وذلك في قصة كعب بن مالك الأنصاري وصاحبيه، حين تخلَّفوا عن النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك بغير عذر، فهجره الرسول عليه الصلاة والسلام، ونهى صحابته عن الكلام معه.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في بيان معنى الباب (فتح الباري ٤٩٧/١٠): أراد بهذه الترجمة (يعني الباب) بيان الهجران الجائز; لأن عموم النهي مخصوصٌ بمن لم يكن لهجره سببٌ مشروع، فتبيَّن هنا السببُ المسوغُ للهجر، وهو لمن صدرت منه معصية، فيسوغ لمن اطلع عليها منه هجرهُ عليها ليكفَّ عنها.

ثم أورد كلام شرّاح الحديث حوله، من ذلك قول المهلب: غرضُ البخاري في هذا الباب أن يبين صفة الهجران الجائز، وأنه يتنوع بقدر الجرم، فمن كان من أهل العصيان يستحق الهجران بترك المكالمة، كما في قصة كعب وصاحبيه، وما كان من المغاضبة بين الأهل والإخوان فيجوز الهجر فيه بترك التسمية مثلاً [أي: لا يُنادَى باسمه الصريح، كأنه هُجر اسمه لا ذاته؛ لئلا يكون ذلك قطعًا للرحم]، أو بترك بسط الوجه، مع عدم هجر السلام والكلام.

كما أوردَ قول الإمام الطبري: قصةُ كعب بن مالك أصلٌ في هجران أهل المعاصي.

ثم قال ابن حجر رحمه الله: ... وأجاب غيره بأن الهجران على مرتبتين:

الهجران بالقلب، والهجران باللسان.

فهجران الكافر بالقلب، وبترك التودد والتعاون والتناصر، لا سيما إذا كان حربيًّا، وإنما لم يشرع هجرانه بالكلام لعدم ارتداعه بذلك عن كفره، بخلاف العاصي المسلم، فإنه ينزجر بذلك غالبًا. ويشترك كلٌّ من الكافر والعاصي في مشروعية مكالمته بالدعاء إلى الطاعة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإنما المشروع ترك المكالمة بالموادَّة ونحوها .ا.هـ.

وأورد في تحفة الأحوذي (٥١/٦) ما ذكره الخطابي أن هجر الوالد ولده والزوجِ زوجته ونحو ذلك، لا يُتضيَّق بالثلاث، واستدل بأنه صلى الله عليه وسلم هجر نساءه شهرًا..

قلت: والمرء لا يهجر أخاه المسلم لأسباب واهية أو غير مشروعة، حتى لا يقع في المحذور من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يحلُّ لمسلم أن يهجرَ أخاهُ فوق ثلاث"، كما رواه البخاري (٦٢٣٧) وغيره.

أقول: وإن إعراض الأب عن ابنه، وإعراض الشيخ عن تلميذه، بسبب اقترافه سوءًا: كذبة، أو غيبة، أو سخرية، أو جهرًا بفسق، أو إخلالًا بمروءة، كميوعة، أو لا مبالاةٍ بعملٍ شرعي.. في مثل هذا أو غيره مما يعرفه المربون.. فإن الإعراض هنا إجراء تربويٌّ فعّال... على ألّا يكون ذلك حقدًا وضغينة وتحقيرًا للمعرَضِ عنه، إنما هو معالجة كمعالجة مرض يُصبر عليه حتى

يُشفى، كما حُدَّ أحدهم في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، فلعنه بعض الصحابة لكثرة ما كان يؤتَى به لشربه الخمر، فقال الرسول عليه الصلاة والسلام للاعنه: "لا تفعلْ فإنه يحبُّ اللهَ ورسولَه".

والمهم أن هجر الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته كعبًا وصاحبيه أثمر، فتابوا وتاب الله عليهم، كما قال الله تعالى في كتابه العزيز: {وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [سورة التوبة: ١١٨].

وكان ذلك درسًا للمسلمين لئلّا يتخلفوا بعد ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإلا كان مصيرهم معروفًا.

وقد كان موقف كعب رضي الله عنه مشرِّفًا، فقد صبر على المقاطعة الشرعية أيما صبر، وتحمَّل جفوة المسلمين له خمسين يومًا، بعد ما أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم باعتزال زوجته أيضًا! وزيد بلاءً عندما جاءته رسالة من ملك غسان يقول له فيها: "بلغَنا أنَّ صاحبَكَ قد جفاك، ولم يجعلكَ اللهُ بدارِ هوانٍ ولا مَضيعة، فالحَقْ بنا نُواسِك". قال: فقلتُ حين قرأتُها: وهذه أيضًا من البلاءِ. فتيامَمتُ بها التَّنُّورَ فسجَرتُها بها. (صحيح مسلم ٢٧٦٩).

ويكون العلاج ناجعًا إذا لم يعاند الطرف الآخر، ويتقبَّل المقاطعة لأنه يستحقها، فيصبر.

ويُفهم من هذا أن الإعراض والهجر يعنيان عدم الرضا، بل هما سبب عدم الرضا، وتركهما عودة إلى الرضا.

وهناك أمثلة أخرى من تراثنا الإسلامي في مثل هذا، مثل هجر بعض أهل العلم من ابتدع، أو شذَّ في اجتهاد وخالف المسلمين، أو كذب في رفع حديث، أو مال إلى فرقة..

فلو أُفرد مثل هذا في تأليف تربوي، ومعالجة عصرية هادفة، لأفاد.

ويؤخذ في الاعتبار عند المعالجة اختلاف طبائع الأشخاص، وظروفهم، وبيئتهم، وأعرافهم، وزمانهم، واعتبار المجتمع: هل هو في وسط إسلامي أم غير إسلامي. وهذا ما يقدِّره التربويون الإسلاميون القديرون.

وأذكِّر هنا بأن أمر الهجر خطير، وخاصة إذا ترتَّب عليه قطيعة رحم والعياذ بالله، فلا يُلجأ إلى هذا الدواء الشديد المرارة إلا عند الضرورة، حتى لا يزداد الأمر سوءًا، فللهجر شروط تُراعَى، وإلا تحوَّل الدواءُ إلى داء، والتربويون الحاذقون يدركون هذا.

والله الموفق.

(٢)
أمثالٌ أكاديمية!

من عجائب الشأن الأكاديمي أنه لا يمنح الشهادات العالية لمن يُنشئ ديوان شعر، مهما كان عاليًا ومتميزًا أدبيًا وفنيًا!

ولو كان أمير الشعراء أحمد شوقي حيًا لما أُعطي شهادة دكتوراه على أيّ من دواوينه، أو حتى مجموعها، ولا لامرئ القيس، أو المتنبي، ولكن قد يُتصدَّقُ عليهم بشهادات (فخرية)!

وكذا القصص، والمسرحيات، وما يسمى بالأعمال الإبداعية، ولو كانت عالمية، ونال أصحابها جوائز كبيرة، نوبل أو غيرها.

ولا نضرب المثل بالجاحظ وعبدالله بن المقفع وابن قتيبة الدينوري وأمثالهم، فهؤلاء المساكين لو قدّمت أوراقهم إلى مدير شؤون التسجيل لرفض النظر فيها أصلاً، وطلب الأصل أو الصورة المصدَّقة من شهاداته السابقة... وإلا أُقلعوا بسلام!

ومَن كتب ناقدًا ودارسًا للشعر مُنِحَها، ولو لم يكن قادرًا على نظم بيتِ شعرٍ واحد!

وقد حُصّلت آلاف شهاداتِ الدكتوراه في دراسة الأشعار، ولا أعرف شاعرًا مُنح شهادةً نظاميةً على شعره! ولا قاصًّا أو مسرحيًا.

فالأصلُ لا يُمنح، والفرعُ يُمنح!

الينبوعُ لا يُمنح، والساقيةُ تُمنح!!

وليس الأمر مقصورًا على حجب الشهادات عن الأعمالِ الإنشائية والرومانسية وحدها، فإن الباحث لا بدَّ أن يكتب رسالته بالأسلوب الأكاديمي المعروف الذي يقدّمه طلبة الماجستير والدكتوراه، وكما يقدِّم الأساتذة المساعدون بحوثهم للترقية إلى أساتذة مشاركين.

وبهذه الشروط لا أظنُّ أن الحافظ ابنَ حجر العسقلاني لو قدَّم كتابهُ المشهور "فتح الباري بشرح صحيح البخاري" لنالَ به شهادة علمية، لا لشيء سوى لأنه لم يتبع الأسلوبَ الأكاديمي!!

مع أنه استفادَ من كتابه هذا استفادة مؤكدة ملايين المسلمين على مدى ستة قرون أو أكثر!

وتقاسمه طلبة الدراسات العليا في الجامعات الإسلامية، وحصَّلوا من دراسة هذا الكتاب وغيره من كتبه مئات شهادات الماجستير والدكتوراه، ولا يتجاوز عملهم فيها سوى التخريج والتوثيق من الكتب، والحكم على بعض الأحاديث، وشيء من الدراسة، يعني مما لا يساوي سوى جزء قليل من قيمة الأصل.

ولا تمنح الشهادات العالية أيضًا لكتابة التراجم، ولو كانت موثقة توثيقًا علميًا! إلا أن تكون دراسة للشخص مع أعماله العلمية أو الأدبية.

وأعني لو أن الإمام الذهبي قدَّم كتابه "سير أعلام النبلاء" إلى قسم التاريخ بكلية العلوم الاجتماعية لرفض!

ولو ضربتُ الأمثالَ بالكتب التراثية الرائعة في قيمتها العلمية ورفضها أكاديميًا، لتجاوزت الأرقام الظنية!

ثم إني عاشرتُ أكاديميين قبل أن يحصِّلوا الشهادة وبعدها، فرأيت نفوسهم متغيرة، وفي بعضهم شيء من الأنفة والتكبر، وينظرون بازدراء إلى أعمال الكتّاب والمؤلفين ما لم تكن مكتوبة بالأسلوب الأكاديمي، ولو كانت الكتابة مشوقة ومفيدة والكتاب واسع الانتشار، بينما أسلوبهم فيه شيء من الجفاف بما ينفر القارئ ولا يشجعه على المضي في القراءة، وكأنهم يكتبون للطبقة المثقفة العالية فقط، أما الجمهور العام فلا يهمهم أمره، إنْ قرأوا أو رفضوا!

والنظرُ إلى المعنى والفائدة والأسلوب هو الأهم، وليعتبر القارئ والباحث بأسلوب القرآنِ الكريم، الذي لا يقال له أسلوب أكاديمي أبدًا، وكذلك أسلوب النبي صلى الله عليه وسلم في الخطاب والإرشاد وحتى التشريع، الذي فيه إنشاء كثير، والوعظ والنصيحة في الكتاب والسنة كثير، والفائدةُ منهما أرقى وآكدُ من كل كتاب على وجه الأرض!

فالمهم الفائدة، والمعالجة الناجحة، والاستفادة..

ولا يُنكر توجيه الطالب إلى الأسلوب العلمي، والبحث الرصين في الكتابة، والعمق في المعالجة، وترتيب الأفكار وما إلى ذلك، ولكن لا يكون المرء عبدًا للأفكار والنظريات

الغربية الوافدة، التي تقتصر على النظرة الموضوعية والمادية وحدها في البحث وأسلوبه... وليكن عند المسلمين مناهج بحث تناسب دينهم، الذي هو عصمة أمرهم. وليستفيدوا من مناهج علمائنا الكبار الذين نجحوا في تآليفهم، وبنيت الحضارة الإسلامية العظيمة بجهودهم الدينية والعلمية، فنحن أصحاب العلم، وآباؤه وأجداده... وللحديث شجون.

الباب الخامس
اللغة العربية

(١)
عرب أم عجم؟

من سمات الأمم المغلوبة أنها تقلِّد الأمم القوية حتى في لغتها، وإن كانت لغتها الأصلية سليمة لا شائبة فيها، ويفهمها شعبها كله، بينما هي لا تفهم إلا القليل من اللغة الأخرى، ولكنها لوثة التقليد، وضعف الشخصية، والتذلل للقوي بدل الإيقاع به أو التفوق عليه، والهوس بالجديد، وانتظار ما يأتي من هناك دون إبداع ما يمكن من هنا والثقة به.

ولا يحتاج المرء إلى إثبات ما بلغته بعض شعوبنا الإسلامية من التغلب على أمرها في شأن لغتها، ففي معظمها يُفرض تعلم اللغة الإنجليزية من أول يوم يطأ فيها التلميذ بقدمه عتبة المدرسة، وفي جامعات منها تكون هذه اللغة هي الأساسية في التعلم، ولا يُسمح فيها بلغتها الأساسية أصلاً، كما في بلدان عربية تدرَّس فيها المواد العلمية، وقد اعتبر أحد كبارهم أن دراسة العلوم الطبية والهندسية باللغة العربية تخلف ورجوع إلى الوراء!! وأمثال هؤلاء المقلِّدين المغلوبين هم أركان تخلفنا.

ومن الناحية الشعبية، أو الاجتماعية العامة، يجد المرء مصداق طغيان التقليد في اللغة واسعاً ومنتشراً، كما في أحاديث مجالس المتفرنجين خاصة، الذين يتقصَّدون استعمال كلمات أجنبية في أحاديثهم لبيان أنهم متغرِّبون، ومن أهل الموضة أو الميوعة!

وأية جولة في أنحاء الأسواق بأنواعها يجد المرء الأسماء الأعجمية المنتشرة على اللوحات المختصة بمحلاّتها، أو الإعلانية منها، المثبتة على الأرصفة، أو المبثوثة في الوسائل الدعائية الحديثة، وصارت هذه الأسماء مستساغة عند كثير من الناس، لانتشارها، ولعدم مواكبة مجامعنا اللغوية لما يقابلها ثم طرحها في الساحة الإعلامية بلغتنا العربية قبل فشوِّ الأجنبية منها، أو لتقصير مؤسسات الدولة في فرض ما يقابلها بالعربية على وسائل الإعلام ومراكز التجارة، ولو وضعت مخالفة واحدة على تاجر لتركها مائة تاجر وألف، ولكنها لا تفعل!!

ولا نحتاج إلى تحديد بداية أو نهاية لنأتي بأمثلة تطبيقية على ما ذكرنا.
وكان من حظ هذا المقال أن بدأت بكتابته وأنا أتعبَّدُ في المسجد الحرام، ولما خرجت من باب التوسعة منه، وكان أثر المقال ما زال في ذهني، اصطدمت عيناي بهذه اللوحات الأجنبية الكبيرة: فندق التوحيد أنتركونتننتال!

هكذا مرة واحدة! التوحيد، هذا المصطلح الإسلامي الجليل، يُقارن به مصطلح أجنبي غريب وثقيل على اللسان العربي، ولكنهما مع ذلك التقيا في هذا الجيل الغريب مثله! وأين؟

وعلى يمينه (موبايلي).

وعلى يساره: رولكس، ثم هارديز، ثم كنتاكي... وبينهما أسماء عربية.

وكلمات أخرى في شوارعها: الأصيل بلازا، مياه سفكو، لابا، أكستريم...

وفي المدينة المنورة: المدينة هيلتون، الإيمان كونتننتال، المدينة موفنبيك، فايندرا، رويال ديار..

وفي غيرها: كريتيفيتي، تلي موني، نوبلز.

وفي سوق الاتصالات: باقة برود باند تجمع بين DSL وكويك نت (لا أدري لماذا لم تكتب بالإنجليزية ما دامت كلها بالإنجليزية!) قرين أبل، مركز نيولرن، صيانة دانسات...

ومن الكلمات الأعجمية المنتشرة على الألسنة، التي لا تكاد تجد أحدًا يتلفظ بما يرادفها بالعربية، ولا يعرفها معظم الناس: الراديو، التلفون، الإنترنت، بلوتوث، الأوفست، الإلكترونيات، الألمنيوم، التلفزيون، الكاميرا، الأستديو، الكاونتر، الكمبيوتر، الماركة، ليموزين، سوبرماركت... وغيرها الكثير..

وبعضها لا يسمح بتغيير أسمائها، أو هي لا تُعرف أنها المقصودة إذا تُرجِمَ لفظها إلى العربية؛ لأنها شركات وأنظمة عالمية مسجلة ومنتشرة عالميًا..وهذا يدلُّ على طغيانها.

ولو تخيلت أنك ستلتقي بجماعة من القرون الماضية، وتتحدث لهم عن أحوال من قرننا، فلن يفهموا منك الكثير، ولو تكلمت الفصحى! فإذا تحدثت عن السيارات وأنواعها، فأي سيارة تحمل اسماً عربياً؟ وإذا تحدثت عن قطع غيارها فلن تجد منها بالعربية إلا القليل، وإذا وُجدت فمولَّدة. ولو تحدثت عن البترول (أعني النفط، أعني المحروقات)، وتحدثت عن مشتقاته، فهل تذكر الأسماء العربية للبنزين والكاز والمازوت؟

والطائرات وأنواعها، والعملات، ومواد البناء، والمخترعات الصناعية... وأنواع علمية عديدة، من النبـاتات والأسمـاك والحيوانات الصـــغيرة والكبيرة، وعنـاصـــر المواد (الأكســـجين والهيدروجين...)، والكيلو غرام، الكيلومتر... والنظريات والمذاهب السياسية...

ولا شـك أن أصـحابك سيعجبون من حديثك ويقولون: هل هذا من العرب أم من العجم؟ فمن المعروف أن الأعجمي يســتعمل كلمات كثيرة من لغته ويضــعها بين العربية... وهذا ما صار من شأن العرب في لغتهم!!

لقد امتلأت حياتنا بالكلمات الأعجمية... فهل من غيور، وهل من منقذ؟

(٢)
التصحيح اللغوي

شأن التصحيح قديم، وهو فنّ لا بدَّ منه، لكل العلوم، وليس للغة والأدب فقط، ويتأكد للفنون الأخرى إذا كان أصحابها غير ماهرين في اللغة، فتكثر الأخطاء، ويقلُّ الربط الحيوي بين الجمل، وتزداد الركاكة مع اللحن.

وإذا كان سلفنا يقرؤون كل العلوم حتى يتخرجوا ويحصلوا على إجازة، فإن الخلف تخصص في علوم دون أخرى، وبذلك يفقد غالبهم المهارة في اللغة، ويصبح ضعيفاً فيها، فتزداد أهمية التصحيح هنا.

وكان التصحيح في القرن الفائت وخاصة العقود الأولى منه، مقتصراً على النحويين واللغويين المتمكنين، فما كنت تجد في الكتب القديمة خطأً، لكن في العقود الأخيرة صارت التجارة حتى في اللغة، فيُعطى الكتاب لماهر في اللغة ولغير ماهر فيها، فتصدر بعض الكتب بتصحيح لا بأس به، وأخرى تضحك منها، أو ترميها من يدك لكثرة الأخطاء فيها، إذ يبدو أن كتّابها لم يتجاوزوا في معرفتهم اللغوية المرحلة الابتدائية، أو حتى ما دونها، لأن التلاميذ في هذه المرحلة يتعلمون الأسس والمهمات من اللغة!

ومن الغبن هنا الحكم على شخصية المؤلف اللغوية، أو ثقافته النحوية، إذ لا يبدو من وراء كتابه أو كتبه أنها من إنشائه اللغوي، بما أن الكتاب يمرُّ تحت يدي المصحح. وقد صححتُ كتبًا، فما كان يمرُّ بي سطر أو سطور قليلة إلا وأجد فيها خطأً أو أخطاء، إلا ما ندر!

كما أن هناك كتّاباً مقتدرين يعانون من لعب المصححين، فهم أصناف، وثقافتهم اللغوية غير متجانسة، فبعضهم لا يملك سوى ثقافة لغوية متواضعة، وبعضهم لا خبرة له فيها ولا تجربة، بل دراسة نظرية فقط، والتصحيح فن وخبرة إلى جانب العلم، ومن لم يمارسه لا يكون مصححاً متمكناً.

كما أن هناك مصححين متقعرين ومجادلين، فينضوون تحت اجتهاد مدرسة لسانية، أو أنهم أُعجبوا بأشخاص وكتاباتهم فقلدوهم، أو أخذوا باجتهاد مجمع دون آخر، أو أخذوا من هذا مرة ومن ذاك أخرى بدون مبدأ أو قاعدة، وخاصة مسميات العلوم والفنون والمخترعات

الجديدة، المختلف في تسمياتها أحيانًا، أو هي بدون مسمى عربي أصلاً.. فيفرضون نظراتهم اللغوية المقلدة أو غير المحكَّمة على الكتّاب، ويغيرون ألفاظًا أو جملاً إذا لم تكن موافقة لاجتهاداتهم، وإن كان لها وجه أو وجوه في اللغة.

وهذه سيئة من سيئات التصحيح، فالكاتب يريد أن يصبغ كتابه بألفاظ وتراكيب لغوية مقصودة تناسب موضوعه، وأداءه وأسلوبه، فيتدخل فيها المصحح ويخلط...

والحق أن المصحح ينبغي ألا يتدخل سوى في الأخطاء المطبعية والإملائية (المتفق عليها) والنحوية الواضحة، أما ما كان منها ذات أوجه واحتمالات، وأجازتها مجامع ولم تجزها مجامع أخرى، أو نقدها عالم لغوي متمكن وأجازها آخر في مثل درجته، فليس للمصحح أن يتدخل فيها أبداً، وإنما يتركها، والكاتب هو الذي يتحمل مسؤوليتها، ويدافع عن نفسه إذا نُقد فيها، فإذا كان تدخلاً من المصحح فماذا يفعل؟

وبالنسبة للكتّاب البارزين، لا يصحح لهم المصحح شيئاً إلا بإذنهم؛ لأنهم في العادة يكونون أقل خبرة وعلماً من المؤلفين.

وعلى كل حال تُقدَّرُ جهودُ المصحِّحين، حرّاسِ لغة القرآن الكريم، الذين لولاهم، لما كانت كتب كثيرة تُقرأ أصلاً.

ومعظمهم أصحاب دين، وثقافة، يدلُّون الناشرين على مواضع في الكتاب، فيها انحراف عن العقيدة، أو أخطاء علمية، ولهم صبر عجيب على متابعة القراءة، والغوص في المعاني، ودلالات الألفاظ، ووجوه الإعراب... ومنهم علماء تفتخر بهم الأمة. حفظهم الله جميعًا، وسدَّد خطواتهم، وألهمهم العمل الصالح.

(٣)
فائدة لغوية

سألتُ الأستاذ بهاء الدين عبدالرحمن، أستاذ اللغة والنحو بكلية الآداب في جامعة الطائف:

لم أجد من استعمل كلمة (أربعونات)، وإنما المستعمل (أربعينات) لكتب الأربعين حديثًا، فإذا جاءت في أول الكلام فكيف نقول؟

وهل يعني هذا أن (أربعينات) جمع تكسير، وهكذا هو سماعي؟

وكيف يكون تعامل العدد والمعدود معه؟ نقول: ثلاث أربعينات أم ثلاثة؟

فأجاب سلَّمه الله:

هذا من قبيل التسمية بجمع المذكر السالم، ولأن المسمى مؤنث أي (مجموعة الأحاديث) جمع جمع مؤنث سالم، ويكون بالياء لا بالواو، لأن أكثر ما ورد من الأسماء التي هي على صيغة جمع المذكر السالم ورد بالياء، مثل قنسرين ودارين ويبرين.

(٤)
فوائد لغوية

الأعجمي: الذي لا يفصح وإن كان ينزل بالبادية.

والعجمي: منسوب إلى العجم وإن كان فصيحاً.

والأعرابي: البدوي.

والعربي: منسوب إلى العرب وإن لم يكن فصيحاً.

(من تفسير البغوي عند تفسير الآية ١٠٣ من سورة النحل)

يقال: كفرته، وكفرت به.

وشكرته، وشكرت له.

ونصحته، ونصحت له.

كلها صحيحة.

الكلام اللغو: هو الذي يورَد لا عن روية وفكر، فيجري مجرى اللغاء، وهو صوت العصافير ونحوها من الطير.

(من تفسير روح المعاني عند تفسير الآية ٣ من سورة المؤمنون)

الغرقئ: هو القشرة اللينة الملتصقة بقشرة البيض.

أخطاء طباعية

في تفسير التحرير والتنوير

طُبع (تفسير التحرير والتنوير) للعلامة محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٤ هـ) أكثر من مرة، وأفضلها طبعة الدار التونسية (١٤٠٤ هـ، ١٩٨٤ م) في (١٥) مجلدًا، وقبلها أصدرته الدار نفسها من غير تجليد في (٣٠) جزءًا، والذي صدر بعدها من طبعات فيها أخطاء كثيرة، كما أفاده آخرون.

وعند استدراكي على هذا التفسير (التكوير على التحرير والتنوير) كنت ألاحظ في هذه الطبعة أيضًا أخطاء، بعضها طباعية في رسم آيات قرآنية، فكنت أقيدها وأحتفظ بها لنشرها، ولم أتتبعها، ولا قصدت البحث عنها، فلم يكن اطلاعي على التفسير دقيقًا وشاملًا، فإذا رأيت المؤلفَ فسَّر الآيةَ في موضع تركت باقي كلامه، وقد يكون هذا في صفحات.

والطبعة التي اعتمدت عليها مصورة في الشابكة، وعليها تصحيحات أيضًا من مالكها، رأيت تأريخًا لواحدة منها في عام ١٤٢٣ هـ (٣٠/٥٥٨) وهي جيدة ومفيدة، ويبدو أنها بقلم عالم. ولم أوردها ضمن هذه الملاحظات.

والكتاب بعد هذا وذاك، يحتاجُ إلى (توثيق وتحقيق)، كأيِّ كتاب تراثي! عدا تخليصه من أخطائه الطباعية، وإن كانت قليلة نسبة إلى حجمها. وهذه قائمة بها:

٥/٢٣٧: ألم نتولّ شؤونكم ونحيط بكم = ونحط بكم.

٧/١٩: الحِلف = الحَلِف.

٧/٣٨٥: لأنّ يعلموا = لأنْ.

٨/٨٤ (ق٢): بتك الفواحش = بتلك، أو بتيك.

٨/١١١: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا} [سورة البقرة: ٣٩]. أوردها على أنها الآية (٣٦) من سورة الأعراف، وهي: {إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا}.

٩/١٩١ (ق٢): على معنى الأنكار = الإنكار.

٩/٢٤٩: كآنهم = كأنهم.

٢٥١/٩: "فأن الله خمسه" = {فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ} [سورة الأنفال: ٤١].

٢٠٩/١٠: أنسفهم = أنفسهم.

١٦٥/١٢: التأييد = التأبيد.

٣٧/١٣: سوءالنا = سؤالنا.

٧٨/١٤: {إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ} [سورة الحجر: ٨٦]. يغلق قوس الآية، فقد اختلط بالكلام الذي بعده.

١٦٨/١٤: الآعراض = الأعراض.

٥٣/١٥: قريتم = قريتهم.

٣١٩/١٥: "وهو يجاوره" = {وَهُوَ يُحَاوِرُهُ} [سورة الكهف: ٣٧].

١٨٩/١٦: "وإن تهجر بالقول" = {وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ} [سورة طه: ٧].

٢١٩/١٦: "على من يكلفه" = {عَلَى مَن يَكْفُلُهُ} [سورة طه: ٤٠].

٣٠١/١٧: بانصارفهم = بانصرافهم.

٢١٨/١٨: بأذن = بإذن.

١٨٢/١٩: الأكية = الأيكة.

٢٣٢/١٩: والمصبرة = والمبصرة.

١٣٩/٢٠: اشملتت = اشتملت.

١٦/٢١: المساوات = السماوات.

١١٧/٢١: "وعلموا الصالحات" = المقصود الآية (٤٥) من سورة الروم {وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}.

(بين الرقمين أعلاه وأدناه، عند تفسير سورة الأحزاب): إلحقاقًا: إلحاقًا.

١٤٩/٢٢: "إذا مزتم كل ممزق" = {إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ} [سورة سبأ: ٧].

١٥٤/٢٢: لا تستعبدوا هذا = لا تستبعدوا.

١٦٢/٢٢: وضع الماء ليغلسوا فيها = ليغسلوا.

٢٢١/٢٢: "يخشرهم" = المقصود الآية (٤٠) من سورة سبأ: {وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا}.

٢٢٧/٢٢: "قلبك من نذير" = {قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ} [سورة سبأ: ٤٤].

٢٢/٢٥٥: "من المساء والأرض" = المقصود الآية (٣) من سورة فاطر {مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ}.

٢٢/٢٨٠: "لتبتلغوا" = المقصود الآية (١٢) من سورة فاطر {لِتَبْتَغُوا}.

٢٢/٢٨٨: "ولا تسكب كل نفس" = {وَلا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلا عَلَيْهَا} [سورة الأنعام: ١٦٤].

٢٢/٣٢١: ليزداد النبي صلى الله عليه وسلم يقينًا بأن الله غير عالم بما يكنه المشركون = هكذا!! وتحذف (غير)، فهي مقحمة.

٢٣/١٣٦: الرجل وأبتاعه = وأتباعه.

٢٣/٢٨٢: الظرف = الطرف.

٢٤/١٤: "فما له ومن مضل" = يعني الآية (٣٧) من سورة الزمر {فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ}.

٢٤/٢٠: "عذاب يجزيه" = {عَذَابٌ يُخْزِيهِ} [سورة الزمر: ٤٠].

٢٤/٤٤: "أن تكون" = {أَن تَقُولَ} [سورة الزمر: ٥٦].

٢٤/١٢٤: الرغة وولم = الرغبة، ولم.

٢٤/١٤٩: "شبيل الرشاد" — {سَبِيلَ الرَّشَادِ} [سورة غافر: ٣٨].

٢٤/١٥٩: "غدوا وغشيًا" = {غُدُوًّا وَعَشِيًّا} [سورة غافر: ٤٦].

٢٤/١٥٩:ناية عن الدوام = لعلها: نيابة عن الدوام.

٢٥/٣٩: المتهدون = المهتدون.

٢٥/٧١: الإحياء والإنشاء = والإنشار.

٢٥/٢٠٣: "ورحة ربك" = {وَرَحْمَتُ رَبِّكَ} [سورة الزخرف: ٣٢].

٢٥/٢٢٣: فإن فرعون وملئه = وملأه.

٢٥/٣٣١: و (ويل له) كلمة دعاء بالشكر = بالشرّ.

٢٥/٣٥١: "أن نجلهم" = {أَن نَّجْعَلَهُمْ} [سورة الجاثية: ٢١].

٢٦/؟: وضميرا "أكانوا" = يعني الآية (٦) من سورة الأحقاف {كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً}.

٢٦/١٨: وما أنا نذير مبين = {وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ} [سورة الأحقاف: ٩].

٢٦/١٩: مع بعض اليهودي = اليهود.

٣٩/٢٦: "من قبلهم مَّن الجن" = {مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ} [سورة الأحقاف: ١٨].

٥٩/٢٦: وقُضِي "مبِني" للنائب = هكذا! والصحيح: {وَقُضِيَ} مبنيٌّ للنائب.

٣٢٩/٢٦: توشيقًا = تشويقًا.

٢٥/٢٧: أن يعيدون = أن يعبدون.

٧٢/٢٧: واتبعوا أهوائهم = أهواءهم.

٢٧١/٢٧: الفعل الحسب = الحسن.

٣٢٢/٢٧: "فظلّتم" = {فَظَلْتُمْ} [سورة الواقعة: ٦٥].

١٤٣/٢٨: البراهة = البراهمة.

٢٢٩/٢٨: يعضهم = يعظهم.

٣٤١/٢٩: وصفت اليمين الكاذبة بالفاخرة = بالفاجرة.

٤٠٠/٢٩: يتخلَّين = يتحلَّين.

٤٢٧/٢٩: والقدير = والتقدير.

٤٤٢/٢٩: الععر = العجز.

٢٧/٣٠: البرزة = البزرة.

١٣١/٣٠: ثمر الكَرَم = الكَرْم.

١٥٦/٣٠: ذي العشر = ذي العرش.

٣٨٩/٣٠: "وأما من خبل" = {وَأَمَّا مَن بَخِلَ} [سورة الليل: ٨]. وردت عند تفسير الآية (١٤) من سورة الليل.

٣٨٩/٣٠: تطلى = {تَلَظَّى} [سورة الليل: ١٤].

٤٤٧/٣٠: يمأ = يأمر.

٤٨٥/٣٠: عمالهم = أعمالهم.

٥٤٥/٣٠: يستعطمان = يستطعمان.

*** *** ***

الباب السادس
العلوم (الطب)

(١)
الهال.. والرمان

- توصي بعض المراجع الطبية القديمة منها والحديثة بمضغ حبات من الهال عقب كل وجبة طعام، لزيادة إفراز اللعاب المعوي والمساعدة على الهضم، ويساهم في التخلص من رائحة الفم الكريهة. بالإضافة إلى أن الهال يعد فاتحاً للشهية ومنشطاً عاماً، وطارداً للغازات المعوية والديدان.
- تشير الدراسات إلى أن عصير الرمان غني بالمواد السكرية، كذلك عنصر الحديد، وهو ضروري وهام لتكوين كريات الدم الحمراء، ولذلك فهو عنصر مفيد في حالات فقر الدم (الأنيميا). ونظراً لاحتوائه بكثرة على حمض التنيك، وهي مادة ذات خاصية قابضة، فإنه يُستخدم في الحالات التالية:
  - تستخدم القشور في علاج الإسهال والبواسير.

– ويستخدم عصير الرمان كنقط للأنف في حالات الرشح والزكام، حيث يساعد على انقباض الأوعية الدموية والغشاء المخاطي المبطن للأنف، وبذلك يعمل على فتح الأنف في حالات الرشح والزكام.

– أما زهر الجلنار، الذي يطلق عليه زهر الرمان، فإن مغليه يفيد في علاج مرض اللثة.

(مجلة الخفجي، جمادى الآخرة ثم رجب ١٤٢٨ هـ، ص ٣٠، ثم ٢٥).

(٢)
حيرة القارئ في صحته

تطالعنا الصحف والمجلات على مدار الأيام والأسابيع والأشهر بأخبار العلم وآخر النظريات والتجارب العلمية في موضوعات متعددة وتخصصات مختلفة تهم الإنسان في كثير من جوانب حياته، ولعل أكثرها قرباً منه هو ما يتعلق بصحته، فقد كثرت الأمراض، وتعددت الأدوية... وقد لا يشفى المرء أو يبطئ شفاؤه، فيطالع ويبحث عن الجديد فيما يستجد ويتطور من أخبار الصحة الشخصية.

لكن القارئ المسكين يتفاجأ بأخبار ودراسات وتجارب كثيرة لا يكاد يجد لها آخراً، وهو إن قرأ موضوعاً مهماً يقي مرضاً فاستبشر، أو سمع عن دواء اخترع يحتاج إليه ملايين المرضى فابتهج، لا يجد حديثاً بعده في اليوم التالي، ولا الأسبوع الذي يليه ولا الذي بعده، وكأن الأخبار كالطيور، إذا طارت وابتعدت لم تُر بعد!

لقد كثرت التجارب المعملية، وتشعبت البحوث العلمية في الجامعات وغيرها، فصار كل ينشر أخباره ونتائج تجاربه في مجلته، فتبثها وكالات الأنباء، وتتلقفها الصحف والمجلات، المتخصصة وغير المتخصصة، فتورد منها ما يناسب الخبر الصحفي، بأسلوب سهل، ثم تترك القارئ وشأنه!

وكثرت شركات الأدوية التي صارت تستخدم شهرتها وعراقتها وقوتها الدعائية وسيطرتها المالية لنفسها وضد غيرها، حتى تجعل من الدواء الجديد المكلَّفة بإنتاجه ما لا مثيل له ولا شك في الشفاء باستعماله، وتجعل من دواء شركة أخرى تافهاً ا، لا أمل في الشفاء منه، أو تدعي أن له نتائج جانبية خطرة بعد إجراء تجارب على المرضى، على الرغم من أن له التركيب والمفعول نفسه!

هذا ما عدا شركات تجارية أخرى تهدف إلى تسويق أنواع معينة من النباتات والخضر، فتعمل دعايات لأنواع منها، وتذكر أن استعمالها مجرَّب ويؤدي إلى الشفاء، وهي تهدف إلى الربح بالدرجة الأولى.

ونعود إلى القارئ (العادي) المتحير، الذي لا يعرف كيف يتصرف وهو يقرأ هذا وذاك ولا يجد شيئاً منه على خريطة الواقع!

وليتذكر المريض بالسكر -مثلاً- كم مرة قرأ من علاجات شافية لهذا المرض، سواء من الأدوية أو من النباتات، في الصحف أو في النشرات، أو عبر وسائل الاتصال الحديثة، ولم يكتشف له دواء حتى الآن، وما يستعمله المرضى من أدوية كلها علاجات مؤقتة لساعات من النهار!

إن الذي يُعرف عن دوريات أن لها محررين صحيين، في درجة أطباء أو قريبين منهم، هم الذين يختارون ويحررون، وهناك عبء كبير يقع على عاتق هؤلاء في هذا التحرير، فالأخبار والتجارب الجديدة التي لا تكاد تصدق لا ينبغي أن يوردها هكذا، بل لا بد من أن يعلق عليها، ويبين اختلافها أو تناقضها مع ما عرف من ذلك سابقاً.

وكذلك الأدوية والمستحدثات الجديدة في العلاج، يذكر أنها في طور التجربة، وأنها لم تعمم بعد، وهكذا يتعامل مع الأخبار العلمية، ليوقف القارئ العادي على حقيقة الأمر، وأن لا يظن أن ما ورد في هذا الخبر هو كل شيء، وآخر شيء!

وإن عدم "جدية" ما يقرؤه الشخص يؤثر على ثقافته العلمية، فيكون مضطرباً، قلقاً، غير متأكد من معلوماته، ومدى صحة ما يقرؤه من عدم صحته، ومن ثم يكون غير واثق بنفسه وبعلمه، ولا يجد المجال ليسأل الطبيب عن كل ما يقرأ، ثم إن كثيراً من الأطباء لا يتابعون المستجد من خلال الدوريات العادية...

وقد أحببت أن أوقف القارئ على مجموعة من أمثال هذه الأخبار، التي قد تجلب الانتباه، وتثير تساؤلات، أوردها في عناوين ورؤوس موضوعات، وأتمنى أن تهتم هيئات التحرير في الدوريات والصحف السيارة بما ذكرت من ملاحظات...

الإسبرين خطر على السمع.

التدخين أخطر من الشعاع النووي.

السجائر الملفوفة باليد تزيد مخاطر الإصابة بالسرطان!

علاج السرطان في قشر البرتقال اليوسفي.

تقرير طبي يؤكد عدم جدوى اتباع مرضى السكر لنظام غذائي خاص بهم، فبإمكانهم تناول طعامهم كالأشخاص العاديين تماماً...

النقود تنقل الأنفلونزا، وخاصة الأوراق النقدية.

السمنة تنتشر بالعدوى من خلال العلاقات الاجتماعية!

البدناء يعيشون أطول!

انقلاب في الإسعافات الأولية: خطورة تقديم أي علاج لتبريد الحروق الخطيرة، وخاصة سكب الماء عليها. كذلك عدم حث المصابين بالتسمم على التقيؤ.

السبانخ ينافس أفضل العقاقير الدوائية: خافض للحرارة، مدر للبول، دواء...

الثوم بديل طبيعي للأنسولين.

الشاي الأخضر والثوم يمنعان تلف الحمض النووي.

الشاي بالنعناع يقضي على الشعر الزائد عند النساء.

اللبن يعدل المزاج ويقوّم السلوك العنيف.

الكاكاو يخفض ضغط الدم.

الشيكولاته السوداء مفيدة للمرأة الحامل.

الذكريات الأليمة تعالج كيماوياً بدل الطب النفسي!

الفياجرا تسبب فقدان السمع، كما تسبب العمى.

رفع الأثقال يسبب الصلع!

الغازات السامة تساعد المرضى الذين يعانون من أعراض رئوية حادة على تحسين صحتهم...!!

وكان الله في عون القارئ!

(٣)
المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية

أنشئت المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية في الكويت بأمر أميري، وتهدف إلى الآتي:

•إحياء تعاليم الدين الإسلامي الحنيف التي تتعلق بعلاج مختلف الأمراض البدنية والنفسية والوقاية منها، وكذلك إحياء التراث الإسلامي في هذا المجال عن طريق تحديث البحوث والدراسات التي وضعها الرواد من الأطباء المسلمين على ضوء التقدم التقني المعاصر، وتطبيقها بأسلوب علمي حديث لخدمة الإنسانية .

•تشجيع العاملين في مجال العلوم الطبية الإسلامية والعمل على تضافر الجهود الطبية والفقهية بهدف الوصول لرأي موحد في تطبيق ما يستجد من أمور البحث الطبي الحديث، وتوفير الإمكانات اللازمة لمتابعة أبحاثهم، وإيجاد البدائل الصحيحة للوسائل والعقاقير المحظور استعمالها إسلامياً.

•التعاون مع الهيئات والجمعيات الوطنية والدولية التي تعنى بنفس الأهداف في أنحاء العالم ، ومساعدتها لنشر رسالتها على أكمل وجه، وتشجيع تكوين مراكز أو جمعيات جديدة تعنى بنفس الأهداف ، والعمل على انضمامها للمنظمة.

•إنشاء المراكز الصحية للفئات المحتاجة من المسلمين في العالم.

•ربط برامج الدراسات الطبية بالقيم التي ارتكزت عليها الحضارة الإسلامية وتعاليم الدين الحنيف والشريعة السمحاء، وتوعية النشء المسلم بتراثه في هذا المجال.

•توحيد ونشر المصطلحات والمفاهيم العلمية والأخلاقية الإسلامية للمهن الطبية وتعميمها.

•تنسيق الجهود في مجالات الخدمات الصحية بالعالم الإسلامي.

وللمنظمة موقع على الإنترنت تدعوك لزيارته للتعرف على:

•أثر العلماء المسلمين على العلوم.

•أثر العلماء المسلمين على الحضارة العالمية.

•النباتات الطبية واستخداماتها.

•المحدثات الطبية والإسلام: الإيدز والإسلام، الاستنساخ، طفل الأنابيب والرحم والظئر، بنوك الحليب البشري، التحكم في جنس الجنين، الإجهاض في الدين والطب والقانون، استخدام الأجنة في البحث والعلاج، زراعة الأعضاء التناسلية من الناحية الطبية والفقهية، البصمة الوراثية من منظور إسلامي، آخر أنباء الهندسة الوراثية ومخاطرها في الغذاء، المواد المحرمة والنجسة في الغذاء والدواء.

ومن منشورات المنظمة:

•فهرس المخطوطات الطبية في المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية/ إعداد عبدالله الكندري، احمد العوضي.– الصليبخات، الكويت: المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية، [١٤٢٤ هـ]، ٢٠٠٣ م، ٤٥٥ ص .

•الطب النبوي/ أحمد بن محمد بن السني؛ اعداد أحمد العوضي، عبدالله الكندري.– الصليبخات، الكويت: المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية، [١٤٢٥ هـ].

وغيرهما.

الباب السابع
الأدب

(١)
معلومتان أدبيتان

١- أديب وطبيب مغمور، هو الدكتور (محمد نور الجوهري)، طُبعت له رواية وحيدة، هي "**الانتقام الطبعي: رواية علمية أدبية أخلاقية اجتماعية**"، أصـــدرها وعمره (١٦) عامًا في جدة عام ١٣٥٤هـ (١٩٣٥م)، وتقع في (٣٩ ص). وتعتبر تاريخيًا الرواية الثانية في الحجاز، وربما في الجزيرة العربية، بعد رواية "**التوأمان: رواية أدبية علمية اجتماعية**" التي صدرت لعبدالقدوس الأنصاري (من جدة) عام ١٣٤٩هـ (١٩٣٠م) في دمشق.
والجوهري من مكة المكرمة، عمل مديرًا للصـحة المدرسـية بمنطقة الرياض، وبها توفي عام ١٤١٩هـ عن (٨١) عامًا، وترك أعمالاً مخطوطة، لم يأبه به وبها أحد!

٢- لا أعرف ممَّن نظم دواوين شـــعر في عصـــرنا وفيما غبر، أكثر نظماً من الشـــاعر الملحمي (عبدالمجيد فرغلي)، من أسـيوط بصـعيد مصـر، المجاز في الحقوق، عارض أعلام الشـعر في قصـائد له ودواوين، وذكر أن له أكثر من (١٢٠) ديوان شعر، ما بين مخطوط ومعدّ للطبع، ونوقشـــت في شـــعره عدة رســـائل ماجســـتير ودكتوراه في جامعتي الأزهر بأسيوط، وجامعة القاهرة، وتوفي عام ١٤٣٠هـ.
وهو غير مشهور كذلك!

(٢)
طُرف وأشعار

- سئل الشيخ عبدالله بن عبدالعزيز العقيل (شيخ الحنابلة، سكن الرياض) عن صندوق بريده فلم يعرفه... ثم أورد هذه الطرفة:

دخل رجل بلدة فوجد المؤذِّن يؤذِّن من ورقة، فســـأله: منذ متى وأنت تؤذِّن؟ فقال: منذ عشـرين سـنة! فقال الرجل: هذا أمر لا يُسكتُ عنه، فذهب إلى القاضـي وقال له: السـلام عليكم. فقام القاضـي وأخرج ورقة من جيبه وقرأها وقال: وعليكم السـلام ورحمة الله وبركاته!

- ومن الطرف التي ذكرها لتلامذته أيضاً:

سألت امرأة رجلاً: أيُّ الرجال يصلح للزواج مني: قائد، طبيب، مهندس؟ فقال لها: تزوجي آثارياً، أي عالماً بالآثار، لأنك كلما قَدِمتِ ازدادت قيمتكِ عنده!

- وقال شاعر:

مررت بعطار يدقُّ قرنفلاً	ومسكاً وريحاناً فقلت: شهيق
فقال لي العطار ردَّ قرنفلي	ومسكي وريحاني فقلت: زفير

في البيت الأول اشتمَّ المسك والريحان بأنفه، وفي البيت الثاني أعاد ما اشتمه بإخراجه من أنفه، لأنه السبيل الوحيد إلى إعادة ما شمَّه. (الإكليل في وصف الرحلة والمقروءات.../ وليد المنيس، ص١١٩، ١٥٢، ١٩١).

- وقال شاعر:

وأعجب مني كيف أخطئ دائماً	على أني من أعرف الناس بالناس

(٣)
المقال القصير جداً

أحببتُ المقال القصير جداً – الذي يمكن أن يسمَّى المقال المصغَّر (الميكرومقال) - من العواميد اليومية القصيرة لكبار كتّاب الصحافة، فما كان يأخذُ ذلك من وقتي أكثر من دقيقة، وكنت أصل إلى المقصد والمعنى على حسب وجهة المقال بتلك السرعة، لأنه كُتب في حجمٍ صغير، وبأسلوب سهل ومشوِّق، مع وضوح الهدف، ومعالجةٍ لا بأس بها، وربما جدة في الموضوع.

وكرهتُ المقالات الطويلة لأنها تأخذ من وقتي، وتشوِّش على فكري، لكثرة تكرار أفكارٍ فيه، وتفصيلات مملَّة لا تلزم، وكنتُ أخرج من مقال ذي عشر صفحاتٍ بمحتوى صفحةٍ واحدة، وبمحتوى نصفِ صفحة من مقال في خمس صفحات. فكنت أتأفف وأضجر، وأعجبُ من هذه المقالات المملَّة التي لا تُقرأ غالباً وتُنشر بكثرة، وإذا قُرئت فعنوانها، أو كلماتٌ من أولها، أو خاتمة قصيرة إن وجدت...

ولماذا لا تُكتب قصيرةً لتُقرأ، ويتحققُ الهدف الذي يريده المؤلف، وذلك باختصارِ ما يريد قوله وإيجازه، ولا حاجة عندئذ لمقدمة ولا خاتمة، يعني بلا تمهيد، ولا تكرار، ولا مزيد أمثلة؟

ومن هنا أدعو إلى التركيز على المقالاتِ القصيرة جداً لتُقرأ. فإن المقالاتِ العاديةَ التي تكونُ عادةً ما بين ثلاث إلى عشر صفحات، لا يقرأ كلُّها كما قلت، ولا نصيفها، إلا من كانت له علاقة بها لسببٍ ما، وهو قليل.

بينما القصيرة تُقرأ من قبل فئات كثيرة من المجتمع، وخاصة في عصر التويتر والفيسبوك، الذي تُنشر وتنتشرُ فيه الجمل والفقرات القصيرةُ بسرعة، وليس المقالات.

فالناس يُقبلون على وجبات قصيرة من الثقافة في وقتنا كما يقبلون على اللفائفِ والمعلَّبات، لأنهم مشغولون كثيراً، ومتعلقون بمواعيد وأعمال، وينتظرون نتيجة ما ينجزونه، وليس عندهم وقت ليجلسوا ويقرؤوا ويتأملوا وينتظروا لينتهوا من مقالٍ عادي.

ومجاراةُ العصر بما لا يضرُّ لا بأس به، بل يستغلُّ هذا الموقف أو الظاهرة بالاستجابة له بما يناسبه، ويترك غيره لظروف ومواقف أخرى كما يأتي ذكره.

وأزيدُ على هذا الطلب بأن تُختصرَ المقالاتُ المهمة السابقة وتُنشر من جديد، ليتثقف بها الناسُ ويعرفوا كبار الكتّاب وأفكارهم المفيدة، التي تزيد جوَّ الثقافة حركة ونموًّا.

ويمكن لمجلات ومواقع إلكترونية أن تُبدع في هذا الأمر، ولا تقبلَ إلا المقالات القصيرة، نصفَ صفحة، وصفحة واحدة فقط، ولا تكون هناك صفحتان إلا لضرورة!

إننا بهذا نكسبُ جيلاً من القرّاء، وتزداد بهذا ساحة القراءة في المجتمع المسلم، التي نشكو من قلتها دائماً...

أقول: وهذا بخلاف البحوث والدراسات والمقالات العلمية، التي يلزمُ لها مساحةٌ أكبر من البحث والأدلة والأمثلة التطبيقية، ليُفهم ما يقال ويُستدلَّ به ويقتنع القارئ.

إنما عنيت المقال الثقافي والأدبي والعلمي الدارج، الذي يطلق عليه المقال الصحفي أو الأدبي أو الثقافي... وهو الذي يؤثر في الجمهور، وينتشر في مجتمع الشباب وطلبة الجامعات والطبقة المثقفة بشكل عام. وهو الذي يشكل الرأي العام، ويغيِّر الأفكار، ويهيِّج العاطفة، كما يكبح جماح الشائعات والشبهات بسرعة.

ولا بدع فيما أدعو إليه هنا، فقد انتشرت بدعة "القصص القصيرة جداً" أيضًا، وهناك قصائدُ قصيرةٌ أيضًا، وتوجد قصيدة إنجليزية تتألف من ثلاث كلمات فقط!

ومثلها المسرحيات والحوارات والمقاطع التمثيلية القصيرة.

ولو تتبعنا حفريات ثقافية أخرى، لوجدنا غيرها، مثل المقامات والخطب وقصص الأمثالِ والوصايا، وفنون أدبية أندلسية وتراثية عديدة...

والله يتولى أمورنا، ويجمع جهودنا في خدمة كتابه ودينه.

(٤)
المثل نوع فريد من الأدب

المثَل: عصارة فكرية جامعة، قيل نتيجة حادث معين ومشهور، سجَّله التاريخ على مدى الزمن، لما تناقله الناس وتداولته الألسن.. وكأن هذا المثَل صار شيئًا ثابتًا ترجع إليه كل حادثة مشابهة في حياة الناس، كما يلاحظ أنه جزء حي من حياة كل أمة أو بلد، فيُعنى به كتاب الأدب، ويدونون ما حِيكَ حوله من قصص وحكايات، ويزيدون في هذا شرحًا وتعليقًا وتحقيقًا؛ فالمثَل سِجِل لوقائع الناس، وترجمات لحالهم الفكري والاجتماعي والسياسي ..

والمثَل فن جميل ونوع فريد من الأدب الاجتماعي وتاريخ الشعوب، وهو يتميز بخصائص مرتبطة بالفكر البشري، قديمه وحديثه، كما أنه لا يفتأ يتردَّدُ على الألسنة في أي محيط اجتماعي عند الاستدلال به على حادثة أو فكرة، وهو يختلف بين أن يكون تاريخيًّا فصيحًا يستدرج ضمن البحوث والكتابات، أو شعبيًّا متداولاً يقال عند الأحاديث العامة واللقاءات الشخصية.

وقد رأيت بُعدًا متعمدًا عن هذه الثقافة التاريخية والتراث الجميل من قِبَل أدبائنا وباحثينا، ولا أدري ما السبب في ذلك، لكنني أعتبر المِثَل ثقافة أصيلة لأي شعب من الشعوب، ودلالة ملموسة لأخلاقِه وعاداته وخلفياته الفكرية، التي ينبغي ألاَّ تُلقَى أو تنسى بهذه السرعة في خضمِّ الثقافات الوافدة والغزو الفكري المكثَّف.

ولعل في إلقائنا الضوء على مفهوم المِثَل وأهميته وتاريخه - بإيجاز - ما يعيد إلى الأذهان القيمة العِلمية والعَملية له، والله الموفق.

تعريف المثل:

في لسان العرب: أن المثَل مأخوذ من المثال والحذو، والصفة تحلية ونعت، والمثل: الشيء الذي يضرب لشيء مَثلاً فيجعل مثله.

قال الميداني: فالمثَل ما يمثل به الشيء؛ أي: يُشبَّه، كالنَكَل مِن: ينكِّلُ به عدوه.

غير أن المِثْل لا يوضَعُ في موضع هذا المثَل، وان كان المثَل يوضع موضعه .. فصار المثَل اسمًا مصرحًا لهذا الذي يضرب ثم يُرَد إلى أصله الذي كان له من الصفة[٦] ..، وقيل في تعريف المثل: إنه القول السائر المشبه مضربه بمورده.

([٦]) انظر مجمع الأمثال لأبي الفضل أحمد بن محمد بن أحمد الميداني ج ١، ص ٨ - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.

وقيل: المثَل هو الحجة.

وقال المرزوقي: المثَل: جملة من القول مقتضـبة من أصـلها، أو: مرسـلها بذاتها، تتسـم بالقَبول، وتشـتهر بالتداول، فتنتقل عما وردت فيه إلى كل ما يصـح قصـدُه بها من غير تغيُّر يلحقها في لفظها، وعما يوجبه الظاهر إلى أشباهِه من المعاني.

قال اليوسـي: وتلخيص القول في هذا المقام أن المثَل هو قول يرِدُ أولاً لسـبب خاص، ثم يتعداه إلى أشباهه، فيستعمل فيها شائعًا ذائعًا على وجهِ تشبيهِها بالمورد الأول[٧].

أهمية الأمثال:

لا شـك أن في حفظِ الأمثال وتعلُّمها قوة وحجة لدى المتكلِّم الذي يريد أن يؤيد حديثَه بالحجج والبراهين، ويقطع دابر الخلاف بشيء معروف يتوقَّفُ فيه الخَصْم ويستسلم عنده.

وفي (زهر الأكم) أن عمرَ رضي الله عنه كتب إلى الأنصار: علِّموا أولادكم العَوْم والفروسية، ورَوُّوهم ما سار من المثَل وما حسُن من الشعر.

فهذا حض على تعلُّم الأمثال، خصوصًا السائرة؛ فإنها أقطع للنزاع والشغب[٨]؛ يقول إليوسي عن الأمثال: إنها زمام كل معنى، ومناط كل مبنى، ومنارُ كل مرمى، ومصـباح كل ظَلْمَا، وبها يرتاض كل جموح، ويصبح المنبَهِم ذا وضوح، وبها يعود الغائبُ مشهودًا، بل المعدوم موجودًا[٩].

ويقول: إن ضرب المثَل يوضح المبهم، ويفتح المنغلق، وبه يصوَّر المعنى في الذهن، ويكشف المعمَّى عند اللَّبس، وبه يقع الأمر في النفس حسـن موقع، وتقبله فضـل قَبول .. وتطمئن به اطمئنانًا، وبه يقع إقناعُ الخَصْم، وقطع تشوُّف المعترض .. وسر ذلك أن المثَل يصوِّرُ المعقول بصورة المحسوس.

وقد يصوِّرُ المعدوم بصورة الموجود، والغائبَ بصورة المشاهد الحاضر، فيستعين العقل على إدراك ذلك بالحواس، فيتقوَّى الإدراك، ويتَّضح المدرك[١٠].

ميزة الأمثال:

---

(٧) انظر هذه التعريفات في (زهر الأكم في الأمثال والحكم للحسن إليوسي ج ١ ص ٢٠ – ٢١ – حققه الدكتور محمد حجي والدكتور محمد الأخضر، نشر وتوزيع دار الثقافة – الدار البيضاء – المغرب).

(٨) زهر الأكم في الأمثال والحكم ص ٣٥، ج ١.

(٩) زهر الأكم – ج ١ – ص١٣.

(١٠) زهر الأكم – ج ٣١ – ج ١.

قال إبراهيم النظام: يجتمع في المثَل أربعةٌ لا تجتمع في غيره من الكلام:

إيجاز اللفظ، وإصـابة المعنى، وجودة الكناية؛ فهو نهاية البلاغة، وقال ابن المقفع: إذا جعل الكلام مثلاً، كان أوضحَ للمنطق، وآنَقَ للسَّمع، وأوسعَ لشعوب الحديث[11].

بين الأمثال والحِكَم:

ينقُلُ الميداني عن بعضـهم أنه سُمِّيت الحِكَمُ القائمُ صـدقُها في العقول أمثالاً لانتصـاب صـورِها في العقول، مشتقة من المثول الذي هو الانتصاب[12].

فالمِثَل – عامةً – هو حصـيلة تجرِبة واقعية، والموعظة والحكمة هي تحديدُ شـرط سـلوكي وقيمة أخلاقية ترتبط مباشرةً بأحكام القِيَم، وقد تتصدر عن رؤيةٍ حدسية، ومن تجريبٍ واقعيٍّ[13].

ويقول محمد قنديل البقلي: والأمثال كما نرى لا شـك عناوينُ لقصـصٍ جرت، وكان لها أحداثٌ وقعت لأعيان بعينهم أول الأمر، وكذلك الحكمة، ولكن الفرق بين الاثنين: أن المثَل لم يتحلَّلْ من أشخاص القصة، على حين أن الحكمةَ تحلَّلَتْ من الأشخاص.

ولعل اتصال الأمثال بأشخاصها هو الذي ضمِن لها الذيوع والبقاء والأثر النافذَ؛ إذ هي تحمل بين طياتِها أشـخاصَـها الذين جرت على أيديهم الأحداثُ؛ فهي بهذا تبدو حِسـية، على حين تبدو الحِكمةُ معنوية، وهذه الحسـية سـبيلُها إلى النفس أيسـرُ.. من أجل ذلك كان لها الذيوعُ وذاك البقاء، ثم ذلك الأثرُ النافذ في النفس.

ثم إن التَّجرِبة المثَليَّة تجرِبة عامة، على حين أن التجرِبة الحكيمة تجرِبة تكاد تكون خاصـة، أعني: أن المثَل يمليه الخاص كما يمليه العام، والحكمة لا يمليها إلا الخاصُّ في الأكثر.

ومن أجل ذلك كانت الأمثال بِلُغَةِ الخاصـة مرة، وبِلُغَةِ العامة مرة، على العكس من الحكمة التي لم تجِئْ إلا على لسان الخاصة[14].

(نشر في جريدة المدينة (١٦/٩/١٤٠٥ هـ))

---

(١١) مجمع الأمثال للميداني ج ١ – ص ٧ و ٨.

(١٢) مجمع الأمثال للميداني ج ١ ص ٦٧.

(١٣) الأمثال العربية ومصادرها ص ٢٨ – نقلاً عن الأمثال الكونية المقارنة ص ١٥.

(١٤) وحدة الأمثال العامية في البلاد العربية – محمد قنديل البقلي – مكتبة الأنجلو المصرية – القاهرة ١٩٦٨م.

(٥)
أمثالنا العربية
وما تحمله من قيم اجتماعية وتاريخية

رأيت في المثل عصارة فكرية جامعة، قيل نتيجة حادث معين ومشهور سجَّله التاريخ على مدى الزمن، لما تناقله الناس وتداولته الألسن ..

وكأن هذا المثل صار شيئًا ثابتًا، ترجع إليه كل حادثة مشابهة في حياة الناس، كما يلاحظ أنه جزء حي من حياة كل أمة أو بلد، فيعتني به كتَّاب الأدب، ويدونون ما أُثِر عنه من قصص وحكايات، ويزيدون الكتب القديمة في هذا شرحًا وتعليقًا وتحقيقًا؛ فهو سجلٌّ لوقائع الناس، وترجمان لحالهم الفكري والاجتماعي ..

إنه فن جميل ونوع فريد من الأدب الاجتماعي وتاريخ الشعوب، ويتميز بخصائص مرتبطة بالفكر البشري، قديمه وحديثه؛ فهو لا يفتأ يتردد على الألسنة في أي محيط اجتماعي، عند الاستدلال به على حادثة أو فكرة، وهو يختلف بين أن يكون تاريخيًّا فصيحًا يدرج ضمن البحوث والكتابات المختلفة، أو شعبيًّا متداولاً يقال عند الأحاديث العامة واللقاءات الشخصية.

وقد رأيت بُعدًا متعمدًا عن هذه الثقافة التاريخية والتراث الجميل من قِبَل أدبائنا وباحثينا، ولا أدري ما السبب في ذلك! لكنني أعتبر المثَل ثقافة أصيلة لأي شعب من الشعوب، ودلالة ملموسة على أخلاقه وعاداته وخلفياته الفكرية، التي ينبغي ألا تلقى أو تنسى بهذه السرعة، في خضم الثقافات الوافدة، والغزو الفكري المكثف ..

ولعل في إلقائنا الضوءَ على مفهوم المثل وأهميته وتاريخه ورحلة في عالمه – بإيجاز – ما يعيد إلى الأذهان القِيمة العِلمية والعملية له، وبالله التوفيق.

تعريف المثل وأهميته:

يورد (الحسن اليوسي) جملة من التعريفات التي قيلت في المثل ثم ينتهي إلى قوله: إن المثل هو قول يرِد أولاً لسبب خاص، ثم يتعداه إلى أشباهه فيستعمل فيها شائعًا ذائعًا على وجه تشبيهها بالمورد الأول.

ولا شك أن في حفظ الأمثال وتعلمها قوةً وحجة لدى المتكلم الذي يريد أن يؤيد حديثه بالحجج والبراهين، ويقطع دابر الخلاف بشيء معروفٍ يتوقف عنده الخَصم ويستسلم.

وفي (زهر الأكم) أن عمر – رضي الله عنه – كتب إلى الأنصار: علِّموا أولادكم العَوم والفروسية، ورَوُّوهم ما سار من المثَل وما حسُن من الشِّعر.

فهذا حضٌّ على تعلم الأمثال، خصوصًا السائرة؛ فإنها أقطعُ للنزاع والشَّغب.

يقول اليوسي: إن ضرب المثل يوضح المنبهم، ويفتح المنغلق، وبه يصوَّر المعنى في الذهن، ويكشف المعمَّى عند اللَّبس، وبه يقع الأمر في النفس حسن موقع، وتقبله فضل قبول، وتطمئن به اطمئنانًا، وبه يقع إقناع الخَصم وقطع تشوف المعترض .. وسرُّ ذلك أن المثل يصور المعقول بصورة المحسوس، وقد يصور المعدوم بصورة الموجود، والغائب بصورة المشاهد الحاضر، فيستعين العقل على إدراك ذلك بالحواس، فيتقوى الإدراك ويتضح المدرك.

قال إبراهيم النظام: يجتمع في المثل أربعة لا تجتمع في غيره من الكلام:

إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وجودة الكناية، فهو نهاية البلاغة.

وقال ابن المقفع: إذا جعل الكلام مثلاً، كان أوضح للمنطق، وآنق للسمع، وأوسع لشعوب الحديث.

كتابة الأمثال:

يرجع الاشتغال بالتأليف في الأمثال إلى أوائل عصر الخلفاء الأمويين، لكنه لم يصلنا شيء من كتاباتهم، بل يُعَدُّ كتاب (أمثال العرب) للمفضل الضبي – الذي توفي نحو (١٧٨) هـ – أقدم كتاب وصل إلينا في الأمثال، أما أروعُ وأجمع كتاب أُلِّف في الأمثال، فإنه (مجمع الأمثال) لأبي الفضل أحمد بن إبراهيم الميداني (ت ١٥٨) هـ، ويقع في جزأين كبيرين، جمع فيهما أكثر من ستة آلاف مَثَل.

أصل الأمثال:

يقول صاحب جمهرة الأمثال البغدادية: أميل إلى القول: إن لكثير من الأمثال قصةً بُنِي عليها المثِل، فمن تلك القصـــص ما بقي متداولاً مع المثل، ومنها ما اندثر وبقي المثِل متداولاً دون معرفة قصته.

وقد تكون القصـة أصـلاً حقيقيًّا للمثل، وقد تكون موضـوعة، وقد تُروى القصـة على لسـان الحيوانات، وهي لا شـك موضـوعة، وقد يختلف الناس في رواية القصـة الواحدة، وقد يحكى للمثل أكثر من قصة.

أنواع المثل:

يكون المثل واردًا في القرآن الكريم، أو في الأحاديث الشـــريفة، وقد يكون من قول حكيم أو شاعر، أو نتيجة حادثة أو قصة معينة .. قاله أحد الناس.

أما عن الفَرق بين الأمثال والحِكم، فيقول الأستاذ (محمد قنديل البقلي):

الأمثال عناوينُ لقصـــص جرَتْ، وكان لها أحداث وقعت لأعيان بعينهم أول الأمر، وكذلك الحكمة، ولكن الفَرْق بين الاثنين أن المثل لم يتحلل من أشـــخاص القصـــة، على حين أن الحكمة تحللت من الأشـخاص .. فالأمثال تبدو حسـية، على حين تبدو الحكمة معنوية ... ثم إن التجربِة المثلية تجرِبة عامة، على حين أن التجربِة الحكمية تجرِبة تكاد تكون خاصـــة، أعني: أن المثل يمليه الخاص كما يمليه العام، والحكمة لا يمليها إلا الخاص في الأكثر، ومن أجل ذلك كانت الأمثال بلُغَة الخاصـة مرة، وبلُغَة العامة مرة، على العكس من الحكمة التي لم تَجِئْ إلا على لسان الخاصة.

رحلة في عالم الأمثال:

وردت في القرآن الكريم آياتٌ عظيمة، فيها تذكرة للناس وبيان لطريق الهدى لهم، ونلمح بينها آيات فيها تشبيه للمعقول بالمحسوس، وذلك بضرب مثل لتقريب الصورة إلى أذهان الناس بما يعايشونه محسوسًا واقعًا في حياتهم العملية، لتأخذ الفكرة مجالَها إلى النفس وتستقر في القلب، وتغدو لوحـة معلَّقة على باب الفؤاد، فيهـا الحكمـة والعِبرة والعظة، من ذلـك قوله تعـالى:

{مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ} [البقرة: ١٧] .. {أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ} [البقرة: ١٩] الآية، وقوله عز وجل: {مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} [هود: ٢٤]، وقوله جل شأنه: {وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ} [الحج: ٣١].

وحتى نعرف مدى فائدة ضرب المثل وتشبيه المعقول بالمحسوس، فإننا نقتطع هذا التفسيرَ المبدِع من (الظلال)، عندما يلقي صاحبه – رحمه الله – ظلالاً على قوله تعالى: {فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ * كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ * فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ} [المدثر: ٤٩ – ٥١].

ومشهد حُمُرِ الوحش وهي مستنفرة تفرُّ في كل اتجاه، حين تسمع زئير الأسد وتخشاه – مشهدٌ يعرفه العرب، وهو مشهد عنيف الحركة، مضحك أشدَّ الضحك؛ حيث يشبه به الآدميون حين يخافون! فكيف إذا كانوا إنما يفرون هذا النفار الذي يتحولون به من آدميين إلى حُمُر، لا لأنهم خائفون مهدَّدون، بل لأن مذكِّرًا يذكرهم بربهم وبمصيرهم، ويمهد لهم الفرصة ليتَّقوا ذلك الموقف المهين، وذلك المصير العصيب الأليم؟! إنها الريشة المبدعة ترسُمُ هذا المشهد وتسجِّله في صُلب الكون، تتملاه النفوس فتخجل وتستنكف أن تكون فيه.

كما وردت في الحديث الشريف أمثال كثيرة، حتى نقل عن عبدالله بن عمرو قوله: حفظتُ عن النبي صلى الله عليه وسلم ألف مثل!

من ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: ((أخبروني بشجرةٍ كالرجل المسلم، تؤتي أُكلَها كل حين بإذن ربها، لا يتحاتُّ ورقها؟ ثم قال: هي النخلة)).

((إن الجنة تحت ظلال السيوف))، ((إن مَثَل العلماء في الأرض مَثَل النجوم في السماء يُهتدى بها في ظلمات البر والبحر، فإذا انطمست النجوم أوشك أن يضل الهُدى))، ((إياكم وخضراء الدمن))، قيل: وما خضراء الدمن؟ قال: ((المرأة الحسناء في منبت السوء))، ((مثل المؤمن مثل السنبلة، تقوم أحيانًا وتميل أحيانًا))، ((يا أنجشة، رويدًا سوقَك بالقوارير))، سميت النساء قوارير؛ لأنهن شبهنها بالرقة واللطافة وضعف البِنية.

هذا وتحوي كتب الأمثال – إلى جانب بعض الأمثال – قصصًا غريبة وعجيبة، سواء أكانت حوادث فردية أم جماعية، كما أن فيها من الوقائع التاريخية والأحوال الاجتماعية ما لا

يُستهان بتدوين بعضها، والتنويه بشأنها، وإعادة استذكارها، وكتابة قصصها بلُغَة سهلة تقرب إلى أفهام الشباب والناشئين، حتى لا ينسَوْا شطرًا من تراثهم .. هو جزء عزيز من تاريخهم الأدبي.

ومن القصص الجميلة، بل والعجيبة أيضًا، التي تذكرها كتب الأمثال مبينة سبب ورود المثل والجوانب العامة المحيطة به: "أحلم من الأحنف"، "استراح من لا عقل له"، "ترى الفتيان كالنحل وما يدريك ما الدخل"، "خطب يسير في خطب كبير"، "كيف أعاودك وهذا أثر فأسك"، "الجار قبل الدار والرفيق قبل الطريق" ... وغيرها كثير، ولو لم يطُلْ بنا المقال لسردنا للقارئ قصة منها، ولكننا نذكر رؤوس الأقلام وننبه إلى أهمية الأمثال.

وأعيد إلى الذاكرة أن أدباءنا ومؤرخينا المسلمين اعتنوا بهذه الأمثال، ورأوا فيها تعبيرًا عن الواقع، وإقرارًا لمواقف أدبية واجتماعية تاريخية حاسمة، وأشاروا إلى الفائدة التي تُجنى من وراء كل مَثل.

ولا أدري هل أكون مصيبًا إذا قلت: إن معظم الأمثال التي وردت في تراثنا هي التي حدثت في العصر الجاهلي أم لا أكون مصيبًا في ذلك! كما أن الكثير من الأمثال التي لم ترِدْ لها قصص قيلت في العصر الجاهلي أيضًا.

ولذلك فإنني أقترح على الكتَّاب المهتمين بالأدب الإسلامي – وبخاصة القديم منه – أن يفردوا الأمثال التي قيلت في العصر الإسلامي ابتداءً من عهد النبوة؛ ذلك أنها أصفى في الدلالة على واقع أمة نحن مرتبطون بها وأفهم لواقعها، وهي أكثر قربًا والتصاقًا بأفكارِنا وعقائدنا وسلوكنا من الأمثال الجاهلية التي حدثت في ظروف وبيئة خاصة، وبلغة صعبة لا تُفهَم إلا بالشرح والتبسيط.

ولا يعني هذا الغض من قيمة تلك الأمثال، ما دامت فيها دروس وفوائد تفيد المسلم في حياته؛ فالحكمة ضالَّة المؤمن أنى وجدها فهو أحقُّ بها.

لكنني أرى هذا الإفراد والتقسيم يكون أكثر فائدة، وأنجح إخراجًا، والله من وراء القصد.

(نشر في "المجلة العربية" بالرياض ع ٩٣ (شوال ١٤٠٥هـ))

(٦)
خطورة ألف ليلة...

يقول المفكر الإسلامي الموسوعي الأستاذ أنور الجندي رحمه الله:

من أخطر شبهات التغريب محاولة اعتبار كتاب "ألف ليلة وليلة" مصدراً تاريخياً ممثلاً لحياة العالم الإسلامي، فقد جرت محاولات متعددة لاعتبار القصص الذي تضمه ألف ليلة ممثلاً لحياة العرب والمسلمين بصفة عامة، بينما تكشف أقل مراجعة لمصادر ألف ليلة عن أنه تراث إيراني وهندي سابق للإسلام، وأنه لا يمثل بحال صورة المجتمع الإسلامي.

وقد حكى المؤرخ الكبير المسعودي (ت ٣٤٦ هـ) في كتابه "مروج الذهب" عن وجود كتاب قديم بالفارسية أو بالفهلوية يحكي عن ملك وعن بنت وزيره (شهرزاد) وخادمتها دين زاد، وقد أشار إليه ابن النديم في الفهرست مجملاً، وقال: إنه كتاب الحماقة والسيئات، كما أشار إليه المؤرخ القرطبي.

وقد كانت كل إشارات المؤرخين المسلمين إليه تحمل طابع الرفض والامتهان، والنص على أنه مصدر ساقط في أنظار العلماء والباحثين، على حدِّ عبارة الدكتور سنيتي كمارجترجي، في مجلة ثقافة الهند (يناير ١٩٦٢ م).

ومعنى هذا أن لكتاب ألف ليلة أصلاً كان سابقاً للإسلام، وأن مصدر أساطيره هندية وفارسية، وقد ظل العرب يتناقلونه بعد ترجمته كوسيلة من وسائل الترف، ويضيفون إليه حكايات جديدة، كما أضيفت إليه في العهود المختلفة، وآخرها عهد دولة المماليك ومسامرات أهل بغداد والقاهرة.

ومن هنا نرى خطر الاستعانة به كمصدر لدراسة حياة المجتمع الإسلامي، بل على حد اتجاه بعض المستشرقين ودعاة التغريب من اعتباره مصدراً وحيداً، في رسم صورة زائفة.

ومما يُذكر أن أول من أبدى اهتماماً إزاء ألف ليلة وليلة هو جاسوس إنجليزي مغامر (ريتشارد بيرتون) عام ١٨٨٣ م، وهو واحد من أولئك الذين كانوا يتخفون في زياراتهم للبلاد العربية، ويلبسون العباءة العربية، أمثال لورنس وفيلبي، وكان يطلق على نفسه في دمشق الحاج عبدالله، والمعروف أنه تصرف في النقل على النحو الذي يخدم أهدافه.

ومن الحق أن يقال: إنه مهما تكن صورة الحياة التي ترسمها ألف ليلة فهي ليست قطعاً صورة المرأة العربية أو المسلمة، فقد غيَّر الإسلام نظرة المرأة إلى الحياة كما غيَّر واقعها تماماً، فلم تكن في مفهومه ولا في مجتمعه الأصيل أداة جنس أو مصدر غايات حسية كما كانت في مفهوم المجتمع الوثني أو الجاهلي، وحتى بعد أن اضطربت الحياة في المجتمع الإسلامي فقد ظل هناك فارق واضح وحاجز كبير بين ما كانوا يسمونها "الغانية"، وبين ذات الصون والعفاف.

وقد حوى ألف ليلة صورة مشوهة عن المجتمع الإسلامي، يزيد في زيفها أن قصصه تمثل أمماً مختلفة وعصوراً متباينة، وأن الجانب الأكبر منه كان موجوداً قبل الإسلام. وقد أضاف المترجمون الغربيون –بالقصد العمد، القائم على التعصب والخصومة– أضافوا إلى بشاعة الصورة التي يحملها الكتاب إضافات زادته فساداً. فقد أشار "غالان" المستشرق الفرنسي الذي ترجم ألف ليلة لأول مرة عام ١٧٠٤ م بأنه "فرنج" الكتاب ليلائم ذوق قارئه، وأنه ركز على صور الرفاهية والترف، وأنه عمد إلى رسم ما سماه: صورة الشرق الحيواني!

(الشبهات والأخطاء الشائعة لأنور الجندي، ص٣٧٤، مع قليل من الاختصار)

(٧)
حزن على فراق

عاطفةٌ وحنانٌ غلبَ على قلبِ أب، فقال قُبيل خِطبة ابنته، في رؤى رآها، علم أنها ستفارق الأسرة:

(١)

طارتْ شفاء.

ومَن لا يعرفُ شفاء؟!

فراشةُ البيتِ شفاء.

قرَّةُ العين شفاء.

سلوةُ النفس شفاء.

نسمةُ الروح شفاء.

فرحةُ البشرى شفاء.

عسلُ النحل شفاء.

جنةُ الأرض شفاء.

(٢)

شفاءُ دوحةُ البلابلِ.

شفاءُ زهرةُ الخمائلِ.

شفاءُ منظرُ الأصائلِ.

(٣)

شفاءُ ثقيلةٌ في الميزان.

شفاءُ من حورِ الجنان.

شفاءُ على كلِّ لسان.

(٤)

دمعةُ العينِ شفاء.

آهةُ النفسِ شفاء.

حرقةُ القلبِ شفاء.

زفرةٌ حرَّى شفاء.

همٌّ الفراقِ شفاء.

حسرةُ الوداعِ شفاء.

شفاءُ يا شفاءُ يا شفاء.

(١٤٣١/٤/١١ هـ).

الباب الثامن
التاريخ والتراجم

أولًا: التاريخ

(١)
التأريخ بالهجرة
شؤون وشجون

الذي لا يستخدمُ التاريخَ الهجريَّ في شؤونهِ العلميةِ والعملية،
ويستخدمُ التاريخ الميلاديَّ (وهو تأريخُ النصارى)،
فهو إما أنه يحبُّ ذلك التاريخَ دون تاريخِ المسلمين،
فهذا مع هواهُ ونحلته،
أو أنه يرَى هذا الاستعمالَ أفضل،
فيتخذهُ نهجًا،
ولا يهمهُ تأريخهُ الإسلاميُّ وما استعملَهُ أعلامُ أمتهِ والغيورون على الدينِ منذ الهجرةِ وحتى اليوم،
فهذا إمَّعة، انهزاميّ، ضعيفُ الشخصية،
يقلِّدُ القويَّ ولو كان مخطئًا،
ويتركُ الضعيفَ ولو كان صحيحًا.
أو أنه لا مبالٍ،
فلا يَسألُ عن ذلك ولا يشغلُ نفسهُ به،
واللامبالاةُ مرضٌ أصيبَ به كثيرٌ من المسلمين،
وخاصةً في هذا العصر،
وهو من أسبابِ غفلتهم وتأخرهم،
ومن كتبَ التاريخين لدواعٍ حسابية أو وطنيةٍ فلا بأس.
وإذا كانت الدولُ تتعاملُ بالتأريخِ الميلادي،
فلا يلزمُ منه أن يغفلَ المسلمُ عن تأريخهِ الإسلاميِّ في شؤونه،
أو يستعملُ التأريخين على الأقل،

اعتزازًا بتأريخهِ أولًا،

ومداراةً لأحوالٍ له يُجبَرُ فيها على استعمالِ التأريخِ الآخر، ثانيًا.

وليُعلمْ أن التأريخَ بالهجرةِ سنَّةٌ سنَّتها الخلافةُ الراشدة،

وقد أمرنا رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ أن نلتزمَ بسنَّتهِ وسنَّةِ الخلفاءِ الراشدين من بعده،

وأن نَعَضَّ عليها بالنواجذ.

فلا يُترَكُ التأريخُ الهجريُّ أبدًا،

ولا يُستهانُ به.

(٢)
مقارنة على استحياء!

المسلمون يذكرون من قبلهم بخير، بل بحبّ وإعجاب، ويقولون عنهم (السلف الصالح)، وهذا من أدب الإسلام في ذكر الأموات، واستجابة لوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك: "اذكروا محاسنَ موتاكم"، وقوله عليه الصلاة والسلام: "إذا ماتَ صاحبكم فدَعوه، لا تقَعوا فيه" الذي رواه أبو داود وصححه في صحيح الجامع. وأثنى الله في كتابه الكريم على من دعا بقوله: {رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلّاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ} [سورة الحشر: ١٠].

ولا يعني هذا أبداً التغاضي عن أخطائهم، فتقديس الأشخاص شيء، وذكرهم بخير شيء آخر، ولا عصمة في الإسلام إلا لكتاب الله ورسوله.

وهكذا أئمة الإسلام وخلفاؤه من الصالحين الذين حكموا البلاد وخدموا العباد بإخلاص، كانوا هم أيضاً يذكرون من قبلهم من الخلفاء والأمراء بخير، وفاء لهم، واعترافاً بفضلهم، وأكثرهم في هذا أدباً ومحبة هم الخلفاء الراشدون رضي الله عنهم، وخاصة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، فكان يذكر سلفه أبا بكر الصديق بخير وإعجاب شديد، على الملأ، وبين الأصحاب، حباً له، وتعليماً للمسلمين بالوفاء، وترسيخاً لمبدأ إسلامي، وهو أن يُنسب الفضل لأهله، وأن تُذكر الفضائل الإسلامية وتنشر، وبيانًا للأجر العظيم لمن سنَّ سنة حسنة، وإشادة بشيوخ الإسلام وقادته العظام، الذين ثبتوا على هذا الدين، ونشروه، وأنفقوا أموالهم في سبيله، وقدَّموا أرواحهم فداء له.

وكان أبو بكر الصاحب الأول لرسول الإسلام عليه الصلاة والسلام، وأول من أسلم، وأنفق كلَّ أمواله في سبيل الإسلام، وأول خليفة للمسلمين، مخلصًا، ذا عزيمة ورأي راجح في الإسلام، وكان عمر يجلُّه لأجل ذلك، ويعرف تاريخ جهاده في هذا الدين، فما قدَّم نفسه عليه مرة واحدة ليرفع من شأن خلافته وطول مدَّته في خدمة المسلمين والعدالة بينهم، بل كان يقول بكل تواضع (كما وردت الأخبار في تاريخ الخلفاء للسوطي): أبو بكر سيِّدنا.

ويقول معجبًا بقوة إيمانه: لو وُزنَ إيمانُ أبي بكر بإيمان أهل الأرض لرجح بهم!

ومن أجمل أقواله فيه: لوددتُ أني شعرةٌ في صدر أبي بكر!
وبلغ من حبِّه له وثقته به أن قال: وددتُ أني من الجنةِ حيث أرى أبا بكر!
وورد في كتب الأدب أنه سمع منشداً يُنشد:

ما ساسنا مثلك يا ابن   أبرَّ بالأقصى وبالأصحابْ
بعد النبي صاحب الكتابْ

فنخسهُ عمر وقال: أين أبو بكر ويلك؟!
نعم.. هكذا كان الوفاء.. وهكذا يكون الأدب!
ويقول فيه الخليفة الرابع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: والذي نفسي بيده ما استبقنا إلى خيرٍ قطُّ إلا سبقَنا إليه أبو بكر!
وقال معترفًا ومشيدًا بالخليفتين الأولين: خيرُ الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر وعمر.
أما عمر، ففضائله كثيرة، ونحن ننقل ما قال الخلفاء المتأخرون عمن قبلهم، وقد قيل لأبي بكر في مرضه: ماذا تقول لربك وقد وليت عمر؟ قال: أقول له: وليتُ عليهم خيرهم.
وقال قبل ذلك: ما على ظهر الأرض رجل أحبُّ إليَّ من عمر.
وقول عليّ رضي الله عنه: إذا ذُكرَ الصالحون فحيهلا بعمر.
وباعتراف جميل من الخليفة معاوية ورد قوله: أما أبو بكر فلم يُرِدِ الدنيا ولم تُرده، وأما عمر فأرادته الدنيا ولم يُرِدها، وأما نحن فتمرَّغنا فيها ظهرًا لبطن!
أما من كان حكمه مُلكاً في الإسلام أو غصبًا، فمن الطبيعي ألاّ يقول مقولة أبي بكر وعمر وعليّ، إلا من هداه الله فقال بمقولتهم، وسلك نهجهم، مثل الخليفة العادل عمر بن عبدالعزيز رحمه الله..
فإذا كان عمر بن عبدالعزيز أُقعد عندما أخبر بالخلافة لشعوره بثقل المسؤولية عليه، فإن المؤرخين يذكرون عن عبدالملك بن مروان أنه قال لمّا أفضى الأمرُ إليه، والمصحف في حجره، أطبقه وقال: هذا آخر العهد بك!

ويعني الانشغال به، فقد كان طالب علم مجتهدًا، عالمًا بالحديث والأدب.

وممن يُذكرون منهم بخير سليمان بن عبدالملك، الذي قال فيه ابن سيرين رحمه الله: يرحم الله سليمان، افتتح خلافته بإحيائه الصلاة لمواقيتها، واختتمها باستخلافه عمر بن عبدالعزيز. وقد مات غازيًا بدابق.

لقد نظر هذا الخليفة في المرآة، فأعجبه شبابه وجماله، فقال: كان محمد صلى الله عليه وسلم نبيًّا، وكان أبو بكر صدِّيقًا، وكان عمر فاروقًا، وكان عثمان حييًّا، وكان معاوية حليمًا، وكان يزيد صبورًا، وكان عبدالملك سائسًا (سياسيًّا)، وكان الوليد جبّارًا، وأنا الملك الشابّ!

ولكن ما دار عليه الشهر حتى مات!

ولو نظرنا إلى الطامَّة التي أصيب بها المسلمون في هذا العصر، وما نُكبوا به في رؤساء اغتصبوا الحكم من الشعب ومن الرؤساء السابقين، لعرفنا كيف يذكرونهم!

إنهم يذكرون مثالبهم ونقائصهم وقبائحهم كلَّها، وزيادة عليها، ولا يدعون شيئاً منكراً وقبيحاً إلا ألصقوه بهم، ويُخرجون أوراقهم القديمة، ويكشفون علاقاتهم المشبوهة، والأموال التي نهبوها، والفواحش التي ارتكبوها، والسجون التي ملؤوها.. الخ. وقد يكون أكثر ما يقولون في ذلك حقاً، ولكنهم بالتأكيد أسوأ منهم، وأكثر بشاعة في القتل والنهب.. وكلٌّ يذكر الآخر بمثالبه وهو أسوأ منه، لأنهم لا يخدمون ديناً واحداً فيه رفعتهم جميعاً، بل يخدمون مناصبهم وشهواتهم، ولا يحبون أن يتقدمهم في هذا أحد! والله المسؤول أن يخلِّصنا من هؤلاء وهؤلاء جميعًا!

ثانيًا: التراجم

(١)
قناة الأعلام والوفيات!

نقلت وكالات الأنباء خبراً فريداً تستعدُّ له ألمانيا، وهو بثُ قناة فضائية خاصة بكبار السن (من ٥٠ سنة فما بعد) متخصصة في إذاعة أخبار الوفيات والجنازات، بدءاً من ترتيبات الدفن حتى المقبرة، مروراً بتفاصيل الجنازة، وقد أطلق عليها اسم "ايتوس تي في" ذكر هذا في رجب من سنة ١٤٢٨ هـ.

وأعتبر هذا إبداعاً في تنوع الإعلام، مع فوائد ومنافع لا تخفى، في مقابل "إبداعات" فضائياتنا في موضوعات متدنية ومخزية!

وقد أحببت أن أقترح أمراً مفيداً في هذا، وهو إنشاء قناة متخصصة في أعلام الأمة، ولا أعني الأعلام الذين ابتليت بهم أمتنا منذ سقوط الخلافة الإسلامية، الذين يجدون من يطنطن ويدندن لهم من أصحاب الضمائر القابلة للبيع والشراء، في وسائل الإعلام المختلفة، ولكن أعني أعلام أمة الإسلام، المخلصين لدين الله الحنيف، من العلماء، والفقهاء، والأصوليين، والقضاة، والمحدِّثين، والقرّاء، والمفسِّرين، وعلماء العقيدة والكلام، والتربويين وأهل السلوك، وعلماء الاجتماع، واهل البر والإحسان، وعلماء اللغة والنحو، والبلاغيين، والأدباء والشعراء الملتزمين، وعلماء الطبيعة والكيمياء وأنواع العلوم البحتة والتطبيقية، من الأطباء والمهندسين والرياضيين وغيرهم، وأهل الفن والعمارة، والمؤرخين، والجغرافيين، والمكتشفين، الذين ملؤوا سماء الحضارة بالعلم النافع والثقافة المفيدة،.

وفي سيرهم وذكر فضائلهم وآثارهم ما يعيد الثقة بالنفس، ويحفز الهمم إلى العمل والإنتاج، مع التأثر والاقتداء برجالات الأمة المقتدرين.

بل يتناول جميع الأعلام السابقين والمحدَثين، إما في حياد وموضوعية بإعطاء معلومات تاريخية وواقعية عنهم، أو مع التنبيه إلى ما يلزم من الهفوات والأخطاء فيمن جانبه الصواب منهم، في حكمة ونقد علمي.

ومن الفوائد الجمة لهذه القناة، هو ربط العالم العربي والإسلامي من خلال التعريف بالأعلام السابقين والموجودين مع بيان أنشطتهم وبحوثهم ومؤلفاتهم العلمية، وذكر الوفيات الحاضرة من خلال مراسلي القناة الموزعين في أنحاء العالم، فإنه تمرُّ السنة والسنوات ولا يعرف المسلمون الحي من الميت.

وبرامج القناة ستجمع بين القديم والحديث، وتنوّع في الموضوع والإخراج، من ذكر تراجم خفيفة ميسرة، إلى سيرٍ مطولة في حلقات، إلى لقاءات مع أعلام فيها تركيز على الحياة العلمية والعملية، والمهم هو ذكر الآثار العلمية، وبيان المطبوع والمخطوط، وما حقق من المؤلفات القديمة للأعلام، والتنبيه إلى المفيدة والرائعة منها التي مازالت ترقد في خزائن المخطوطات... لا شك أن مثل هذا يُحدث حركة فكرية جيدة، وموجة ثقافية رائعة، ويربط الشباب بدينهم وتراثهم وإخوانهم في البلاد الأخرى. والله الهادي.

(٢)

أبو أمامة الباهلي

(٢١ ق.هـ، ٦٤١م – ٨٦هـ، ٧٠٥م)

صُـــدَيُّ بن عَجْلان بن وهب الباهلي، أبو أُمامة، من قيس عَيْلان، جعله بعضـــهم من بني سـهم بن عمرو، وخالفه غيرهم، ولم يختلفوا في أنه من باهلة، وذُكر في اسـم والده غير ذلك، لكن الراجح ما أُثبت بكنيته، وكان من أشراف قومه.

ولادته سنة (٢١ ق.هــ) على الصحيح، فقد تحدث لجماعة عن "حجة الوداع"، فسُئل عن عمره يوم ذاك، فذكر أنه كان ابن ثلاثين سنة، وقد رواه البخاري في "التاريخ الكبير"، وسنده حسن أو صحيح.

صحِب النبي صلى الله عليه وسلم، وسمع منه، وروى عنه، وحدَّث عن عمر، وعثمان، وعلي، وأبي عبيدة بن الجراح، ومعاذ بن جبل، وغيرهم، رضي الله عنهم.

وروى عنه خالد بن معدان، وسالم بن أبي الجعد، ورجاء بن حَيْوة، وشهر بن حَوْشب، ومحمد بن زياد الألهاني، وآخرون، رحمهم الله.

روى له الجماعة، وله في الصـــحيحين (٢٥٠) حديثًا، وأحاديث وأخبار وأقوال في مصـــادر أخرى عديدة، فكان من المكثرين من الرواية، وأكثرُ حديثه عن الشاميين.

عاش عصـــر النبوة، وعصـــر الخلافة الراشـــدة، وجزءًا كبيرًا من عصـــر بني أمية، حتى خامس خلفائهم، ورُوِي أنه كان ممن بايع النبيَّ صـلى الله عليه وسـلم تحت الشـجرة، وهي المسـماة ببيعة الرضـوان، وكانوا (١٤٠٠) صـحابي، شـارك في غزوات عديدة، ويأتي ما يفيد أنه كان محاربًا محنكًا، وقد أورد أبو نُعَيم في "الحلية" ما يستنتج منه أنه حضر بدرًا، وأخرج الطبراني ما يدلُّ على أنه شـهد أُحُدًا، لكن بسند ضعيف، وله مع رسول الله أخبارٌ طيّبة، وكان موضع ثقتِه – عليه الصـلاة والسـلام؛ فهو أحد رجالات الدعوة المتمكنين في صـدر الإسـلام، وقد ورَد بإسناد حسن رواه الطبرانيُّ أن الرسولَ صلى الله عليه وسلم أرسله إلى قومه لدعوتِهم إلى الإســـلام، ونهيهم عن أكل الميتة وما إليها، فذهب إليهم ودعاهم إلى ذلك، فكذَّبوه وردُّوه، وكان جائعًا ظمآن، فما أطعموه ولا سـقَوْه، فنام ورأى أنه أُتي بشـربة لبن فشـرب وشـبع، ثم

قالوا: أتاكم رجل من أشـــرافكم وســـراتكم فرددتموه، اذهبوا إليه وأطعِموه، فذكَر لهم أنه أُطعِم وسُـقِيَ في المنام فهو شبعان ريان، ولم يطعَمْ لهم شـيئًا ولم يشـرَبْ، ورأوا من حاله ما يُصـدِّقُ ذلك، فأسلَموا عن آخرهم!

ومِن أخبارِه مع الرسـول صـلى الله عليه وسـلم ما رواه أحمدُ بإسـناد صـحيح وآخَرون أنه أراد غزوةً فقال: يا رسول الله، ادعُ لي بالشـهادة، فقال: ((اللهم سلِّمْهم وغنِّمْهم))، قال: فغزونا، فسلِمْنا، وغنِمْنا، وقلت: يا رسول الله، مُرْني بعمل، قال: ((عليك بالصومِ؛ فإنه لا مِثْلَ له))، فكان أبو أمامةَ وامرأتُه وخادمُه لا يُلفَوْن إلا صيامًا.

ثم إنه طلَب من رسـولِ الله صـلى الله عليه وسـلم أن يأمرَه بأمر آخرَ عسـى الله أن ينفَعَه به، فقال له: ((اعلَمْ أنك لا تســـجد لله ســـجدةً إلا رفَع اللهُ لك بها درجة، وحطَّ عنك بها خطيئة))؛ (صحيح الجامع الصغير رقم ١٠٦٩).

ومن خلال صـحبته لرسـول الله صـلى الله عليه وسـلم عدَّدَ مِن صـفاته جانبًا جميلاً، فذكر أنه "كان من أضـــحكِ الناس ســـنًّا وأطيبه نفسًـــا"؛ (رواه ابن أبي الدنيا في "مداراة الناس" رقم ١٥٣، والطبراني في المعجم الكبير رقم ٧٨٣٨، وفيه علي بن يزيد الألهاني وهو ضعيف، ولعله يتقوَّى بطريق أخرى للحديث ورد في المصدر الأول منه).

وله أخبار أخرى يفهم منها أنه كان مطَّلعًا على أحوال النبي صــــلى الله عليه وســــلم، خبيرًا بالمجتمع المدني؛ فهو يسأل ويروي ويشارك في مناحي الحياة المختلفة.

شـهد فتح مصـر وسـكنها، ثم انتقل إلى الشـام ونزل حمص، روى عِلمًا كثيرًا، غزا وتعبَّد ودعا بعزيمة وإيمان وصـــبر، وكان يحُثُّ على وحدة الصـــف، ويحذِّر من الفُرقة، ويقول عن الأزارقة: "إنهم شرُّ قتلى"، وقد ذُكر أنه كان مع عليٍّ في "صِفِّين"، وأورد محمد بن سعد قوله: "شهدت صِـــفِّين فكانوا لا يجهزون على جريح، ولا يطلبون مولِّيًا، ولا يســـلبون قتيلاً"، ولا يعني هذا بالضـرورة أنه شـارك في الحرب، ولعل كونه مع علي في صِفِّين في أول الأمر قبل بدء الحرب؛ فقد نقل ابنُ كثير في "البداية والنهاية" أن أبا الدرداء وأبا أمامة لم يشـــهَدا قتالاً، بل لزِما بيوتهما، وذلك بعد أن سمعا مقالتَيْ معاوية وعلي بنفســيهما، في محاورة جرت بينهم، بل ذكر من قبل أنه كان المحرِّضين على المطالبة بدمِ عثمان.

وكان فارسًا شجاعًا عارفًا بالخطط الحربية مع مكرٍ ودهاء، حائزًا على ثقة مسؤوليه، يُستعمل في المواقف الصعبة، فكان طليعةَ الجيش الذي فتح دمشق، وقد اختاره أبو عبيدة بن الجراح وبعثه بين يديه، وحكى كيف أنه عندما فُتح باب المدينة فجرًا قتل البواب وعاد، في خدعة لطيفة وتوزيع أدوارٍ مع صاحبين له.

وفي السنة الثالثة عشرة أمَّر أبو بكرٍ يزيدَ بنَ أبي سفيان على جيش عظيم، ووجَّهه إلى الشام من ضمن مَن وجههم إلى هناك، وعندما اجتمع للروم جمعٌ بـ "العربة" من أرض فلسطين وجَّه إليهم يزيدُ أبا أمامة، فهزَمهم وغنِم منهم، وقتل منهم بِطريقًا عظيمًا، فكان ذلك أولَ قتال بالشام بعد سرية أسامة بن زيد، ثم أتوا المدائن (قرب غزة) فهزمهم أيضًا، ثم "مرج الصفر" التي استُشهِد فيها جماعة من المسلمين وتمكَّن هو من الانسحاب.

وكان يتردد على الخلفاء والولاة، ويشارك في الحياة السياسية ناصحًا وموجِّهًا، وفي الحياة العِلمية والاجتماعية كذلك، وقد مر أنه حاوَر عليًّا ومعاوية في أمرهما، وأخرج البخاري في تاريخه الكبير قول حُميد بين ربيعة: إنه رأى أبا أُمامة خارجًا من عند الوليد بن عبدالملك في ولايته سنة ست وثمانين، كما أنه عاد خالدَ بن يزيد بن معاوية وهو أميرُ حِمص فألقى إليه متَّكأ من حرير، فتنحَّى عنه ونصحه، وفي آخر حياته مرض واستأذن الوالي أن يخرج من مدينة حمص إلى قرية قريبة منها.

وكان عالِمًا مصلحًا، يُحدِّث ويعلم ويبلِّغ ما شاء، ويقول: "أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بتعليم القرآن وحثنا عليه"، وصار له تلامذةٌ يقصِدونه من الآفاق، قال سليم بن عامر: "كنا نجلِسُ إلى أبي أمامة فيحدثنا حديثًا كثيرًا عن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ثم يقول: اعقِلوا وبلِّغوا عنا ما تسمعون"، وذكر سليمان بن حبيب أنه قال لهم: "إن هذه المجالسَ من بلاغ الله إياكم، وإن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قد بلَّغ ما أرسل به إلينا، فبلِّغوا عنا أحسنَ ما تسمعون"، وكان حريصًا على الدعوة والتبليغ، يحدِّث كالرجل الذي عليه أن يؤدِّي ما سمع، دخل جماعة عليه في مسجد حمص فقال لهم: "إن دخولَكم عليَّ رحمةٌ لكم، وحجَّةٌ عليكم، ولم أرَ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم من شيء أشدَّ خوفًا على هذه الأمَّة من الكذب والعصبيَّة، ألا وإياكم والكذبَ والعصبية، ألا وإنه أمرنا أن نبلِّغَكم ذلك عنه، ألا وقد فعَلْنا فأبلِغوا عنا ما بلَّغناكم".

وكان حكيمًا مجتمعَ العقل، رأى في سيوف بعض المجاهدين حُلِيًّا فقال: "أما واللهِ لقد فُتِحت الفتوحُ بسيوف ما حِلْيتُها الذهبُ والفضة، ولكن حِليتُها العَلابِيُّ والآنُكُ والحديدُ"؛ (أي العَصَب والرَّصاص).

وله وعظٌ وتذكير في المناسبات، كما روى خطبةً له الحاكمُ في "المستدرك" (٤٠٠/٢) وصححه.

وذكرت مولاةٌ له أنه كان رجلاً يحب الصدقةَ، ويجمع ما بين الدينار والدرهم والفلوس...، ولا يقفُ به سائلٌ إلا أعطاه ما تهيأ له، وكان لا يمرُّ بأحدٍ إلا سلَّم عليه، صغيرًا أو كبيرًا، ويقول: "أمَرنا نبينا صلى الله عليه وسلم أن نفشيَ السلام".

ومن أقواله رضي الله عنه: "حبِّبوا اللهَ إلى الناس يُحبِبْكم الله"، "المؤمن في الدنيا بين أربعة: بين مؤمن يحسُدُه، ومنافقٍ يُبغِضُه، وكافر يُقاتِله، وشيطانٍ قد يوكل به"، "كان الناس كشجرةٍ ذاتِ جَنًى، ويوشك أن يعُودوا كشجرةٍ ذاتِ أشواك".

وقد مات بقرية "دنوة" القريبة من حمص، وكان قد أصابه سلسل في البول، فاستأذن الواليَ ليكون هناك، وفي سنة وفاته اختلاف، أكثرها قيلاً هي (٨١) و(٨٦) هـ، ولعل الأكثر على الأخير، حتى قال ابن البرقي: إنه بغير خلاف! وقد روى البخاريُّ في تاريخه -كما مر- أنه رُئيَ خارجًا من عند الوليد بن عبدالملك في ولايته سنة (٨٦هـ)، ورواةُ سندِه معدَّلون جميعًا، وقد مات والده الخليفة عبدالملك بن مروان في منتصف شوال، فتسلم هو الخلافة من بعده في السنة نفسها، وتكون وفاة أبي أمامة في أواخر السنة المذكورة، ويكون قد عُمِّر (١٠٦) سنوات، وذُكر أنه آخرُ مَن مات بالشام من الصحابة، لكن الصحيح أن عبدالله بن بُسر مات بعده، في السنة نفسها أو بعدها.

المراجع:

- الاستيعاب في معرفة الأصحاب/ يوسف بن عبدالله بن عبدالبر القرطبي؛ تحقيق علي محمد البجاوي. - بيروت دار الجيل، ١٤١٢هـ، ١٦٠٢/٤.

- أُسْد الغابة في معرفة الصحابة/ عز الدين علي بن محمد بن الأثير الجزري؛ تحقيق خليل مأمون شيحا. - بيروت: دار المعرفة، ١٤١٨هـ، ٤٤٦/٢، ٣٧٥/٤.

- الإصابة في تمييز الصحابة/ ابن حجر العسقلاني؛ تحقيق علي محمد البجاوي. - بيروت: دار الجيل، ١٤١٢هـ، ٤٢٠/٣.
- البداية والنهاية/ إسماعيل بن كثير؛ تحقيق عبدالله بن عبدالمحسن التركي. - القاهرة: هجر للطباعة والنشر، ١٤١٧ - ١٤٢٠هـ، ٥٤٤/٩، ٥٧٠، ٤٢٥/١٠، ٥٠٨، ٣٧٦/١٢، ٤١٠، ٨٦/٢٠.
- التاريخ الكبير/ محمد بن إسماعيل البخاري. - بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت، ٣٢٦/٢/٢ رقم (٣٠٠١).
- تهذيب الكمال في أسماء الرجال/ أبو الحجاج يوسف بن عبدالرحمن المزي؛ حققه وضبط نصه وعلق عليه بشار عواد معروف. - بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٣هـ، ١٥٨/١٣.
- حلية الأولياء/ أبو نعيم الأصبهاني. - بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت، ١٠٧/٥، ١٧٥، ٣٧/٩.
- سير أعلام النبلاء/ شمس الدين الذهبي؛ تحقيق شعيب الأرناؤوط وآخرين. - بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠١ - ١٤٠٩هـ، ٣٥٩/٣.
- صفة الصفوة/ عبدالرحمن الجوزي؛ حققه وعلق عليه محمود فاخوري، خرج أحاديثه محمد رواس قلعجي. - ط ٣، مصححة ومنقحة ومزيدة. - حلب: دار الوعي، ١٤٠٥هـ، ٧٣٣/١.
- الطبقات الكبرى/ محمد بن سعد. - بيروت: دار صادر: دار الفكر، د.ت، /٤١١.
- الكامل في التاريخ/ عز الدين علي بن محمد بن الأثير الجزري؛ عني بمراجعة أصوله والتعليق عليه نخبة من العلماء. ط٤، تميزت بفهارس شاملة. - بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٣هـ، ٢٧٧/٢.
- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد/ نور الدين الهيثمي؛ بتحرير العراقي وابن حجر. - بيروت: دار الكتاب العربي، ١٣٨٧هـ، ٣٨٦/٩.
- مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر/ محمد بن مكرم بن منظور؛ تحقيق عدة باحثين. - دمشق: دار الفكر، ١٤٠٤ - ١٤٠٨هـ، ٧٦/١١.

(كتبت الترجمة بطلب من "موسوعة أعلام العلماء والأدباء العرب والمسلمين" الصادرة عن المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بتونس، نحو عام ١٤٢٦هـ)

(٣)
عباقرة الفكر الإسلامي في عصرنا

أكبر مفكر إسلامي، أحدث أكبر تأثير في الحياة الثقافية الإسلامية في عصرنا هو الأستاذ "**سيد قطب**" رحمه الله، الذي بدأ أديباً حتى لمع نجمه، ثم انتقل إلى حياة الجد والدعوة والجهاد، فانتمى إلى مدرسة الإمام حسن البنا، وشغف بمنهجه حتى الأعماق، وصار مفكرًا ومنظِّراً للدعوة، ثم أعلى مقامه أكثر بتفسير كتاب الله عز وجل، الذي ما إن يقرؤه المرء حتى يعجب من ثقافته الإسلامية والموسوعية الشاملة، ومن استنتاجاته وأفكاره وتحليلاته، وكلها تحرِّك العقل وتغور في أعماق الفكر، مع حلاوة الإيمان، وبيان عظمة الإسلام، وأسلوب أدبي مشوِّق. وكتبه متوفرة ومنتشرة ومترجمة إلى عشرات اللغات، ومن لم يقرأ له فكأنه لم يولَد! أو أنه ليس من عصرنا! أعني أنك قد لا تجد مثقفًا مسلمًا لم يقرأ له، فهو العلامة الفارقة في هذا الزمان.

ثم يأتي العلامة "**أبو الأعلى المودودي**"، مؤسس الجماعة الإسلامة في باكستان، ومجدد الإسلام فيها، وباعث النهضة الفكرية والإسلامية في أنحاء من العالم، الذي ما إن تقرأ له حتى تسلِّم بأنه فيلسوف الإسلام ومفكر لا ينافَس، ومنظِّر لا يُغالَب، وشجاع لا يهاب بطش الجبابرة والمستكبرين، أعلى مقامَ الأمة بكتاباته العلمية المنطقية المليئة بالأدلة والحجج القاطعة والمقنعة، التي لا يكاد يقرؤها أحد حتى يسلِّم بها، ويستسلم لها، ويعترف بعبقرية صاحبها، وإمامته في الفكر والثقافة المعاصرة.

وثالثهم العلامة "**أبو الحسن علي الحسني الندوي**" رحمه الله، رئيس ندوة العلماء بالهند، الذي جمع إلى علمه الغزير أدباً جماً، وفكراً ناشطاً، والتزاماً بالإسلام كما عرفه أهل السنة والجماعة، لا يحيد عنه، ولا يترفع على أحد منهم، بل يحسب نفسه خادماً لهم، وهو في قدر رفيع، ومكانة سامية، وهيبة وعلم، وكأنه مدرسة بنفسه، جعل حياته كلها للدعوة والتربية، ونشر الفكر الإسلامي الملتزم.

ثم يأتي الشيخ "**محمد الغزالي**" رحمه الله، الذي كان قمَّة في النشاط الإسلامي: دعوة إليه، ومنافحة عنه، وتكريساً لأحكامه. وكان ناراًّ على أعدائه، مع عزَّة في النفس، هي عزَّة المؤمن على الجاهلية والجاهليين، ونفسٍ عصامية تقدر أن تعيش وحدها في الحياة، إذا كانت هي

وحدها على الحق، وكانت كتبه منارة بيضاء، وشعلة ضياء في هذا العصر، للمسلمين عامة، وللمتكلمين بالعربية خاصة، وقد وجدوا فيها جميعاً الجديد والمفيد، والتنبيه إلى المكائد التي تكاد للإسلام والمسلمين، مع شجاعة في طرحها وكشف أصحابها، وقوّة فكر وأصالة، وذكاء وحجَّة في معالجتها والرد على أهلها، من المستشرقين والملاحدة والعلمانيين، الذي يعادون الإسلام وهم بين أهله، ويريدون إقصاءه من منهج الحياة في أرضه. لقد كان قذيفة حقٍّ مثل كتابه "قذائف الحق" {بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ} [سورة الأنبياء: ١٨]. وقد خاض معارك لأجل ذلك، وانتصر بانتصار الإسلام وعلوِّ حجته.

ويأتي بعد هذا آخرون من المفكرين الإسلاميين المعروفين، بمدارسهم وأساليبهم الخاصة والعامة في هذا العصر، منهم الشيخ "**محمد متولي الشعراوي**" رحمه الله، الذي أعاد حلاوةَ الإيمان إلى القلوب بعلمه الفائض وأسلوبه المتميز في الدعوة، وفي تفسير كتاب الله عز وجل، حتى غدا حديث الساعة، وقصة الناس في مجالسهم.

ولن يُعدم الحديث عن مفكرين عظماء آخرين في بلاد الإسلام، مثل العلامة "**عبدالحميد بن باديس**" باعث النهضة الإسلامية في الجزائر المجاهدة، ورئيس جمعية العلماء المسلمين بها.

و"**مالك بن نبي**" رحمه الله، الذي جابه حضارة الغرب بعظمة حضارة الإسلام، واحتجَّ بالدين والعقل والثقافة في مجابهة أعداء الدين، وبيَّن قوة الإسلام وعدالته في النطاق المعرفي والخلقي والاقتصادي..

ومن عظماء الفكر الإسلامي من الأحياء (وأنا أكتب هذا المقال) العلامة "**يوسف القرضاوي**"، الذي فرض نفسه شخصية عالمية بقامته الإسلامية الفارعة ودعوته العالمية، والذي جمع بين الأصالة والمعاصرة، فكان فقيه الأمة ومفكرها ورافع رأسها بين الأمم، وصار يضاهي القادة والرؤساء في شهرتهم وحضورهم، وخاصة بعد أن أسس واعتلى رئاسة "الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين"، بل إن شهرته فاقت شهرتهم واعتبر أكبر شخصية عالمية في إحدى السنوات، وأحد الشخصيات المهمة والمؤثرة في العالم كله، وكتبه متوفرة، وهي ناطقة بعلوِّ كعبه في الدين والعلم، وبثقافته العالمية، واطلاعه الواسع على السياسة العالمية، وحكمته وصبره في معالجة الأمور مهما كانت معقدة ومستعصية، ومؤثرة وحساسة، وقد خاض معارك مع الغرب، ومع

الملاحدة والعلمانيين كذلك، والفِرق وما إليها، والله يحفظه ويعزَّ الإسلام به وبأمثاله، من الذين يخلصون لله وحده، ولا يشركون بربهم أحداً.

ومنهم المفكر الإسلامي المعروف "**محمد عمارة**"، الذي تشهد له كتاباته بأنه كاتب إسلامي عبقري لا يُجاري، ومدافع قوي عن الإسلام ومبيِّن أصوله وثقافته، ومعلم للناس مبادئه وأهدافه وغايته، ولا تكاد تبرز آفة من آفات الغربيين والعلمانيين ضد الإسلام حتى تراه يبادر إليها ويجابهها بعلمه الجمّ وفكره الحي النابض، فيفنِّدها ويفتِّتها، ويُحيل كتل الشبهات إلى ما لا يؤبه به، يستحضر من خلالها الشواهد من الكتاب والسنة بأسهل وأجمع ما يكون، مع مقارنات أديان واطلاعٍ على الفرق والأفكار والأحزاب والاتجاهات المعاصرة بأنواعها الفكرية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية، ويصدر كثير من الكتَّاب المسلمين عن هذه الإجابات.

و"**طارق رمضان**" بفكره الإسلامي الناضج والمتطور، وفلسفته الإسلامية القوية، وعبقريته في طرح الإسلام منهجًا للحياة، وثقافةً لا يعلو عليها فكرٌ أو ثقافة... ويكفي أنه فرض طروحاته الإسلامية لتنافس وتقارع أكثر الثقافات والأفكار شيوعًا، وجعل الغرب كلَّه يستمع إليه، وصار أحد أهم الشخصيات المؤثرة في الفكر العالمي! ومن خلال قوة شخصيته الثقافية، وأمثاله، وجهود المراكز الإسلامية في الغرب في الدعوة إلى الإسلام، شكر "البابا" المسلمين، لأنهم أعادوا الدِّين إلى الغرب!

وهناك من هو مفكر إسلامي بحق، وقد يكون أكثرَ من واحد، ولكنه أثنى مرات على حاكم ولغ في دماء المسلمين، وحكم بالحديد والنار، وكتم أنفاس شعبه، وظلم وقهر، وطغى وتجبر... فأستحي أن أذكره مع عظماء الإسلام وعباقرته، وإن القلم لا يطاوعني أن أشيد به معهم، وأدعو الله أن يغفر لي وله.

والخير في أمة محمد صلى الله عليه وسلم حتى آخر لحظة في هذه الحياة.

وتأتي قائمة طويلة بعد هؤلاء، وكأنهم جميعاً يغترفون من إنائهم، بل هم جميعاً يغترفون من منبع واحد، هو بحر الإسلام العظيم!

(٤)

أعلام غيَّروا آراءهم

هذا العنوان وضعته ليُختارَ بحثاً علمياً أو رسالة جامعية تُقدَّم في كليات العلوم الاجتماعية أو غيرها، فهناك كثير من الأعلام غيَّروا آراءهم، في السياسة والدين والأدب وحتى النظريات العلمية. وإذا أعلن كاتب ما تبرُّؤه مما كتب، فإنه لا يجوز نقلُ ما سبق عنه أنه قائله، إلا للمقارنة والتنبيه. ولا شكَّ أن في تتبُّعِ هذه الآراء وأسباب تغيِّرها فائدة وتوثيقاً علمياً.

وفي تاريخنا الإسلامي شخصيات كثيرة غيَّروا آراءهم، وقد كُتب عنهم ما كانوا عليه ثم ما استقرَّوا عليه، وأُشيرَ إلى هذا في تراجمهم، وذُكرت أمثلةٌ من ذلك في سيرهم، ليكون القارئ على بيّنة من ذلك، وأذكر من هذا الإمام الشافعي رحمه الله، الذي انتهى إلى المذهب الجديد، بعد القديم منه. وفقهاء كثيرون كانوا على مذاهب فتركوها إلى غيرها، وأبو الحسن الأشعري رحمه الله التزم مذهب أهل السنة والجماعة، بعد أن كان معتزلياً في أول أمره. وأبو نواس كان شاعراً ماجناً فتاب في آخر حياته، وغيرهم...

والذي دعاني إلى الكتابة في هذا هو الغموض الذي يلفُّ أحوال بعض الأعلام في العصر الحديث في أواخر حياتهم، مع إشارات تفيد أنهم قد انتهوا عمّا كانوا عليه، أو غيَّروا أفكارهم إلى غيرها، ولكن الذين بقوا معهم في أواخر حياتهم هم أنفسهم أصدقاؤهم السابقون، ولذلك فإنهم حتى لو تغيروا، أو قالوا كلاماً لا يناسب مذهبهم، فإنهم لا يصرحون به! وسيبقى هذا سرًّا إلى أن ينطق أحد أفراد أسرهم بذلك، أو أحد أصدقائهم، أو تبرز وثيقة تفيد ذلك، كوصاياهم، أو كلمات أخيرة دوَّنوها وعُثر عليها بين أوراقهم بعد وفاتهم بمدة.

وأذكر هنا أمثلة متنوعة تخصُّ الجانب الديني في حياة بعض الأعلام، أثير بها الانتباه، لتُبحث من جديد...

كُتبَ الكثير عن الأديب المعروف طه حسين وعن حقيقة رجوعه عن أفكاره الخطيرة في الدين، وقد سمعت لقاء معه قبيل وفاته في الإذاعة وقد سُئل: ما الذي تفعله الآن؟ فقال

أفضل شيء عندي هو الاستماع إلى القرآن الكريم. ونُقل عنه غير هذا مما يفيد تديُّنه، لكن الذي فصَّل هذا وبحث فيه علمياً هو الكاتب والبحّاثة الإسلامي المعروف أنور الجندي رحمه الله، الذي جمع أقواله في هذا وغيره بأمانة، ثم ذكر أنه لم يكتب ولم يؤثر عنه أنه تنازل عن أفكاره في كتبه السابقة، وتفصيله في كتابه "هل غيَّر الدكتور طه حسين آراءه في سنواته الأخيرة؟".

والكاتب المسرحي المعروف توفيق الحكيم (ت ١٤٠٧ هـ) كان سيء الفكر تجاه الدين، من ذلك قوله في كتابه "تحت شمس الفكر" (ص ١٥): "إن الحقيقة الدينية بعيدة عن وسائل العلم ودائرة بحثه، وإن العقل يستطيع أن يهدم الدين كما يشاء... فالتوفيق بين العلم والدين ضرب من العبث". وهذا جهل منه بالدين، أو بالدين والعلم معاً، ومن جهل شيئاً عاده. وإذا كان يقصد تاريخ النصرانية من خلال ما فعله رجال الكنيسة فلا بأس، أما الإسلام، فلا توجد آية قرآنية ولا حديث نبوي صحيح يناقض حقيقة علمية، أقول "حقيقة علمية"، وفرق بينها وبين "النظريات العلمية" التي مازالت في طور البحث والتجربة.

وقبيل وفاته نشر توفيق الحكيم في "الأهرام" مقالات متتالية بعنوان "مع الله" أورد فيها أفكاره التشكيكية، وفيها حوارات يُجريها بينه وبين الله –سبحانه وتعالى– وردَّ عليه علماء كثيرون، أبرزهم الشيخ محمد متولي الشعراوي رحمه الله. ولعله رجع عن أفكاره أو أسلوبه في تلك الحوارات، وخاصة بعد أن تحدّاه الشيخ الشعراوي لمحاورته في الرَّائي علناً لبيان خطَئه. ثم إنه زاره في المستشفى قبل وفاته. وذكر ندمَهُ أحدُ تلاميذ الشعراوي. ورجوعه هو عن محاوراته المشار إليها، وليس عن كتابات أخرى له. وقد صدر كتاب في ذلك بعنوان "غضبة الله".

وهناك شخصيات أخرى تثار حولها أسئلة استفهام، فتاريخهم مليء بالفكر العلماني والحداثي العميق، أو هو الأمر الوحيد الذي يُعرف عنهم، لكن يُذكر عنهم من بعدُ عملٌ أو أعمال إسلامية، وقد علمت أن هذا الأمر يختلف من شخص إلى آخر!

فهذا كاتب معروف اسمه "تركي الربيعو" عربي من قبيلة طيّء في الجزيرة السورية، كان غارقاً في فكر الحداثة إلى حدٍّ كبير، ويكتب في الإسلاميات على النهج الغربي والفلسفي

الحداثي، وقد كتب عنه باحث إسلامي في أطروحته للدكتوراه واعتبره من الملحدين، ومات بالسرطان في سنة ١٤٢٧ هـ.

حج في أواخر عمره، ووقف أمام قبر النبي صلى الله عليه وسلم فبكى... ويقول لصديق له عن سبب ذلك: أنت تعلم أننا تربينا على حبه منذ لحظة ولادتنا، إنه في داخلنا جميعاً، لم أستطع تمالك نفسي أمام قبره والله، فبكيت".

ولما استهزأ به أصدقاؤه من الكتاب العلمانيين والحداثيين وتهكموا به لأدائه مناسك الحج، بيَّن لصديق له أنهم فهموه خطأ، فهو لا ينظر إلى الإسلام كدين، ولكن كثقافة فقط!

وحتى لا يُظنَّ أنني أؤول كلامه، أنقل ما ذكره صديقه من حديثه بالحرف، قال: "إن تقدميينا (يعني من السوريين) لم يستطيعوا أن يصدِّقوا أنني أديت مناسك الحج، هم لديهم موقفهم من الإسلام كدين، أنا بالنسبة لي الأمر مختلف جداً، الإسلام هو ثقافتي وثقافة الأمة".

وهو يكتب في الإسلام كأي موضوع، بغضِّ النظر عن مصدره وقدسيته وما إلى ذلك، يعني أنه معرفة ما، يُشرح ويُفسَّر مثل أي خبر أو قصة أو تاريخ أو معالجة اجتماعية أو عبادية!

يقول عنه صديقه عبدالرحمن الحاج، الذي نشر كلامه المذكور في "المثقف" ع ٥٩٤ (٢٠٠٨/١/٢٨م): لم يكن يرى تركي الربيعو في دراساته الأنثربولوجية على أنها موقف من الإسلام، بل على أنها مساحات إشكالية في المعرفة يجب البحث فيها.اهـ.

وهكذا ترى أن الربيعو كاتب عربي حداثي، ينظر إلى دينه كتراث وثقافة، قد يعتزُّ به، أو ينقده، لكن لا ينظر إليه ديناً ومعتقداً يخضع له. والله أعلم.

وقد كتبتُ مقالاً عن "عبدالله بن حمود الطريقي" أبرز مؤسسي منظمة أوبك، وأول وزير للبترول في السعودية، فقد اتجه إلى الإسلام، وأعفى لحيته، وكان يؤذن في جامع الحيّ، ولا تكاد تفوته صلاة الجماعة، وله أفكار يسارية سابقة، وتأييد لمناهج عربية شيوعية في كتاباته، التي جُمعت ونُشرت من قبل مركز دراسات الوحدة العربية، الذي كان من مؤسسيه، ولم يُنقل عنه أنه ندم على أفكاره السابقة.

كما كتبت مقالاً بعنوان: "هل تاب نزار قباني؟" فقد ذُكرَ أنه أنشد قصيدة رائعة أمام قبر النبي صلى الله عليه وسلم في سنواته الأخيرة، لكن أحواله وكلماته في أيامه الأخيرة تدل بكل وضوح على اعتزازه بشعره وافتخاره بمنهجه، ولم يُنقل لنا من قبل أصدقائه وعائلته أنه تنازل عن شيء منه، وقد شكَّك بعضهم في نسبة تلك القصيدة له، ولعلني منهم.

وصلاح جاهين فنان وزجال مصري معروف، اشتهر بأعماله الكاريكاتورية في أشهر الصحف المصرية، وقد استغلَّ من قبل العلمانيين أسوأ استغلال، وأعلن بعد وفاته أنه مات بمرض "الاكتئاب" (عام ١٤٠٦ هـ)، ويبدو أنه انعزل عن أصدقائه السابقين لتغيُّرٍ في أفكاره، وندمٍ على منهجه، فقد أطلق لحيته واعتنى بها، وظهر فيها بصورة جميلة، وكان آخر ما كتبه شعر إسلامي رائع للأطفال، ولو أنه كان كذلك من قبل لما أعطته الدولة منصب المسؤول العام عن ثقافة الطفل، بل لما نشرت له زجلاً ولا كاريكاتيراً واحداً، ومع ذلك لم أقرأ أنه "تاب" أو ندم على ما سبق له من رسم وكلام. وقد تكون وسائل الإعلام الحكومية والقائمون عليها هي السبب في حجب حقيقة ما آل إليه أمره.

مما قاله في "غنوة للأطفال" بعنوان "ربنا"، التي أظنها نُشرت بعد وفاته (ذكرتُ المصادر في تتمة الأعلام):

مين اللي كوَّر الكرة الأرضية ؟

مين اللي دوَّرها كده بحنِّية ؟

مين اللي في الفضا الكبير علَّقها؟

ما تقعش منها أي نقطة مَيَّه؟

مين اللي عمل البني آدمين ؟

مين اللي أدّانا عقول وقلوب ؟

ربنا.

احنا بنحب ربنا.... وربنا بيحبنا

ويحبنا أكتر كمان لما نحب بعضنا

ويقول فيها:

مين لما بنطلب يسمعنا ؟

مين اللي قلبه علينا واحد واحد؟

وكلنا نحبه .... هو الواحد ؟

ربنا.

والله أعلم بخاتمتهم.

(٥)
العرباوي يحذّر

عمر صالح العرباوي (واسمه الحقيقي الحملاوي)،

من أعلام المجاهدين والمصلحين في الجزائر.

وضع تحت الإقامة الجبرية حتى حصول الجزائر على استقلالها.

وقد توفي منذ عام ١٤٠٥ هـ.

حذر هذا العالم التربوي المجاهد من الثورة الشيعية وتأثيرها على المسلمين والعالم الإسلامي منذ سيطرتها على إيران.

ولكن كثيرًا من توجيهات الدعاة والمصلحين لا يؤبه بها،

ولا تقدر قراءاتهم للمستقبل وتحذيراتهم للأمة.

(٢٢/١٢/١٤٣٨ هـ)

(٦)

سعيد بن راشد اليِمْني

(.... – ١٤٢٩هـ) (... – ٢٠٠٨م)

إمام وخطيب.

من مدينة الدلم، أقامَ في الرياض حتى وفاته. أمَّ وخطب في جامع الأمير عبدالله بن عبدالعزيز الكائن في حي الملَز نحو (٤٠) عاماً، الذي صار من بعد "جامع خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز"، فكان من أقدم الأئمة بالرياض، وقد بُنِيَ الجامع عام (١٣٨٩هـ) وكان والده يؤمُّ فيه وهو يؤذّن.

وكان الشيخ سعيد طيّباً، مهذَّباً، هادئاً، صليتُ وراءه سنوات، فقد كنت جاراً له وجاراً للجامع الذي يؤمُّ فيه. وكان يختار من الخطب ما يتعلق بالأمور الفقهية والاجتماعية دون إثارة، مثل العبادات والمعاملات، وعن أحوال الشباب، والمسؤولية، وأوقات الأذان، وقد لاحظَ تأخر بعض المؤذّنين عن الأذانِ ولو لدقائق قليلة، ويوصي بالعمال الفقراء والجاليات الإسلامية ويحذِّر من الاعتداء على حقوقهم وتسخيرهم لغير عملهم، ويدعو لولي الأمر بصفة خاصة، وللمرضى كثيراً، وللوالدين، مع رقة في القلب. ولا يتعرَّض لأحوال المسلمين في العالم والمخاطر المحيطة بهم وذكر أعدائهم وتوجيههم إلى ما ينبغي، وهو ما يُقبِلُ عليه المسلمون ويتشوَّقون إلى سماعه. وفي فصل الشتاء كله تقريباً يدعو في الخطبة الثانية من كل جمعة أدعية الاستسقاء الطويلة، ويقرأ من الورقة، وكان ذا صوت جهوري.

ولم يكن يهتم بجوانب النشاط والثقافة في المسجد، ولا يعظ الناس، عدا شهر رمضان، فيقرأ في كتيب بعد العصر. وحتى مجلة الحائط تكاد تكون فارغة في معظم الأوقات. إلا أن تحفيظ القرآن كان مهتماً به، والقائمون عليه شباب من وزارة الأوقاف. والجامع كبير، يُصلَّى فيه صلاة العيد والاستسقاء، فمجال الإرشاد والتوعية فيه واسع.

وكان لديه إلمام بالعلم، لكن لم أعرف أنه يصنّف مع العلماء في البلد، أو أنه ما كان يُقصدُ لأجل العلم، ولعله كان منعزلاً عنهم بسبب مرضه المزمن، أو ارتباطه الدائم بالمسجد في أوقات الصلاة الخمسة، وقد كان حريصًا جدًا على الحضور وإمامة المصلين ولو كان مريضًا، ويُعنى

بنظافة المسجد وتنظيم أموره بشكل جيد، ويهتم بتكملة الصفوف وعدم ترك الفُرَج وترصيصه كثيراً، وخطب خطبة كاملة في ذلك، ويؤشر بيده إلى من لا يستوي، ويكرر ذلك حتى يطول، وقد جوبه بكلمات من مأمومين أكثر من مرة لأجله، وهو يحرص على ذلك ويُصرُّ ، ولا يُحرم في الصلاة حتى يطمئن...

ويهتم بمظهره وحسن سَمْته كثيراً، ولا يحضر إلى المسجد إلا بـ "البشت" (العباءة) تحقيقاً لقوله تعالى: {خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ} [الأعراف: ٣١]! وكان فطناً، يحدِّق النظر في الأشياء ويتمعَّن فيما حوله. وقد أصيب بمرض الفشل الكلوي لسنوات، فكان يصفِّي دمَه فيما يعرف بالغسيل الكُلوي ثلاث مرات في الأسبوع، ويبقى تحت الأجهزة نحو أربع ساعات في كل مرَّة. وابتُلي بأمراض أخرى، فكان يبقى في المستشفيات شهوراً، وكان صبورًا لا يشتكي من أمراضه لأحد، ويتجلَّد بقدر ما يستطيع، وقد ضَعف في أواخر عمره. وكان جادًّا في أموره، قليلاً ما يبتسم، لكنه لطيف المعشر، محبَّب في حديثه مع الناس.

مات بالسكتة القلبية يوم السبت ١٨ شوال، ١٨ تشرين الأول (أكتوبر) وقد أمَّ المصلين في صلاة الفجر من اليوم نفسه، وكان في نحو الستين من عمره، وحضرت جنازته ودفنه، ولم يشكُ منه أحد. رحمه الله رحمة واسعة.

(٧)
رثاء محمد قطب

ماتَ أحدُ أعلامِ الدنيا!

ماتَ القطبُ الذي كانت تدورُ عليه رحَى العلمِ والفكرِ في يومٍ من الأيام،

ماتَ الذي يُبكى عليه بالدمِ بدلَ الدمع،

ماتَ الأستاذ محمد قطب،

الذي ملأ سماءَ العلم،

هو وأخوهُ سيِّد،

بثقافةٍ إسلاميةٍ جادَّة،

وإبداعٍ فكري إسلامي نابعٍ من كتابِ اللهِ وسنةِ رسولهِ صلى الله عليه وسلم،

يعالجانِ واقعَ المسلمينَ في دعوةٍ رصينةٍ وفكرٍ قويمٍ وأدلةٍ محكمة،

فكانا أبرزَ مفكرَين إسلاميينِ في عصرَيهما،

لم يُسبقا في إبداعهما الفكري الإسلامي،

وتربَّى على كتبهما ومقالاتِهما جيلٌ إسلامي كاملٌ في المعمورةِ كلِّها،

والكتبُ تعجُّ بالنقلِ منهما،

وحتى الأستاذ سيِّد كان ينقلُ منه،

وخاصةً من كتابيهِ الرائعين "الإنسان بين المادية والإسلام"، و "جاهلية القرن العشرين"،

وعندما قرأتهما أحسستُ من جديدٍ بأنني مسلمٌ ذو شخصية عميقة، مستقلة، متميزة،

لها جذورها الضاربةُ في أرضٍ مباركة،

لا أحتاجُ بعدها إلى ثقافاتٍ أخرى شرقيةٍ ملغومة، أو غربيةٍ موبوءة،

وربما لم أتمنَّ لقاءَ أحدٍ مثلما أحببتُ لقاءَ هذا العلَمَ الكبير،

الذي أكبرتُ فيه ثقافتهُ الإسلاميةَ والعالمية،

وخاصةً الجوانبَ النفسيةَ منها والاجتماعيةَ والفنية،

ثم فخرَهُ وتمسكهُ واعتزازَهُ بدينهِ حتى أعمقِ الأعماق،

وعندما رأيته،

وسلَّمتُ عليه،

وجلستُ أسمعُ منه مع كوكبةٍ من طلبةِ العلم،

في أوائلِ القرنِ الهجري هذا،

في أحدِ مساجدِ مكةَ الصغيرة،

ازددتُ حبًّا له،

لا للعلمِ هذه المرة،

بل للتواضعِ الشديدِ عنده،

الذي لا تحسُّ من ورائه تعاليًا له على أحدٍ مهما كان شأنه،

فقد كان هينًا لينًا مع إخوانهِ إلى أبعدِ حدّ،

وينطبقُ عليه قولهُ تعالى: {أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ}،

ويتكلمُ بهدوءٍ وسكينةٍ وإيجازٍ مع وضوح،

رحمكَ الله يا أخا الإسلام،

ويا مفكرَ الإسلام،

وجزاكَ الله خيرًا عمّا قدَّمتَ من فكرٍ نظيف،

وثقافةٍ عالية،

ودعوةٍ عظيمة.

١٤٣٥/٦/٤هـ

(٨)
توفيق الحكيم والإسلام

توفيق الحكيم كاتب مسـرحي معروف لدى مثقفي العرب، وقد قرأت مسـرحيات كثيرة له، وكنت أعجب من قدرته على توزيع الأدوار بين شخصيات المسرحية وحنكته في إدارتها، مع عربية فصيحة، ونص متماسك، وعندما قرأت له مسرحيته "محمد" لم أفرق بينه وبين "سيرة ابن هشام" سوى الترتيب الجديد الذي قدَّمه توفيق الحكيم، وإثارته القارئ من خلال تقديم نص أدبي جديد، يتكلم فيه الأشخاص بدل سرد تاريخي وقصصي، وكأنه لم يفعل شيئاً سوى انتشال الأسماء من بين النصوص ولصق كل فقرة باسم شخصية في النص المسرحي..

ولا يُنكر لهذا الكاتب المسرحي قدرته وبراعته وإبداعه في المسرحيات، وكان له شأن أدبي كبير في مصر خاصة، كما شغل مناصب علمية فيها، فقد عمل في القضاء، ثم كان مديراً للإرشاد الاجتماعي بوزارة الشؤون الاجتماعية، وعمل في الصحافة، ومديراً عاماً لدار الكتب، ومندوباً لمصر في اليونسكو، ورئيساً لاتحاد كتاب مصر، ثم تفرَّغ للأدب، وكان يثير بين الحين والحين قضايا تثير الجدل، والخلاف والمناقشة، وتستمر هذه المعارك الفكرية أسابيع وشهوراً، وقد توفي عام ١٤٠٧هـ.

والذي يهمنا في هذا المقال هو معرفة موقفه من الدين من خلال بعض ما كتب وأثار، لنعرف مدى التزامه أو تفلته من أحام الدين الحنيف.

ومن الأفضل أن نبدأ بذكر رأيه في نفسه، وبيان منهجه ومسلكه أو معتقده وفلسفته في الحياة، حيث سئل مرة عن نفسه، فأجاب بتاريخ ٦/ ١٩٨٦/٩: "توفيق الحكيم شخص لا أعرف عنه شيئاً كثيراً.. وإني أقرأ عنه أحياناً بعض ما ينشر عنه فأراه شخصاً آخر.. أما أنا فأسأل نفسي دائماً: ما هي المهمة التي كلفت بها في هذه الحياة الموقوتة.. وكلما سرت في طريق حياتي فطنت فجأة إلى أن هذا الطريق ليس هو الطريق الذي تصورته.. ولو كان في طريق حياتي لافتات مثل لافتات المرور تنبهني إلى أن هذا الطريق يؤدي إلى جهة كذا، كنت تنبهت من أول الأمر ولم أواصل السير.. فأنا إذن مخلوق ضحية عدم وجود لافتات مرور في شارع حياتي الطويل..".

أقول: فأين هو من دينه الذي "يدين" به؟! وإذا كان يشكو من عدم وجود لافتات تنبهه في الحياة، ولا يعرف المهمة التي كلِّف بها، فأين هو من كتاب ربه وهو موجود في بيوتات مصر ومكتباتها، وفيه الأمر والنهي، وقصص الأولين والآخرين، والرد على الملحدين والمنافقين والمشككين، وطريق السعادة في الحياة الدنيا، والطريق الممهد والمؤمِّن للآخرة، وهو الدستور العام لجميع المسلمين؟!! إنه لو اتخذه منهجًا في الحياة لما قال ذلك الكلام.

ويقول في كتابه "تحت شمس الفكر" (القاهرة، ١٩٣٧م) ص ١٥: إن الحقيقة الدينية بعيدة عن وسائل العلم ودائرة بحثه، وإن العقل يستطيع أن يهدم الدين كما يشاء... فالتوفيق بين العلم والدين ضرب من العبث!

أقول: إنه بهذا يهدم إيمانه بدينه بنفسه إذا لم يكن تاب منه، فمتى وأين تعارض ديننا مع حقيقة علمية؟! وهذه مئات الكتب المؤلفة في الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، تبيِّن سبقهما إلى اكتشافات علمية مذهلة! ولكن الذي يتعارض مع العلم حيثيات في أديان أخرى، لأنها مخالفة للحق.

وذكر صاحب "الانحراف العقدي" أن توفيق الحكيم من أكابر المتأثرين بالغرب والداعين إلى أنماطه وأفكاره، اصطدم بالأزهر لسخريته بالدين وأهله، ردّ عليه مفكرون وعلماء لسخريته بالله تعالى، يرى أن تحكيم شرع الله عودة إلى العصر الحجري، يعتبره اليهود صديقاً لدويلتهم. اهـ.

وعندما قال –فضَّ فوه– "آدم عبيط"، قال الشيخ عبدالحميد كشك رحمه الله: "توفيق الحكيم حيث لا توفيق ولا حكمة". ثم يتنهد الشيخ ويقول متأسفاً: هؤلاء هم أدباؤنا.

وقبيل وفاته نشر في صحيفة "الأهرام" مقالات متتالية بعنوان "مع الله" أورد فيها أفكاره التشكيكية، وفيها حوارات يجريها بينه وبين الله سبحانه وتعالى!! وردَّ عليه علماء كثيرون، أبرزهم الشيخ محمد متولي الشعراوي، وقد صدر كتاب في ذلك كتاب بعنوان "غضبة الله" الذي تأتي بياناته.

وأظن أنه رجع عن أفكاره أو أسلوبه في تلك الحوارات، وخاصة بعد أن تحدَّاه الشيخ الشعراوي لمحاورته في التلفزيون علناً لبيان خطئه. ثم إنه زاره في المستشفى قبل وفاته. وذكر ندمه أحد تلاميذ الشيخ الشعراوي. ورجوعه هو عن محاوراته المشار إليها، وليس عن كتابات

أخرى له، على ما يبدو، وكان هو الذي طلب حضـــور الشـــعراوي لرؤيا رآها، وفي نهاية حديثهما أحضـر الشـعراوي له سـجادة صـلاة وحجرًا يتيمم به، فتيمم وأدى الصـلاة، وكان يردد عبارات الاستغفار..

ومما رُدَّ عليه في كتب:

- **غضـبه الله: حول بيان الشـيخ الشـعراوي ضـد كل من توفيق الحكيم، يوسـف إدريس وزكي نجيب محمود**/ محمد خالد ثابت.ــ القاهرة دار ثابت، ١٤٠٣هـ ٥٤ ص.

- **الحكيم في حديثه مع الله ومدرســـة المتمردين على الشـــريعة**/ عبدالعظيم المطعني.ــ القاهرة: دار الكتاب الإسلامي، ١٤٠٣هـ، ٢٠٠ص.

- **لا يا حكيم**/ أحمد يوسـف المراغي، سـيد أحمد السـليمي.ــ مصـر، ١٤٠٣هــــ (على الغلاف: حديث الحكيم ورد الشيخ الشعراوي عليه).

- **لمن اســتمع توفيق الحكيم وإلى من تحدث**/ فاروق أحمد دســوقي.ــ الإســكندرية: دار الدعوة، ١٤٠٤هـ، ٨٢ص.

(٩)
أنيس منصور والإسلام
من خلال مقالات له

مُقَدِّمَة:

الأستاذ أنيس منصور كاتب موسوعي من مصر، يكتب مقالات يومية في الصحف منذ عقود من الزمن، أبرزها "الأهرام". ويتصف بسعة المعرفة، والدردشة الجميلة، والتطرق إلى النواحي العلمية، والمشكلات الاجتماعية، والأحوال السياسية، واللغة، والأدب...

ولا يتعالى على قرّائه، بل يدنو منهم ويحدِّثهم بأسهل أسلوب في أعقد المسائل.

ويركز كثيراً على "البحث العلمي" و"التعليم الجامعي" و"تربية الموهوبين" ويرى في ذلك الطريق الوحيد إلى التقدم، ويشير بين فينة وأخرى إلى أن كثيراً من الدول تقدَّمت أو أحرزت تقدُّماً ماعدا مصر!

وله أكثر من (١٠٠) كتاب، كثير منها مقالات له جمعت في كتب.

وقدمت فيه رسائل جامعية عديدة، حتى من قبل اليهود، من ذلك دراسة لمؤلفاته من قبل "سيجال جورجي" باحثة يهودية من الكيان اليهودي، حصلت بها على الدكتوراه، ورسالة دكتوراه أخرى في دراسة أفكاره الأدبية والفلسفية والسياسية، حصل عليها رفعت فودة من مصر... وغير ذلك.

ومع كتابات إسلامية عديدة له لم أقف على رسالة أو مؤلَّف بحثَ موقفه من الإسلام! ربما لعدم اطلاعي عليه، أو أنه حقًّا لم يُكتب فيه من خلال هذا الموضوع.

وقد تابعت مقالاته اليومية التي يكتبها في عمود "مواقف" بجريدة الأهرام مدة (٦) شهور، منذ أوائل عام ١٤٢٧هـ حتى أواخر جمادى الآخرة، لأتبيَّن بعض معالم فكره الديني، من خلال موقفه من العقيدة وغيرها، وجوانب إسلامية مطروحة في الساحة.

قبل النقد:

وقبل البدء في الموضـــوع أذكر أن هذا ليس دراســـة متكاملة لموقفه الإســـلامي، فهي لا تستند إلى شيء مما ورد في كتبه، ولا مقالاته السابقة أو التالية، في هذه الجريدة وغيرها، وإنما تُعنى بما كتبه خلال ستة شهور فقط.

كما أنه لا يتطرق إلى مواقفه الإيجابية، فالهدف معرفة أخطائه، ورد بعض شبهاته ومواقفه السلبية.

وإلا فإن الرجل فيه عاطفة إسلامية، ويدافع عن المسلمين ضد الهجمة الصليبية الأمريكية كما ذكره في أكثر من مقال، كما بيَّن تضـامنه مع المسـلمين في اسـتنكارهم وتظاهرهم ضـد الرســوم الســاخرة بالرســول الكريم عليه الصــلاة والســلام، وهو من المترددين على الحرمين الشريفين لأداء العمرة والزيارة...

لكن أعماله ومواقفه الإيجابية لا تبرِّر الســكوت عن أخطائه ومواقفه، فله أصــدقاء من اليهود على مســتوى عال، بل إن شــفاعته ترتجى لديهم، وقد ذكر أنه التقى بالمجرم أرييل شارون عدة مرات مع بطرس غالي وغيره [الأهرام ع ٤٣٥٠٧- ١٨/ ٢/ ١٤٢٦هـ]. وكان من التلامذة المخلصين لأنوار السادات في مبادرة استسلامه، فهو لا يفتأ في كل مناسبة يذكر الفلسطينيين بأن يستسلموا كما استسلمت مصر!

ولعله يتبين من خلال مقالات له أن عقيدته غير منضــبطة بقواعد إســلامية حدَّدها العلماء، وخاصة من خلال مبدأ "الموالاة والمعاداة" التي تعتبر من العقيدة.

بل إن له فلسفات وتحليلات تقرِّبنا من القول بأن إيمانه مثل إيمان الفلاسفة.

ثم إن له أســلوباً في خلط الجد بالهزل قد لا يعرف من ذلك موقفه الحقيقي من بعض القضايا الحساسة، وهو بذلك يسجل هدفه بأنه قال ما يريد. وهو نفسه يذكر في أكثر من مقال أنه لا يعرف ماذا تريد الصحافة وما الذي لا تريده... فيقال له ما قال فيها.

تضايقه وتضجره من الدعاة والفتاوى:

يبدو هذا واضـحاً من خلال قوله: "ما الذي حدث في مصـر أخيراً: هل ارتد المصـريون عن الإســلام.. هل كفروا.. هل أغلقوا أبواب المســاجد.. هل هدموا المآذن.. وهل صـرحوا بأنهم لا يريدون عمرة ولا حجًّا؟ هل يطالب المصــريون بدين جديد؟ ماذا جرى للناس؟ ا لا

شـيء من ذلك قد حدث. إذن لماذا يظهر المشـايخ وأدعياء الفقه والشـريعة والتفسـير في كل القنوات والبرامج، وكلهم في غم محمومون يصـــرخون.. والناس أيضـــاً، فهم يســـألون في كل صـــغيرة وكبيرة خوفـاً من جهنم.. خوفـاً من الخروج على الـدين وعلى المـذاهـب" (ع٤٣٦٥٣- ١٧/ ٥/ ١٤٢٧هـ).

ويعلل تضـجره من ذلك — في العدد نفسـه- بأنه لا شـيء حدث يزلزل الإيمان واليقين، وأن المصـريين هم أكثر الشـعوب الإسـلامية تمسـكاً بالدين، وأن هذا الإعلام والدعوة للدين تظاهر بالتمسك بالدين والمعرفة، وأن ذلك "يؤكد جهلهم وسخافة تفكيرهم"! وأن "المشكلة أصبحت هكذا: أناس سخفاء يريدون أن يسألوا عن كل شيء سخيف، ومحجبات لا يعرفن كيف يكتبن أسماءهن يفترشـــن الأرض للإفتاء في كل شـــيء. والمعنى: جهلاء يشـــجعون جاهلات على أن يسـألن الجهلاء في أمور سـخيفة. فلا هذا دين ولا هذا تسـمك بالدين. وإنما استعراض لأشكال وألوان من الجهل!"

ويؤكد نفوره من الإعلام الإســـلامي أكثر عندما تتكاتف الجهود لانتشـــال المجتمع من أوحاله وأمراضـه الخلقية وما تعرَّض له من تشـويه لدينه وعقيدته ومواقفه، فلا يرضـى بذلك، ويخشى أن يتسلم هذا الأمر الإسلاميون، فيقول: "إذا كانت لا تزال في عينيك دموع فأرجو أن تســكبها على حال المســلمين في الشــرق الأوســط.. ما هذا الإســلام الذي شــوهناه وأفسـدناه.. ما هذه الخرافات التي يعيشـها المصـريون في الصـحف والإذاعة والتليفزيون.. من هذا العبقري الشــرير الذي خرج علينا بالأحاديث المفبركة عن الرســول ﷺ. من الذي جعلنا أضـــحوكة الأمم، ماذا حدث حتى نفاجأ بما لا نهاية له من أدعياء الإفتاء على كل قناة وصحيفة؟ هل هي صحوة إسلامية؟ كنا نياما وصحت ضمائرنا فرحنا نتلمس شواطئ الأمان من هذا الضلال؟ (ع ٤٣٥٥٤ — ٦ / ٢ / ١٤٢٧ هـ).

وفي العدد نفسه يُبدي استهزاءه وتهكمه من عودة الفنانات إلى الحق والتوبة من الفسوق والفجور، فيقول: "ولكن وحدك لا تسـتطيع أن تقاوم طوفان الفتاوى، ليس رجال الدين ولا المفكرون، وإنما المحترفات من الفنانات التائبات، التائبات عن ماذا؟ التائبات عن الفهم وعن العلم والدين. حتى هؤلاء اللاتي لم يكن شيئاً في الفن يحاولن أن يكن شيئاً في الدين".

كما حمل حملة شعواء على الخطباء من أهل القرى خاصة في عدة مقالات له، لأنهم لا يلائمون أفكار العصر، وكذا المشايخ والفقهاء المتحدثين في القنوات، وأن الحل أن "يكفوا وأن يكونوا معاصرين لنا وليس لأبي هريرة والبخاري" هذا كلامه في (ع ٤٣٦١٧٤- ١٠/ ٤/ ١٤٢٧هـ).

وقد تعرَّض أكثر من مرة لأحاديث النبي الكريم ﷺ، وموقفه في هذا قريب جدًّا من موقف الشيعة الذين لا يثقون ولا يروون إلا للقليل من الصحابة ﷺ.

ويبرر موقفه متابعاً قوله في ذلك: "فالمشاكل اليوم أعقد، والكوارث أعظم، والمسلمون أكثر، وكذلك متاعبهم"! وكأن الأحاديث تقف عائقاً أمام ذلك، ولا يعرف أنه "أحد الوحيين" تقوم عليهما شريعة الإسلام، وأن صلاته –إن كان يصلي- من بيان السنة، وكذلك حجَّه واعتماره، فهل يريد أن يأخذ ما يشاء ويدع ما يشاء بما يمليه عليه عقله، أم يتبع الحق وينقاد للإيمان كما بيَّنه الرسول ﷺ في السنة؟

ولم أشر إلى سخريات أخرى له وتساؤلاته المقذعة في الفضائيات والأسئلة التي تلقى على العلماء ونوعية أجوبتهم، وأنه يجب تغييرها أو أنها تؤدي إلى التطرف، ولم يقدم البديل ولا يعرفه، وإنما الهدف تقليصها أو منعها، وقارن ذلك بالفاتيكان وغيره وأنه لا يوجد أو لا يعرف لهم مفت!!

(ينظر مثال على ذلك ع ٤٣٦٢٢- ١٥/ ٤/ ١٤٢٧هـ).

ويبدو من هذا أنه لا يريد فقهاء ولا مفتين، وأن كل مسلم يأخذ ما يريد كما يفهمه، ومن لا يريد لا علاقة لأحد به، فيفعل ما يشاء كما يشاء!

إنه كلام خطير جدًّا لا يتفوَّه به خائف من الله. فإن العلماء هم ورثة الأنبياء، والإسلام بحر، وعلومه الشرعية لا يفهمها إلا من مارس قراءتها وحفظ قواعدها وبقي يتعلمها عشرات السنين حتى يقدر على تعليمها والإفتاء منها... فكيف بالمسلم الغرِّ الذي لا يعرف أن يقرأ القرآن، بل قد لا يعرف أن يصلي أو يزكي، أنى له أن يفهم ويعرف أحكام الشريعة والنوازل الجديدة من فهمه وهو لا يحفظ ولا يعرف شيئاً من دينه؟

وقوله إنه ليس في الفاتيكان مفت غريب في بابه لا يناسب ثقافته، أليس "البابا" في الفاتيكان والنصارى يصدرون عن رأيه فيما يناسب دينهم؟ ألا يوجد قسس ورهبان منتشرون

في الكنائس يعلمون النصارى دينهم ويصلون بهم ويجيبون عن أسئلتهم؟ هل يقبل النصارى مدينة بلا كنيسة أو كنائس ليس بها علماؤهم؟ ومن جانب آخر: هل يريد الكاتب مساجد بلا علماء ولا فقهاء؟ أم أنه يريدهم على تفصيل ذوقه الخاص لا على طلب وحاجة المسلمين؟!

المفاضلة بين المسلمين وغيرهم:

إذا علمنا أن الإسلام هو أصح الأديان، وأنه نسخ الأديان السابقة كلها، ولا يصح اعتناق دين سوى الإسلام، فإنه يصح قولنا إن المسلم هو على الحق دون كل المخالفين له، وأنه أفضل من جميع الناس بعقيدته هذه، يقول الله سبحانه: {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ} [النساء: ٤٨].

ويقول سبحانه: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر﴾ [آل عمران: ١١٠].

ولينظر الكاتب إلى ما ورد في آخر الآية من أن الخيرية متعلقة بالأمر بالخير والدعوة إليه، والنهي عن الشر والمعاصي، وهذا ما لا يريده الكاتب، على ما يبدو.

فالأفضلية لأمة الإسلام بنصِّ الآية الكريمة، لكن الكاتب يذكر بصراحة وبالحرف أنه يجب ألا يكون للفارق الديني شأن في التعامل مع البعض [الأهرام ع ٤٣٦٣١- ٢٤/ ٤/ ١٤٢٧هـ]، ولا يعني به المعاملات المالية وما إليها، كما يأتي.

لقد ذكر أنه نشأ في جو متسامح دينيًّا، وأنه لم يعرف الفرق بين مسيحي ويهودي إلا في مرحلة متأخرة، ولا سأل نفسه ما الفرق بين الجامع والكنيسة والمعبد اليهودي (ع ٤٣٦٠١- ٢٤/ ٣/ ١٤٢٧هـ).

وكان يفتخر بأنه ما كان يُعرَف أنه مسلم! وأن الكثيرين كانوا يظنونه قبطيًّا! بل ذكر في عدد (٤٣٥٩٩) تاريخ ٢٢/ ٣/ ١٤٢٧هـ، ٢٠/ ٤/ ٢٠٠٦م أن صديقه الحميم كمال الملاخ (القبطي) بقي معه (٨) سنوات وهو لا يعرف أنه مسلم، وأنه لم يحاول أن يبين له إسلامه!

أقول: يفهم من هذا أنه ما كان يصلي ولا يصوم، فقد ذكر في العدد نفسه قوله "كان الملاخ صديقي، ولم ننفصل لا ليلاً ولا نهاراً، ولا غداء ولا عشاء، عملنا معاً..." فإنه لو كان يصلي لعرف الملاخ أنه مسلم، ولو صام كذلك ، فإنه كان معه دائماً.

وفي حادث بين الأقباط والمسلمين قال: ونسينا أن الأقباط هم أصل هذا البلد وهم ليسوا هنوداً حمراً، وإنما هم أناس يجتهدون مثقفون متعلمون جدًّا..." [الأهرام ع ٤٣٥٩٧- ٢٠/ ٣/ ١٤٢٧هـ]. قلت: وأهل مصر أليسوا أصحاب البلد الأصليين؟ ألأنهم أسلموا منذ ١٤٠٠ سنة صاروا فرعيين؟

الكاتب ونظام الإسلام:

يبدو أن الكاتب بعيد جدًّا عن نظام الإسلام وشريعته، أو أنه لا يحبذه بصراحة! ومن المعروف أن "الإخوان المسلمون" يطالبون بتطبيق الشريعة الإسلامية في كل منتدياتهم وكتاباتهم، ومنذ تاريخهم الطويل في الجهاد والدعوة، وعندما فازوا بـ ٢٠٪ من مقاعد البرلمان عام ١٤٢٦هـ غضب الكاتب غضباً شديداً لم أقرأ له غضبة مثلها، فقد قال ما نصه (ولم يعيِّنهم): "رفضنا حكم الشعب للشعب وقبلنا حكم التطرف الديني للسياسة والاقتصاد والحياة المدنية".

ووصف الشعب المصري بالجهل لأنه اختار هذه القيادة، وقال في آخر مقاله: إننا نستحق الموت ما دمنا رفضنا الكرامة حياة وأسلوباً". [الأهرام ع ٤٣٤٦٦- ٦/ ١١/ ١٤٢٦هـ].

وقال بعد يومين من تاريخه (ع ٤٣٤٦٨): "إن الذي اختاروهم عبيد، وأنه هتك لعرض الديمقراطية، وأنه إكراه سياسي، ودعارة أخلاقية..." الخ.

والأمر الذي يدعو إلى الاستغراب أنه غير رأيه تماماً في حلقات قادمة! هو وغيره من كتاب مصر، ولعلَّ الذي خفَّف عنهم وبصَّرهم بذلك أحد أصدقائهم المرموقين، وإلا فما كانوا يصرِّحون، فقد صرَّح الروائي المعروف نجيب محفوظ أن الإخوان لهم تاريخ في العمل السياسي، وأنهم سجنوا وعذِّبوا وصبروا وثبتوا، وفشل غيرهم، فلماذا نخاف وننزعج؟ إن لهم برامج ومقترحات فلنر هذا العنصر أيضاً ولنعطهم فرصة حتى يقدِّموا لنا ما يخططون له!

وعندما فازت حماس في الانتخابات وتجهزت لتشكيل الحكومة قال في أول مقاله:

مطلوب من حكومة حماس أن تقول نعم ثلاث مرات: نعم للاعتراف بإسرائيل، نعم لوقف العنف، ونعم لكل الاتفاقيات الدولية". [الأهرام ع ٤٣٥٣٨- ١٩/ ١/ ١٤٢٧هـ]

وأعاد مثل هذا الكلام أكثر من مرة، وأنها إذا لم تفعل ذلك فإنها تقف في مجابهة القوى العالمية...

وفي ع (٩ صفر ١٤٢٦هـ) خاطب الشعب الفلسطيني – ويعني بهم حماس، التي رفضت الاعتراف بالكيان اليهودي-، مُثْنياً على السادات في الاستسلام –ويسميه السلام، وأنه "الرجل الشجاع بعيد النظر الذي رأى المستقبل وأرسى قواعده" مبيناً أننا لم نحقق شيئاً منذ ٥٠ عاماً، إنما السادات فقط حقق هذا الحلم!.

ردود على استهزاءاته ومغالطاته:

إن المتابع لكلمات الأستاذ أنيس منصور يعرف أنه لا يريد الإسلام من مصادره الصحيحة، بل يريد إسلاماً على هواه، يعني الإسلام الذي عرفه بذوقه الخاص وتفكيره العلماني.

ونظرته إلى السنة النبوية وتاريخ الحديث النبوي الشريف سيء جداً وغير مقبول، ويبدو أنه قرأ كتبا للمستشرقين، أو من في قامتهم، وآمن بها.

ومن كلام الكاتب في ذلك: "إن ألوف الأحاديث قد نسبت إلى السيدة عائشة رضي الله عنها، والسيدة عائشة تزوجت الرسول في العاشرة من عمرها ومات عنها وهي في الثامنة عشرة. ولقد حفظت القرآن والأحاديث والفقه والشريعة والفتوى في كل العلوم وفي الطب، إن كثيرين من الفقهاء يرون صعوبة شديدة في تصديق كل ذلك؟" [الأهرام ع ٤٣٥١٧- ٢٨/ ١٢/ ١٤٢٦هـ]

وهذا كلام الخصوم والأعداء من المستشرقين وغيرهم، مكرَّر وقديم، يعرفه حرّاس العقيدة والذابُّون عن السنَّة النبوية، فإذا كانت أمُّنا عائشة (الذكية الحافظة الأمينة)، أحبَّ النساء إلى الرسول ﷺ، هي التي تكذب، فمن يكون صادقاً؟ أأعداء الإسلام والمشكِّكون والملحدون والباطنيون؟ إن الذي في قلبه مرض –فقط– هو الذي لا يصدِّق ما روي عنها من الأحاديث الصحيحة.

ولا علم للكاتب بأصـــول الحديث ومصـــطلحه، والجرح والتعديل، ولا يعرف كيف يُقبل الحديث وكيف يُردّ، ولا يعرف تخريجه وتوثيقه، ومن جهل شـــيئاً عاداه. وقد ردَّ النقّاد المحدِّثون آلاف الأحاديث لأنها موضوعة أو مشهورة غير صحيحة أو ضعيفة... وللحديث درجات، وقد استشهد الكاتب بحديث "عدنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر" في (ع ٤٣٦٦٤- ٢٨/ ٥/ ١٤٢٧هـــ) ولم يصح، فهو ضعيف كما قال مخرجه نفسه الحافظ البيهقي في كتابه الزهد. بل ذكر الحافظ ابن حجر أنه مشـــهور على الألســـنة وهو من كلام إبراهيم بن عبلة في الكنى للنسائي.

ويقول الكاتب مرة أخرى متهكماً بســـنة رســـول الله ﷺ (ع ٤٣٦٤٧- ١١/ ٥/ ١٤٢٧هـــ): "أما نحن فقد فتحنا باب الفتوى على الآخر، فكلٌّ واحد أصبح يُفتي، إن كان دخول الحمام بالقدم اليمنى، وإن كان إلقاء الطلاق على الزوجة على الإنترنت [حراماً] أو حلالاً، إلى آخر الأسئلة الفارغة من عقول أكثر فراغاً"

وعندما تحدث مفتي مصـر (علي جمعة) عن حرمة التماثيل، انزعج كثيراً، فقال في سـخرية وهو يناجي أستاذه "سقراط" (ع ٤٣٥٨٧- ١٠/ ٣/ ١٤٢٧هـــ): "يا أستاذنا، فكيف ترانا بعد أن حرمنا البنطلون والتماثيل والدخول بالقدم اليســـرى وأزلنا شـــعرتين من بين الحاجبين، واستعذنا بالله عند اللقاء الجنسي حتى لا تتسلل العفاريت، وبعد ذلك حوقلنا وبسملنا وهلَّلنا، فيا رب إن كان هذا هو الطوفان فقد غاب عنا نوح، فأي يوم هذا؟".

وفي عدد آخر (٤٣٦١٣- ٦/ ٤/ ١٤٢٧هـ) يوضح موقفه أكثر، فيذكر "قرفه" و"ضيقه" من برنامج تلفزيوني عن الزواج لأنه استضيف فيه "رجل متفقه"، ثم قال: "هل الزواج مشكلة دينية؟ هل كل ما ينقص الشـــباب لكي يتزوج هو أن يصـــلي ركعتين"؟ ثم يقول إن مثل هذا انحراف بالموضوع وتضليل...

وقال وهو يتَّقد حقداً وغضباً: أريد أن أتزوج وأن يكون عندي شقة ودخل كبير لكي أربي أولادي وأضـــمن بقاءهم وبقائي في مصـــر، فما الذي يســـتطيعه أبو هريرة والبخاري من أجل الحصول على شقة في مساكن الشباب! شيء عجيب أن نسرف في إذاعة البرامج الدينية ثم نتهم الناس بالتطرف ونلقي القبض عليهم بعد ذلك، مع أنهم لم يفعلوا أكثر من تصـــديق بعض من المتحدثين من المذيعين أيضاً؟!".

واضـــح جدًّا أنه لا يريد الحلول الإســـلامية للمشـــكلات الاجتماعية، وعاد يغمز ويلمز الصحابي الجليل أبا هريرة ﷺ، وأمير المؤمنين في الحديث الإمام البخاري، صاحب أصح كتاب بعد كتاب الله عز وجل!

والأفظع من هذا أن يقارن الاشتغال بالحديث النبوي الشريف بالرسوم المسيئة للرسول ﷺ، فيقول في كلام لا يكتب سوى للتنبيه والبيان: "ثم نشكو من لعب العيال الرسامين في الدنمرك. ما هذه الرسـومات التافهة السـخيفة... إن الذي نناقشـه من أحاديث الرسـول ﷺ هي أعظم إهانة له وللإسـلام الحنيف. إن هذه الخرافات والخزعبلات التي نحشـرها وينحشـر فيها المشـايخ والملالي في كل مكان هي أفدح وأفضـح وأبشـع ازدراء للإسـلام والمسـلمين!". [ع ٤٣٥٥٤- ٦/ ٢/ ١٤٢٧هـ].

إني أذكِّر الكـاتـب وأمثـالـه بأن الله ﷻ بعـث نبيَّه محمـداً ﷺ لبيـان دينـه، فهو أعلم النـاس بالقرآن وبدين الله، وإذا وصل كلامه إلينا صحيحاً فينبغي أن يطاع، يقول الله ﷻ: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُــولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَــدِيدُ الْعِقَابِ} [الحشــر: ٧]. وقرن طـاعتـه بطـاعتـه، فقـال جـلَّ من قـائـل: {وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَالرَّسُـــولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [ســـورة آل عمران:١٣٢]. وإن عصيانه عصيان لربِّ العزة، لأنه مبلِّغ عنه دينه، والويل لمن خالفه: {يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الأَرْضُ وَلاَ يَكْتُمُونَ اللّهَ حَدِيثاً} [سورة النسـاء: ٤٢]

وهناك آيات أخر، وأحاديث في ذلك، ولا يحتاج الأمر إلى بيان، فيكفي أنه رسـول مرسـل برسالة، وأنه مبلِّغها، عليه صلوات ربي وسلامه.

واستهزاؤه بالأكل باليمين، ودخول الحمام بالرجل اليسرى، وصلاة ركعتين قبل الزواج، وما إلى ذلك من الأحاديث الصـحيحة في هذه الأحوال وغيرها، لا يقدم عليه مسـلمٌ قويُّ الإيمان، بل إن إيمانه وعمله في خطر... وإن الله يُري ناســـاً عواقب دنيوية ليعتبر بها آخرون، ولا يكون هذا العقاب في كل مرة، {وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَــبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى} [سورة فاطر: ٤٥].

ومن تلك العبر أن رجلاً أكل عند رسـول الله ﷺ بشـماله، فقال: "**كل بيمينك**" قال: لا أستطيع، قال: "**لا استطعت**" ما منعه إلا الكِبْر. فما رفعها إلى فيه. كما في صحيح مسلم (رقم ٢٠٢١) يعني شُلَّت يده لأنه عصى رسول الله ﷺ ولم يَنْقَدْ لكلامه أنَفةً وتكبُّراً.

وأذكِّر الكاتب مرة أخرى بأن عاقبة معصية الرسول ﷺ وخيمة، فكيف بمن أنكر سنَّته؟

أما لماذا هذه السنن، ولماذا لا يكون الأكل بالشمال، ودخول الحمام باليمين... الخ فإن الأمر للمشرّع في ذلك، وفي ذلك حِكَم عرفنا بعضها ولم نعرف بعضها الآخر، إنما المسلم يعمل بها اتّباعاً للأوامر التي نزلت وحياً من السماء.

ومن الحكم في ذلك تميُّز شخصية المسلم، فأينما ذهب والتقى بأخ له يراه موافقاً له في هذه الأعمال، وكان رسولُ الله ﷺ يخالف اليهود والنصارى في أشياء كثيرة ويصرّح بذلك، وينهى عن التشبُّه بهم في لباسهم وعاداتهم وما إليها، فإن التقليد سبب للتبعية... حتى قال اليهود في رسول الله ﷺ: "ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئاً إلا خالفنا فيه". صحيح مسلم (رقم ٣٠٢).

وأسأل الكاتب، عندما يصلي ويعتمر ويحج، ألا يقوم بحركات معينة؟ ألا يرفع يديه في الصلاة؟ ألا يقرأ سورة أو آيات بعد الفاتحة؟ ألا يصلي على النبي عليه الصلاة والسلام في التشهد الأخير؟ ألا يصلي في المقام بعد الطواف؟

إنه يفعل هذا، ولكنه ينكر ما هو مثله في مناسبات أخرى، فهذا سنة وذاك سنة، فما هو ميزانك في قبول هذا وردِّ ذاك؟ هل هو ميزان الجرح والتعديل وقواعد مصطلح الحديث أم الهوى والذوق الخاص؟

ومن أخطائه الأخرى قوله [في ع ٤٣٦٣٤- ٢٧/ ٤/ ١٤٢٧هـ]: "حرام أن نلعن القدر، فإن القدر هو الله". وهو خطأ بيِّن، فإن القدر هو القضاء الذي يقضي به الله على عباده.

ويبدو أنه أراد حديث "**لا تسبوا الدهر، فإن الله هو الدهر**". صحيح مسلم (رقم ٢٢٤٦). وهذا أيضا من جهله الفاحش بالحديث، وتدخُّلٌ له فيما لا يعرفه ولا يعنيه.

وقد وقفت على كلمات أخرى له في أعداد تالية من الأهرام بعد التاريخ المذكور تشبه ما سبق أن كتبه، وقد أوقفني من بينها مقال فظيع لا يجرؤ أن يكتبه مسلم يخشى الله، فقد أسقط فيه أحكاماً أثبتها الله سبحانه في القرآن الكريم! وغير ذلك من سخرياته بالدين الحنيف. ففي

جرأة ولا مبالاة وتهكم أقحم نفسه في أمور لا يعرفها أو يصرُّ على أن يكون الحُكْمُ فيها له، لا لله ولا لرسوله، ولا لعلماء الدين، يقول في أول مقال كتبه في الأهرام (ع ٤٤١٤٢ – ٧ شوال ١٤٢٨ هـ): "لا أدعي أنني مفتي القرية ولا المدينة ولا الديار، وإنما كلامي بالعقل ردّاً على مثل هذه التساؤلات: هل أدخل بالقدم اليمنى؟ الجواب: ادخل كما تريد!

في الظلام لا أعرف أين القبلة، فكيف أصلي؟ الجواب في أي اتجاه، فأنت تصلي لله، والله في كل مكان! (؟).

سؤال: إنني أصاب بمغص بسبب الصيام، فماذا أفعل؟ الجواب: لا تصم!

في الحروب لا يستطيع الجندي لا أن يصلي ولا أن يصوم، ففي ذلك انشغال عن مهمته، وفي ذلك خطورة عليه وعلى زملائه من المقاتلين"

وردَّ في الجواب أن المقاتل لا يصلي!

وفيما كتبه هنا طامّات، ويكفي قوله إنه يقول هذا بالعقل، يعني ليس استناداً إلى كتاب ولا سنّة. ويقول للمجاهد المسلم لا تصلِّ، وفي القرآن الكريم آية طويلة في كيفية الصلاة أثناء الحرب، تسمى صلاة الخوف، وهي الآية (١٠٢) من سورة النساء: {وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ أَسْلِحَتَهُمْ}. هذا والعدو يتربص بهم ويكاد أن يهجم عليهم. أما عند الالتحام فللصلاة أحوال أخرى ذكرها العلماء.

وفي آخر هذا المقال ما يُنْبِئ عن حنقه وغيظه على الشباب الملتزم، بدل فرحه بهم، فيقول في خبث يُبطنه، فضَّ الله فاه: "ثم رائد فضاء ماليزي يسأل كيف يصلي في سفينة الفضاء، وكيف يصوم وهو مكلف بمهام خطيرة؟

أنا أقول له: لا تصلِّ ولا تصم، فالدين قد أعطاك هذه الرخصة، وإذا كان يريد أن يتجه إلى القبلة فلم يجدها ففي أي اتجاه، واقفاً أو جالساً أو نائماً، أو لا داعي لأن يصلي، فالدين يُسر. ونحن قد أسأنا إلى الدين بأفكارنا السخيفة وتساؤلاتنا الغبية".

هذا ما قاله في خاتمة مقاله، أعانه الله على خاتمته.

خاتمة:

تبيَّن مما سـبق أن الكاتب أنيس منصـور ليس على عقيدة صـحيحة في كل ما يكتبه عن الإسلام، وأن ثقافته بالحديث معدومة، ولذلك يعد الاشتغال به من "الجرائم"! وتبيَّن أنه لا يريد سيادة الثقافة الإسلامية، ولا الإعلام الإسلامي، ولا الحكم بالإسلام، وهو لا يفتأ يكرر الدعوة للجميع بالاستسلام للكيان اليهودي من خلال معاهدة السادات معهم، كما أن له مغالطات وسخريات بأمور دينية رُدَّ عليه في هذا المقال.

(نشر في مجلة البيان، الرياض)

(١٠)
آخر أيام نزار قباني
وموقفه من الدين

يعرف نزار قباني بأنه شاعر الغزل والمجون، ولا يكاد يضارعه في هذا أحد من الشعراء المحدَثين والمعاصرين، فقد شغل محبي شعره على مدى عقود من الزمن بقصائد في الأدب المكشوف، يصف لهم فيها المرأة من ناحية المتعة والجمال وما إلى ذلك، مما رخص فيه قيمة المرأة الكبرى ومكانتها في التربية والتعليم، والحنان والرحمة، والعمل المناسب لها... وله كتابات في السياسة والوطنية كذلك، وفيه أسلوب السخرية والتهكم..

ولن أطيل في المقدمة، فالقصد من هذا المقال هو الإشارة إلى ناحية أخرى في حياة هذا الشاعر، غير ما كتب في المرأة والسياسة، وهو عن موقفه من الدين والعقيدة الإسلامية، وعن ثباته على أفكاره من عدمها.

ومن المؤسف أنه يتقدم على كثير من الشعراء في السخرية من ذات الله (سبحانه وتعالى) ومن رسوله الكريم عليه الصلاة والسلام، ومن دينه العظيم، وينظم أشعاراً لا ينطق بها مسلم، بأسلوب تهكمي مزدرد، لا يلوي فيه على أدب وخُلق تجاه الإسلام الحنيف، وهو يعلمُ أنْ لا معاقب له على ما يقول في هذه الدنيا، وقد سمَّى ديواناً له بعنوان "أشهد أنْ لا امرأة إلا أنت"، وكأنه يساوي بين المرأة التي يتغزَّل بها مع ركن الشهادة التي لا ينطق بها إلا المسلم، ويُعصَم بها دمه.

ومن شعره السيء المناقض للإسلام، قوله:

قد كان ثغركِ مرة

ربِّي فأصبح خادمي.

وقوله:

لا تخجلي مني فهذي فرصتي

لأكونَ ربًّا أو أكون رسول.

ويقول في القمر:

أيها الرب الرخامي المعلَّق.

ويقول في كفر وإلحاد:

مشيئة الأقدار لا تردُّني

أنا الذي أغيِّرُ الأقدار.

ويستهزئ بالدين قائلاً:

وأنبياء الله يعرفونني

عليهم الصلاة والسلام

الصلوات الخمس لا أقطعها

يا سادتي الكرام

وخطبة الجمعة لا تفوتني

يا سادتي الكرام

من ربع قرن وأنا

أمارس الركوع والسجود

أمارس القيام والقعود

ويردف ذلك بقوله:

وهكذا يا سادتي الكرام

قضيت عشرين سنة

أعيش في حظيرة الأغنام

أعلف كالأغنام

أنام كالأغنام

أبول كالأغنام....

وهذا نموذج من شعره السيء، وهناك ما هو أسوأ بكثير، وليس القصد هنا التوسع فيه، وما أوردته له هو من أعماله الشعرية الكاملة، والسياسية ٣٤٧/١، ٧٦١/٢، ٢٢/٣، ٣٢٩/٣، ١٣٠/٣-١٣٣، والمزيد منه في كتاب "الانحراف العقدي في أدب الحداثة وفكرها" لسعيد بن ناصر الغامدي.

ولكن هل بقي الشاعر على هذا الأسلوب والبعد عن الدين طوال حياته؟ ألا توجد محطات في حياته صحا فيها قلبه، وثاب فيها عقله، ووجد ما ينير له دربه؟

لقد تناقل بعض الناس أنه زار مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وزار قبره، وأنه قال قصيدة مؤثرة عندما وقف أمام القبر الشريف باكياً، وأنشد خجلاً قصيدة طويلة أولها:

قصدوكَ وامتدحوا ودوني أغلقت   أبوابُ مدحكَ فالحروف عقامُ

ولكن تبيَّن بعد التحقيق أنها ليست له، وأنه لم يقل بيتًا واحدً من هذه القصيدة.

وهل تاب والتزم، أعني: هل تبرَّأ من الشعر الحرام، وأوصى بعدم نشر دواوينه التي فيها كفر وإلحاد، أو ما نظمه في المرأة من شعر ماجن متهتك، أو أي شيء يفيد ندمه على فسقه وفجوره الظاهر في شعره؟

لم يُنقل لنا شيء من هذا، والذين كانوا حوله في أخريات حياته لم يذكروا شيئاً من ذلك، فقد اطلعت على كتاب "آخر كلمات نزار" لعرفان نظام الدين، صديقه الحميم، رئيس تحرير صحيفة الشرق الأوسط، الذي صدر بعيد وفات نزار (١٤٢٠ هـ) وتوفي هو (١٤١٩ هـ)، وليس فيه ما يفيد أي ندم عنده، أو أيَّ التزام ديني لديه.

ويمكن اختصار الكتاب كله في كلمات قالها المؤلف، هي: "كان مفرطاً في ثقته بنفسه وبقصائده وبحب الجمهور له". كان هذا أبرز ما كان يردده نزار، ويطلب قراءة ما كتب عنه، في أواخر أيامه. ويقول: إن الأزمة القلبية التي مررت بها لم تكن أزمة جسدية فحسب، بل كانت استفتاء عظيماً لشعري!

ومما يستنتج من كلامه أيضاً الذي يدلُّ على عدم ندمه على شعره، قوله إن لغته لغة الكبير والصغير، والمرأة الناضجة والفتاة المراهقة، والرجل الحكيم والشاب اليافع، والعجوز والطفل.

كما ذكر أنه سلك طريق الشعر بدل الغناء، وأنه سعيد بهذا الاختيار.

وأنه غنى له مطربون ومطربات كبار، وذكر بإعجاب نجاة الصغيرة.

وقال: خمسون عاماً حاولت فيها أن أؤسس جمهورية للشعر، ترفع أعلام الحب والعدل والحرية.... ويتوج فيها النساء ملكات على مدى الحياة.

وقال: أشكر الله لأني لا أحتاج أحداً... وربما كنت الشاعر الوحيد الذي يعيش على دخل دواوينه (ما حكم ريع هذه الدواوين، وقد علم القارئ ما فيها؟).

ويذكر الدنيا، ولم أقف له على كلمة واحدة في الآخرة، يقول: الحمد لله، لقد أخذت حقي من هذه الدنيا (يعني الشهرة وحب "الناس" لشعره).

ويقول: لقد أرتني ذبحة الصدر قبل أن أموت أبعاد مجدي!

ومن غريب قوله: لم أنحنِ أمام أية سلطة سوى سلطة الله.

وآخر ما كتبه ثناء على الرئيس حافظ الأسد لأنه أطلق اسمه على شارع بدمشق!

وذكر أنيس مصور في الأهرام (ع ٤٤٤٩٣) أن آخر ما كتبه نزار قباني على فراش الموت: "لم يبقَ عندي ما أقول، تعبَ الكلام من الكلام، ومات في أحداق أعيننا النخيل، شفتاي من خشب، ووجهك مرهق، والنهد ما عادت تدقُّ له الطبول".

وقرأت ما كتبت عائلته في تأبينه، فلم أجد كلمة أو فضيلة له في الدين، سوى كلمات قد لا يُفهمُ منها مَيلٌ أو عاطفة دينية، كقول بناته: " لم يشبب والدنا بامرأة قط في شعره" ؟ و تقول ابنته فيه عندما كانوا في بيروت: "سوف أفضحك يوماً، إذ سأقول للناس كم أنت نقي وعذري وبيتوتي، تنام الساعة السادسة مساء وتنهض مع أذان الفجر، وكم أنت نظيف ونظامي ومعتزل عن ضوضاء الحياة الاجتماعية، فلا ليالي حمراء ولا زرقاء ولا صفراء ولا من يسهرون، ولا تسكع ولا من يتسكعون". ويبقى القول فيما كتبه من شعر وما فيه من انحراف عقدي وغيره.

وقد شكَّ كثيرون في تلك القصيدة التي أوردت بيتًا منها، واستبعدوا أن يكون هو قائلها. والنتيجة التي نصل إليها في نهاية هذا المقال أنه إن كان هو قائلها أو لم يكن، فالنتيجة واحدة!

ومن شعره، الذي قد يدلُّ على مذهبه فيما نحن بصدده، ولعله كان في ثورة عنفوانه الشعري آنذاك:

ما تبتُ من عشقي ولا استغفرتهُ   ما أسخف العشّاقَ لو همُ تابوا

بل سيندمون كثيراً لو لم يتوبوا يا نزار، إذا قالوا مثلما تقول، والموعدُ يومُ الحساب، على كل كلمة كتبتها أو نطقتَ بها.

(١١)
محمود درويش ونضاله مع الشيوعيين اليهود

محمود سليم درويش شاعر وطني معروف من قرى عكا، ولد لأسرة تعمل في الزراعة، نظم الشعر وهو طالب وانضمَّ إلى الحزب الشيوعي الإسرائيلي، وبتشجيع من إميل حبيبي أصبح عضواً في هيئة جريدة "الاتحاد" لسان حال الحزب الشيوعي المذكور، الصادر في حيفا، وإميل المذكور كان ممثل الحزب الشيوعي في الكنيست اليهودي لتسعة عشر عاماً، حتى سنة ١٣٩٢ هـ (١٩٧٢ م).ثم أصبح درويش محرراً لملحق "الجديد" الأدبي التابع للحزب أيضاً، وأرسله الحزب الشيوعي المذكور إلى الاتحاد السوفيتي لعمل دورات حزبية، كما درس هناك الاقتصاد السياسي، وتنقل في مناصب ثقافية بمنظمة التحرير الفلسطينية ثم استقال منها، ربما لملاحظات له على اتفاقية أوسلو ١٩٩٣م. وقد تزوج باثنتين وطلقهما، ورفض الإنجاب.

كتب الشعر العمودي ثم الحرّ، وتميَّز بأسلوب خاص في نظمه، وقدم قصائد طوالاً، واعتبر شاعراً وطنياً ثائراً، وترجم شعره إلى لغات عالمية، ومات في أمريكا في الثامن من شعبان من عام ١٤٢٩هـ، ١٠ آب (أغسطس) ٢٠٠٨م.

فهو من ناحية النظم والتفنن في قول الشعر شاعر فذّ، وقد أخذ مكانة بارزة بين شعراء عصره في ذلك.

ومن العدل أن يُذكَرَ ما للشخص وما عليه، حتى تستوي شخصيته في عين القارئ، ويُعلمَ ما كان عليه من معتقدٍ وعملٍ طوال حياته، وقد رأيت أنه لم يركز على جانب من سيرته أخذ وقتاً من عمره، وشكل ثقافته ومنهجه في الحياة، وهو ما حدا بي إلى التذكير به والتنبيه عليه، تكملة لجوانب من سيرته.

فقد ابَّنه واحتفى بشعره وسيرته كثير من المراكز والمؤسسات الثقافية والفضائيات العربية بعد وفاته، وقبلها كذلك، وكلها أطراف حكومية وأشخاص علمانيون وحداثيون، ولم أر احتفاءً به من أي طرف إسلامي، لا قبل وفاته ولا بعدها، وربما يعود ذلك إلى كونه شيوعياً ملحداً، هذا ما كان عليه في معظم سني حياته، وربما أخذ معتقده هذا معه إلى القبر. وإذا كان قد ترك أفكاراً شيوعية سياسية وفكرية معينة، فلم أقرأ عنه أيَّ تقارب من الدين. ولم يكن شيوعياً

عادياً، بل كان مناضلاً جنباً إلى جنب مع اليهود الشيوعيين، فقد كان عضواً عاملاً في الحزب الشيوعي الإسرائيلي (راكاح)، وليس أيَّ حزب شيوعي عربي آخر. ومن المعروف، بل من البدهي أن جميع الأحزاب الشيوعية تعترف بالكيان الصهيوني، وقد كان الاتحاد السوفيتي أول معترف به، والأحزاب الشيوعية الأساسية كانت تبعاً للاتحاد، ومحمود درويش كان واحداً منهم، والحزب الشيوعي الإسرائيلي خاصة هو أكثر المعترفين بدينهم وقوميتهم ووطنهم المزعوم، ولهم أفانين وسياسات في الانتماء إلى الأحزاب لتحريف الأفكار وصيد الشخصيات، نعلم أسرار بعضها ولا نعلم بعضها الآخر، والمهم أن محمود درويش كان معهم. وفي ذلك الوقت كان العربي الذي يعترف بـ "إسرائيل" يعتبر خائناً، بكل ما تعني هذه الكلمة من معنى، وما كان يجرؤ عربي أن يعترف بها، وليتذكر القارئ ما قاله العرب حكومات وشعوباً في السادات لما اعترف بدولة لليهود، بينما كان محمود درويش وأضرابه الشيوعيين معترفين بها، دون اعتبار لشعور أي فلسطيني ولا عربي ولا مسلم، ولكن لما استمرأت حكومات عربية وأنصارها العلمانيون والحداثيون الذل والهوان، وبينهم الحكومة الفلسطينية نفسها، صار الاعتراف بـ "إسرائيل" شيئاً طبيعياً، لا يُنْفَرُ منه ولا يُعاتبُ عليه صاحبه، ولذلك لا يستبعد أن يستمر شريط الذلّ والانتكاسة والخذلان بين المراكز والمؤسسات والفضائيات العربية الرسمية والعلمانية والحداثية، وتخلط بين الخائن وغير الخائن، وتمجد شعراء وأدباء ومفكرين سبقوا كثيراً من العرب إلى لاعتراف بالدويلة اليهودية، وهم يأبون مقاومة العدوَّ المغتصب الذي احتلَّ أرضهم وقتل مئات الآلاف من أهليهم وجيرانهم.

وقد مارس هذا الشاعر هوايته في نظم الشعر بعواطف سخية لا يخسر منها شيئاً، ولا يزيد العرب منها إلا كلاماً وضجيجاً، لا يقرِّب نصراً، ولا يُبعِدُ خطراً. ولهذا وغيره فإنه لا يضرُّ الكيانَ الصهيوني أن يقول درويش وغيره ما يقول، بل إنه مستعدٌّ للاحتفاء به وبأمثاله بعد موتهم مثل كل الدول العربية ما داموا لا يقاومون، وقد اقترح هذا الكيان — باسم وزير الثقافة فيه — إطلاق جائزة أدبية إسرائيلية باسمه، هي جائزة التفرغ للأدب التي تقدمها وزارة العلوم والثقافة والرياضة والشباب الإسرائيلية، ولكن عائلته رفضت. وهو اقتراح واضح لا يحتاج إلى تعليق.

أرجو أن يكون ما كتبته هنا إضافة موضوعية إلى ما احتفي به، حتى تكتمل جوانب سيرته لدى القارئ.

(١٢)
ما لا يعرف عن عبدالله الطريقي

عبدالله بن حمود الطريقي شخصية قومية معروفة، من مدينة الزلفي السعودية، وكان أول وزير للبترول بها، تميزت حياته بالدعوة إلى الوحدة العربية، والعمل على تخليص النفط من الشركات الأجنبية، فكان أن رفع شعار "بترول العرب للعرب"، ودعا وساهم في إنشاء الأوبك.

وكان مؤمناً بثورة الرئيس المصري جمال عبدالناصر وشخصه؛ لأنه كان "وحدوياً"، وذكرت ابنته أنه لم يكن ناصرياً، لكنها ذكرت أيضاً أنه غضب وانزعج عندما نقدت عبدالناصر في سياسته الداخلية.

كما عرف بمواقف معارضة لحكومة بلاده، عندما كان في الخارج، في مصر ولبنان والكويت، ولكن في حدود.

وقد كرِّم بعد وفاته بإنشاء كرسي له في مركز الوحدة العربية ببيروت، وقام بطبع أعماله الكاملة في (١٠٣٢ ص).

والمهم أنه لم يجنِ من أفكاره القومية ونضاله الوحدوي شيئاً، فقد زاد تشتت العرب ومواطن اختلافاتهم.

ولعله بعد عمر طويل وخبرة بشؤونهم رأى أن القومية لا تجمع، فلا بد من مبدأ وعقيدة تجمعهم، ولا يُعرف أن العرب اجتمعوا أو صاروا قوة عالمية إلا بالإسلام، فلا عزَّ لهم إلا به.

فهل ما حدث من تغيير في حياته كان لمثل هذا أم هو لغير ذلك؟

لقد سلك طريق التدين قبل أكثر من عقد من وفاته، منذ نحو ١٤٠٥ هـ إلى حين وفاته ١٤١٧هـ، والتزم بذلك عملياً في عباداته، حيث لزم المسجد، فكان يؤدي فيه الصلوات الخمس جماعة، ويؤمُّ المصلين في صلاتي الظهر والمغرب، ويرفع الأذان في مسجد الحيّ إذا تغيَّب المؤذن، وأعفى لحيته، وكانت طويلة...وإمعاناً في التزامه الديني ذكر صديق له أنه أراد مرة إعادة الصلاة لأن الإمام لم يؤدها في سكينة وطمأنينة.

ولا أعرف من أفكاره السياسية في آخر حياته شيئاً، ولم يذكر أصدقاؤه إنكاره لشيء مما كان يدعو إليه سابقاً، أو تنازله عن بعضها، أو أنني لم أتابع ذلك بدقَّة، لكني سألت كاتباً يعرفه

وقد كتب عنه، فقال: لم يكتب في ذلك شيئاً. يعني أن الأمر لا يُعرف. أقول: إلا أن يكون ترك شيئاً مخطوطاً لم يعلن عنه.

فهل كان توجهه نحو الإسلام من ناحية تعبُّدية، أم أنه كان لكامل نظام الإسلام ونهجه؟ يعني هل نبذ الطريقي أفكاره القومية والعلمانية السابقة أم أنه أبقى عليها واكتفى بالشعائر التعبدية من دينه؟ وهل كتب شيئاً من ذلك للدلالة على ما ذكر؟

لقد كانت له أفكار قومية وعلمانية لا تلائم الإسلام ألبتة... ولو لم يكن كذلك لما كان الاحتفاء به في الخارج إلى درجة كبيرة من قبل مؤيديه، ولا أعرف بينهم ممن يحمل هم الإسلام والدعوة إليه...

وكان رافضاً للأحلاف الإسلامية، ويقول: إنها ليست سبيلاً لمواجهة الاستعمار، أو لمواجهة إسرائيل، ولا يمكن جني أي فائدة منها! ويبرر ذلك بأنها مرتبطة بالدول الغربية [والدول العربية؟؟] وأن ذلك يزعج المعسكر الاشتراكي، والمطلوب أن يزيدوا من تقاربهم من هذا المعسكر... وما إلى ذلك ...

وكان يثني على اليمن الجنوبية (الشيوعية آنذاك) ويقول مخاطباً العرب: لو فهم الآخرون ما معنى الدولة اليسارية لرحبوا بها ولضموها إلى صدورهم ولأعطوها حقها من الثروات. قال ذلك لكونها تحاول التخلص من "الاستغلال والاستعمار والسيطرة الأجنبية والجهل والفقر والمرض". وقال: فحاولوا يا إخواننا العرب فهمهم قبل فوات الأوان!!

فهل بقي على مثل هذه الأفكار وغيرها؟

وقد بقي جثمانه مسجى ثلاثة أيام في مصر، لرفض زوجته أن يُدفن في السعودية (وهي أخت الزعيم الدرزي كمال جنبلاط، تزوجها بعد طلاق زوجته الأمريكية، التي أنجبت له صخراً)، ثم دفن بها، بعد محاولات دبلوماسية. وكانت ابنته تقول إن والدها لم يربِّهم تربية "سعودية"! وقد عاد إلى بلده في سنواته الأخيرة، وأكرمته الدولة، وفي آخر سنتين من عمره كان في القاهرة لتكمل ابنته تعليمها.

(المعلومات المذكورة عنه من كتاب صدر فيه بعنوان: عبدالله الطريقي: صخور النفط ورمال السياسة/ محمد بن عبدالله السيف.- بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ١٤٢٨ هـ. والتحليل من كاتب المقال).

(١٣)
آه ... يا جدّي

إبراهيم محمد خير يوسف

لقد مات جدّي!

كان يحبني كثيراً، لأنني كنت أصغر أحفاده.

يناديني بصوته الضعيف: تعال يا إبراهيم. ثم يمد يده إلى تحت فراشه ويخرج ريالات ويعطيها لي، وهو يبتسم.

وقد يناديني أحيانا لأجلب له بعض الماء، أو أحضر له عصاه، أو أعيد شيئاً إلى مكانه.

وكانت آخر أيامه في بيتنا عندما حملوه لينزلوه من الدرج ويجلسوه في السيارة، فنادى أبي: انظروا إلى جدكم جيداً، فلعلكم لن تروه بعد الآن! وكان كما قال أبي، لم نره بعد ذلك.

لقد مات جدي!

كان مرضه الأخير مؤلماً جداً، لم يكن يطيقه جدي، وكان في التسعين من عمره، وما كان يقدر أن يتمدد ولا أن ينام على جنبيه، وقد بقي أكثر من أسبوعين وهو يتأوه من الألم من رجليه الضعيفتين، ولا يقدر أن يتحرك إلا قليلاً.

لقد مات جدي رمضان... في الشهر الماضي (جمادى الأولى ١٤٢٨ هـ).

عندما أذهب إلى غرفته لا أجده... أرى خياله وظله وذكراه فقط، وكأن عينيه الزائغتين تنظران إليّ من بعيد، وكأن هاتفاً بصوته الضعيف يناديني ويقول: لا تنسني يا ولدي إبراهيم، كنت أحبك كثيراً، وأنصحك كثيراً، ادعُ لي إذا تذكرتني، تصدَّق عني ببعض الريالات إذا كبرت إن شاء الله...

لن أنساك أبداً يا جدي، ليتني ساعدتك أكثر، ليتني كنت عندك دائماً لأكون رهن إشارتك، ليتني كنت أحمل كأس الماء في يدي دائماً لأقدِّمها لك عندما تريد. لقد بكينا عليك كثيراً يا جدِّي، أنا وأبي وأمي وإخواني وأخواتي جميعاً رحمك الله برحمته الواسعة، وأسكنني معك الفردوس الأعلى، وسلام عليك في كل حين.

إبراهيم بن محمد خير بن رمضان يوسف

(١٤)

أسامة!

لم أرَ (أسـامة)، كما لم أرَ أخويه، ولم أر أحداً من أولاد إخواني وأخواتي، سـوى أخ لي رأيت أطفالاً له.

فقد عشت في غربة امتدت (٣٢) عاماً وشهوراً، لم أتمكن خلالها من العودة إلى بلدي سورية، ولو رجعت لرحبت بي السجون وفتحت لي أبوابها، ولكنت صيداً ثميناً لضباط المخابرات ومصاصي الدماء ومحترفي التعذيب والتنكيل، وربما انتظرني القتل، لا لشيء، سوى لأني من أهل الإيمان، الذين لا يحنون رؤوسهم للطغاة، ولا يجاملونهم، ولا يسكتون عن ظلمهم...

لم أرَ أسامة، الذي كان اليد اليمنى لشقيقي محمد زكي، وأنجبَ أبنائه، اعتمد عليه في فهرسة مكتبته التجارية النادرة، وتخزينها، وساعده في شؤون البيت، بعد أن توفيت والدته وهو صغير... وراجع له كتاباته المتتالية في الشبكة العالمية للمعلومات، وما إلى ذلك...

لم أرَ الحبيب أسامة، وقد كان شاباً ينتفض حيوية ونشاطاً، في العشرين من العمر، قد دخل الجامعة قريباً، يفكر في مستقبل يخفف فيه من أعباء والده المكدود، الذي لم يعرف الراحة، مذ كان فتى، وحتى يومه هذا.

وكان والده بالنسبة له كل شيء، بعد الله تعالى، يستشيره كما يشير إليه، ومع بعضهما دائماً، إنْ في البيت أو في المكتبة، فقد كان كالظلّ له.

واختطفه الموت فجأة في أحد أيام شهر ذي القعدة من عام ١٤٣٤هـ، في نوبة قلبية لم تفلته، وتركته جثة هامدة في لحظات...

أُخبرتُ بوفاته فذُهلت، واسترجعت، وصرت أفكر بكيفية (مقتله): هل هو بفعل قناص، أم أنها طلقة شاردة، أم...، فالوفاة الطبيعية للشباب خاصة لا تخطر على البال في هذه الأيام بسورية المنكوبة...

واتصلت بأخي أعزيه... فرأيت قلباً مكلوماً، وصوتاً متهدجاً، ونحيباً يقطع نياط القلب، فأجهشت بالبكاء معه، واستفسرت منه عن كيفية وفاته لأغير مجرى الحديث وليُصرفَ عنا البكاء، وأنا متصوِّرٍ أنه قُتل بفعل فاعل، وهو ينفي، ويتحدث عن وفاة عادية...

كان أسامة حبيباً بين أهله جميعاً، مبتهجاً بهم، حنوناً، يحبُّ حياة الجد، والمسؤولية، ويتعاون على الخير والصلاح...

رحمه الله، وقد رقد إلى جانب والدته، وأعان الله والده وأخويه عبادة ودجانة، والحمد لله على كل حال، فله ما أخذ وله ما أعطى، وهو وليُّنا وخالقنا وراحمنا.

(١٥)
وفيات أعلام

محمود شاكر شاكر

وفاته بالرياض في الأول من شهر صفر ١٤٣٦ هـ.

رحمَ الله الأستاذَ محمود شاكر الدمشقي المؤرخ، تتلمذنا على كتبهِ عندما كنا شبابًا، وعرفنا بها أحوالَ المسلمين في العالم. اللهم اغفرْ له واجزِه عنا خيرَ الجزاء.

*** *** ***

عدنان شيخ إبراهيم حقي

وفاته في إستانبول ٣ شعبان ١٤٣٦ هـ.

أحد جبال العلم في الجزيرة السورية، العالم المتبحر، الأديب اللغوي، صاحب دعوة ومصنفات وإصلاح، ومكتبة نفيسة لا مثيل لها في الجزيرة. تحدثت عنه في ذكرياتي. رحمه الله وجزاه عنا خيرًا.

*** *** ***

بسام بن عبدالوهاب الجابي.

وفاته في ٢٠ شعبان ١٤٣٨ هـ. رحمه الله وأحسن مثوبته. ناشر محقق صاحب رسالة. أول من نشر لي كتابًا (الخضر بين الواقع والتهويل، ثم لقمان الحكيم وحكمه) عندما أنشأ (دار المصحف) في بيروت. وقال عندما رأيته أول مرة في دمشق (ربما عام ١٤٠٢ هـ): عندما رأيت مراجعك علمت أنه كتاب جيد. وعندما قلت إني أريد أن يقدم فلان (الدكتور) لكتابي، نصحني ألا أفعل، وقال: إن محتوى كتابك هو الذي يقدمك للقارئ. وكان متواضعًا أيضًا، أرسلت له كتابًا لي في التراجم هدية له، فأعجب به أيما إعجاب، وقال: "لست أهلًا لهذه

الهدية الكبيرة". وكنت أريد أن أرسل له (تتمة الأعلام) بعد أن اكتمل في طبعته الرابعة في ١٠ أجزاء، وأفكر في ذلك... قرأت هذا النعي الحزين له. وكنت أقول له في كتاباتي (أستاذي) حيث علمني ألفباء النشر. اللهم فارحمه رحمة من عندك، واجزه عنا خير الجزاء.

كان عارفًا بأعلام العصر، مقدرًا لهم، ولا يرى نفسه بينهم، بل تلميذًا وخادمًا لتراثهم. رحمه الله تعالى، وجزاه خيرًا عما كتب وحقق.

*** *** ***

محمد أديب الصالح.

وفاته في الرياض يوم ٨ شوال ١٤٣٨ هـ.

العالم الرباني، المفكر الجليل، الداعية الصبور، أستاذ الحديث والتفسير في كلية الشريعة بدمشق، ثم في الرياض، رئيس تحرير مجلة (حضارة الإسلام).

كان طلبة الكلية بدمشق إذا رأوه حضر للدرس يقولون: جاء الزعيم!

اللهم ارحمه، واجعله في عليين، واجزه خيرًا عما قدّم للإسلام والمسلمين.

*** *** ***

محمد صالح مصطفى

توفي يوم ٢٩ ذي الحجة ١٤٣٨ هـ.

من مدينة عامودا بالجزيرة السورية.

أستاذ التفسير في جامعة الإمام بالرياض.

حصَّل درجته العالية والعلمية من الأزهر قديمًا.

قيادي كردي إسلامي معروف عند الشعب الكردي في مختلف أوطانه.

أخذتنا صحبة معه سنوات منذ عام ١٤٠٢ هـ.

وكان هادئًا، صبورًا، زاهدًا في الحياة، كريم اليد.

ويحب قومه ويخدمهم بكل ما يستطيع.

بقي عاجزًا عن الحركة سنوات حتى توفاه الله،

في مكة المكرمة.

وكان قد أقام بها سنوات.

وله مقالات ومحاضرات ومداخلات وبحوث مؤتمرات لم تجمع،

وله كتب معظمها في مجال تخصصه علوم القرآن والتفسير.

***   ***   ***

محمد مهدي عاكف

وفاته في ٣ محرم ١٤٣٩ هـ.

رحمه الله برحمته الواسعة. كان من عباقرة الإخوان المسلمين ومفكريهم ومجدديهم، مثل عمر التلمساني. شغل الصحافة العالمية بآرائه وتصريحاته وتحليلاته الإسلامية والسياسية. اللهم اجزه عن الإسلام وأهله خير الجزاء.

***   ***   ***

محمد فوزي فيض الله

العلامة الأصولي الفقيه، توفي بتركيا في ١٤٣٩/١/٥ هـ.

حضرت له في الجامعة عندما كنت طالبًا في كلية الشريعة بجامعة دمشق،

وقد كان آيةً في التأليف والتصنيف،

علّامة في التنظيم والترتيب والتبويب،

وخاصة في المسائل الفقهية وفروعها والخلاف فيها،

وهو من حلب الشهباء،

حصَّل شهادته العالية والعالمية في الفقه وأصوله والقضاء الشرعي من الأزهر،

وقد فُصل من الجامعة بقرار رئاسي إلى ونقل إلى زارة الصحة في عهد حافظ الأسد وحزب البعث.

ثم درَّس في كلية الأوزاعي بلبنان، وفي كلية الشريعة بالكويت.

انتفع به الطلبة كثيرًا وحتى الأساتذة الفضلاء،

وكنت واحدًا من المستفيدين منه والمعجبين بأسلوبه والمقرّين بتوسعه وتمكنه في البحث والتحقيق والتدقيق،

وكان هو أنيقًا في شخصه، حازمًا في هيئته، متثبتًا في مشيته.

فجزاه الله عنا خير الجزاء،

ورحمه برحمته الواسعة.

*** *** ***

محمد بن لطفي الصباغ

توفي يوم الجمعة فجرًا ٨ صفر ١٤٣٩ هـ (٢٠١٧ م).

وهو دمشقي سلفي. أستاذ علوم الحديث بجامعة الرياض.

ويعتبر من العلماء الشجعان، الذين لا يستحيون من قول القول، ولا يهابون من الصدع به.

أذكر موقفًا له شجاعًا لا أنساه!

ففي أحد مجالس الأديب المعروف عبدالعزيز الرفاعي رحمه الله، التي عرفت بالخميسية، رأيت الأستاذ الصباغ يحضرها لأول مرة، فتعجبت منه، ولم أعرف السر، وكان موعد الخميسية مع أحد كبار أعضاء مؤتمر الطائف لوقف الحرب الأهلية بلبنان عام ١٤١٠ هـ (١٩٩٠ م)، وكل الذي أذكره أنه كان (جورج سعادة) رئيس حزب الكتائب! الذي زار الرياض من الطائف، وعرف شهرة (الخميسية) فحضرها.

وما إن بدأت الجلسة حتى شرع الأستاذ الصباغ بتوجيه كلام إليه حمل كل معاني اللوم والنقد والتقريع والتجريح، بصراحة وشجاعة نادرة، وقال له إنه وجماعته سبب معظم المشكلات في لبنان وغيره، وأن ما عانى منه العالم العربي من انحرافات فكرية وعلمانية وصدّ عن الإسلام ومحاربة علماء المسلمين كله انطلق من لبنان، وأنه عاصمة النزعة التغريبية والتنصيرية التي يركز

عليها الغرب، وتصدير المجون والجنس والأدب المكشوف والمجلات والأفلام الخليعة ونشرها بين أبناء المسلمين لإلهائهم عن قضاياهم ...

وبقي معه في مثل هذا الكلام الذي يعرفه القارئ ربما نحو ربع ساعة أو أكثر. وجورج سعادة ساكت لا ينبس ببنت شفة، والمجلس كله بأدبائه ومفكريه ومثقفيه واجم مترقب وكأن على رؤوسهم الطير، وراعي الخميسية الأستاذ الرفاعي قد يتدخل بكلمات أو يبتسم وينظر إلى الأستاذ الصباغ وكأنه يريد أن يختصر الكلام...

رحم الله الأستاذ الصباغ برحمته الواسعة، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

(١٦)
محمد خير رمضان يوسف (لقاء صحفي)

(أ)
قضية المرأة.. تحرير أم تدمير؟!

مجلة الشقائق: الملاحظ أنه في كل المناطق التي تشتعل الحرب فيها ضد المسلمين، تكون المرأة أول الضحايا وأكبرهم، ويعمل العدو فيها قتلًا وتعذيبًا واغتصابًا دون مقاومة تذكر فيها!
فهل قصر المسلمون في تهيئة المرأة المسلمة لمواجهة الأعداء داخليًّا وخارجيًّا؟!
ما هي أشكال هذه التهيئة؟!

جواب محمد خير يوسف: لا أدري لماذا تسألني هذا السؤال، وأنت تعرف - والقراء جميعًا - أن الجواب هو نعم بالخط الأسود العريض!
بل الأمر أسوأ من هذا بكثير؛ حيث إن التخطيطَ التربوي العامَّ أساسًا يسير إلى إفساد المرأة، وإلى توجيهِها نحو حياةِ المرأة الغربية بكلِّ ما فيها من مفاسد وموبقات!
وحتى لا أُدخِل القارئ في الجو التشاؤمي من هذا القبيل، ولا أستطردَ فيه، أذكر أن أعمال القتل والتعذيب والاغتصاب للمرأة المسلمة في حالات الحرب، تهدف إلى الإرهاب والإذلال، فالإرهاب للتخويف وبثِّ الذعر في حرب نفسية بين الفئات الضعيفة من المجتمع، والإذلال، لأنه يتعلق بعِرْض المسلم وشرفه، فالعِرْض من الدين، والمسلم يغار على عِرْضه ويقاتل دونه، ويموت شهيدًا إن قتل بسببه، وإنما يفعل العدوُّ ما يفعل من هذه الأمور ليهين مقام الرجولة والمروءة النابعينِ من إيمان الرجل وعقيدته.
وهذا الاعتداءُ من العدو لا يُصنَّف تحت انتصاراته ولو كان في حالة حرب، بل هو جبن ودناءة، وجريمة عالمية تنبذها الأديان والقوانين جميعًا؛ لأنه اعتداءٌ صارخ على مَن لا يحمل السلاح، ولا يقدِر عليه، ولا يشارك في الحرب.

وحكم الإسلام في هذا واضح جلي، فهو لا يجيز قتل غير المقاتلة، من امرأة، أو صبي، أو شيخ هرم، أو مريض مُقعَد، أو أشل، أو أعمى، أو مجنون... إلخ، ولذلك لا يجب عليها الجزية؛ لأنها ليست من أهل القتال.

وإذا عرَفنا أن أمر المرأة المسلمة مبنيٌّ على الستر والعفاف، والتربية الأسرية وأمور التعليم والتمريض وما إلى ذلك مما يوافق تكوينها الجسماني وتهيئتها النفسية في حدود ما أباح لها الشرع، وهي بعيدة عن الحياة العسكرية التي يلزم فيها الخشونة، والقوة، والحركة، والتدريب القاسي، وحمل السلاح، والقتال، وما إلى ذلك - فإننا نعرف بهذا أن الاعتداء على الآمنين والضعفاء ومَن لا يقدر على حمل السلاح يكون سهلاً، ويكون السبب هو جرائم الحرب التي يرتكبُها العدو غير المتخلِّق بالأخلاق الإنسانية، بل هو أقرب إلى سلوك الوحوش التي لا يحكم تصرفاتِها عقلٌ ولا تدبير، وليس السبب المرأة ذاتها.

وحوادث الاغتصاب التي راجت أخبارُها عن اعتداء الصِّرب على النساء المسلمات كان منظمًا وهادفًا، بتدبير عقول مجرمين، لم يشهد التاريخ لهم مثيلاً، فقد اعتُدِي على صغيرات في المدارس الابتدائية، واغتُصِبت فتيات عدَّة مرات في اليوم الواحد، واعتُدِي على أمهاتِهن أمامهن، وعليهن أمام ذويهن، وقد انتحرت العديدات في معسكرات الصرب بقطع شرايينهن للخلاص من هذا العار الذي فُرِض عليهن.

وقلت: إن التقصير في تهيئة المرأة لمواجهة الأعداء قائم بشكل واضح، بل هو في حق الرجال أوضح!

فأجواء التربية في العالم الإسلامي غير سليمة، والإعلام غير سليم، والغزو الفكري مفتوح مكثَّف، يُساعِده الإعلام الداخلي نفسه، والتضليل وارد تمامًا، حتى لم تَعُد المرأةُ المسلمة تستطيعُ تصنيف عدوِّها من صديقها، بل هي تكادُ تسمع وتشاهد ما يقول لها أعداؤها وهي تستأنس وتضحك، ولا تعزف أن دمارها ودمار أسرتها يكمن فيما تستمتع به وتأنس!

وهذا كله يؤثر على موقفها وتربيتها لأولادها، التي من المزمع أن تُخرِّجهم دعاة وأبطالًا مجاهدين.

وإن أقرب مثال لما نحن بصدده هو صراعنا مع اليهود، الذين هم ألدُّ أعدائنا وأعداء ديننا، فماذا يُمهِّد الإعلام العربي الآن لهم وللدولة التي أقاموها بحبل من الناس؟

لماذا صارت المرأة المسلمة تسمع صباحَ مساءَ من بني قومِها عن هؤلاء الأعداء؟

ومن يتحمَّل مسؤولية تشويه التربية التي تكتسبها بنات الجيل الجديد، اللواتي يتعلَّمن في المدارس ويتعرَّضن لهذا التضليل الإعلامي القسري؟!

إن العدوَّ – في المصطلح الإسلامي – عدوٌّ، مهما تغيرت الظروف، ولا يجوز تحسين صورته إعلاميًّا، ناهيك عن الولاء له أو لأنصاره؟

وهذه الموازين إن تغيرت أثرت تأثيرًا سلبيًّا واضحًا على فئات المجتمع الإسلامي، بل ينبغي أن يُهيَّأ المجتمع دائمًا لمواجهته، عقديًّا ونفسيًّا إن لم تكن حالة حرب، وجسديًّا ومعنويًّا في حالة حرب.

وفي مجال الحياة الحربية تكون المرأة في أصعب المواقف إذا داهم بلدَها العدوُّ، فهي ليست ذات (تكوين عسكري)، ويصعب عليها مضاهاة الرجال في حمل السلاح والتفجير والقتل، ولذلك لم يُوجِب الإسلام عليها الجهاد، بل فضَّل لها جهادًا بدون قتال هو الحج، ففي صحيح البخاري أن عائشة رضي الله عنها قالت: يا رسول الله، ألا نغزو ونجاهد معكم؟ فقال عليه الصلاة والسلام: "لكن أحسن الجهاد وأجمله: الحج، حج مبرور"، لكن الحديث يدل على أن لهن جهادًا غير الحج أفضل منه، كما ذكر ذلك الحافظ ابن حجر في فتح الباري (باب حج النساء)، وقد ثبت أن الصحابيات كن يخرجن إلى الجهاد فيداوين الجرحى، وفي الأمر تفصيل: فعندما يكون الجهاد فرض كفاية؛ (أي لا يكون النفير عامًّا)، لا يجوز للمرأة الاشتراك في الجهاد إلا بإذن زوجها – ما لا يتم الواجب إلا به يكون واجبًا – أما إذا كان النفير عامًّا، كأن هجم العدو على بلد إسلامي، فالجهاد فرض عين على كلِّ قادر من المسلمين، ويجوز للمرأة حينئذٍ أن تخرج بغير إذن زوجها.

وأثناء الحرب، وعندما يكون النفير عامًّا، ويكون الجهاد فرضَ عينٍ، ويلزم المرأة فيه الجهاد، يكون أيضًا تدريبُها واجبًا، فما لا يتم الواجب إلا به يكون واجبًا، ولا شك أن ذلك محدودٌ بحدود معيَّنة، منها التدريبات الدفاعية، وكيفية استعمال السلاح، ومداواة الجرحى، ومراعاة مصالح الأمة الداخلية، وأمور إدارية ومركزية وإعلامية، وإمداد المجاهدين بالطعام وتهيئته لهم، إلى آخر ما يراه قادة الجهاد مناسبًا لهن وفي صالح العمل الإسلامي.

كما ينبغي تردُّدها على المراكز الإسلامية التي تبعث فيها روح الإيمان والثبات والصبر والعزيمة والتشجيع على الجهاد، وأن تحذر من أحابيل الأعداء والاستماع إلى إعلامهم المضلل، ويكون التوجيه ممن يوثق بدينه وخُلُقه، وفي الحدود الشرعية المرسوم لها.

وإذا تعذَّر عليها التدريب والتعليم لظروف خارجة عن إرادتها وإرادة الجهاد، فإن التدريب الأُسْرِي هو مطلب مهم في كل وقت، وبإمكانها أن تأخذ نصيبها من ذلك في حدود المطلوب، مما تمكن به من الدفاع عن نفسها ومكمنها.

(نشر في مجلة "الشقائق" الشهرية، مجلة كل النساء، شهرية، تُعنَى بشؤون المرأة، العدد الثاني، السنة الأولى، غرة رمضان ١٤١٦هـ، يناير ١٩٩٦م).

(ب)
سطور من تجربة المؤرخ محمد خير رمضان يوسف

حاوره في تجربته/ أبو الحسن الجمال
كاتب صحفي – مصر

ما أحلى التردد على رموز حياتنا الثقافية والعلمية والاقتراب منهم، والاستفادة من تجاربهم، حتى نضعها على مائدة القارىء... ينهل منها الخير الكثير، ولقاءنا الآن مع عالم جليل امتد نشاطه إلى مجالات شتى.. هو الأستاذ المؤرخ والمفكر الإسلامي محمد خير رمضان يوسف.. فقد بدأ السلم من أوله مدرساً للمراحل الابتدائية والإعدادية والثانوية في محافظة الحسكة والعاصمة دمشق بين ١٣٩٤ – ١٤٠١ هـ (١٩٧٤ – ١٩٨١ م)، ثم عمله إماماً، ثم إماماً وخطيباً في جامع زين العابدين بمدينة القامشلي مدة عام ونصف العام، بين ١٤٠٠ – ١٤٠١ هـ، وصاحب أثناءها علماء، وحضر لهم مجالس عِلم، كما ولج بلاط الصحافة صاحبة الجلالة، وعمل في مبدأ الأمر مصححاً في مجلة "عالم الكتب" السعودية سنة ١٤٠٧هـ ، ثم سرعان ما تحول إلى التحرير، واكتسب خبرة كبيرة في هذا المجال، وأصدر مجلة إلكترونية في ١٥ رمضان ١٤٣٢هـ بعنوان (مجلة الكتاب الإسلامي)، كان يقوم بإعدادها وتحريرها، كما استفاد في مجال آخر عندما عمل في مكتبة الملك فهد الوطنية منذ بداية إنشائها عام ١٤٠٩ هـ، وعين مديراً لإدارة الاقتناء وتنظيم المعلومات من محرَّم ١٤١١ هـ، حتى شهر صفر من عام ١٤١٣ هـ، ومحكِّماً في كتبٍ قليلةٍ حوِّلت إليه، واستقرَّ عمله في إدارة التصنيف والفهرسة مفهرساً ومصنفاً للكتب ومراجعاً لهما. وأثناء إدارته للقسم أصدر نشرة أو مجلة صغيرة بعنوان (الدرَّة)، صدر منها عدة أعداد، وتوقفت باستقالته.

ولم تشغله هذه الوظائف وهذه الأنشطة عن البحث العلمي، والتأليف، وتحقيق كنوز التراث العربي، ويتصف منهجه بالدقة والعمق، وامتلاك أدوات البحث العلمي، فجابت مؤلفاته وأبحاثه ومحققات الآفاق، ويصعب حصرها في هذا المقام الضيق، وسوف نذكر بعضها، ومنها: في التراجم والأعلام، حيث ذيَّل على الأعلام للزركلي بعنوان "تتمة الأعلام للزركلي: وفيات

١٣٩٧- ١٤١٥هـ"- بيروت: دار ابن حزم، ١٤١٨هـ، فى مجلدين، والطبعة الثانية (وفيات ١٣٩٦- ١٤١٥ هـ) يليه مستدرك جديد في مجلد (جـ٣)... دار ابن حزم، ١٤٢٢ هـ، وتجهز الطبعة الثالثة حتى وفيات ١٤٣٣هـ، وتكون في نحو عشرة مجلدات أو أكثر إن شاء الله، [وفيات ١٣٩٦ — ١٤٣٥ هـ، في عشرة أجزاء، صدرت عن دار الوفاق بعدن، في طبعة ثالثة، ورابعة، ١٤٣٧ هـ]، وذيل كذلك على "معجم المؤلفين" لعمر رضا كحالة بعنوان "تكملة معجم المؤلفين: وفيات ١٣٩٧- ١٤١٥هـ"- بيروت: دار ابن حزم، ١٤١٨هـ، ٧٩٤ص.وتجهز لطبعة ثانية.. وتكون في عدة أجزاء إن شاء الله.

وفى تحقيق التراث: منها : "تاج التراجم" لقاسم بن قطلوبغا الحنفي (ت ٨٧٩هـ)، دمشق: دار القلم، ١٤١٣هـ،٥٦٨ص، "المفاضلة بين الغني الشاكر والفقير الصابر" تأليف محمد بن بير علي البيركلي (ت ٩٨١هـ)، و"اللمعات البرقية في النكت التاريخية" تأليف شمس الدين محمد بن علي بن طولون الصالحي (ت ٩٥٣هـ) - بيروت: دار ابن حزم، ١٤١٥هـ، ١٧٦ص، "رفع الريبة عما يجوز وما لا يجوز من الغيبة" محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ) - بيروت: دار ابن حزم، ١٤١٥هـ، ٦٣ص، و"الرقة والبكاء" تأليف موفق الدين عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي (ت ٦٢٠هـ) - دمشق: دار القلم؛ بيروت: الدار الشامية، ١٤١٥هـ، ٥٣٤ ص.

وفى الفهارس نذكر منها: "دليل المؤلفات الإسلامية في المملكة العربية السعودية١٤٠٠- ١٤٠٩هـ"- الرياض: دار الفيصل الثقافية، ١٤١٣هـ، ٧٨١ص، و"الإعلام الإسلامي: ببليوجرافيا بالكتب والرسائل والبحوث الجامعية"- الرياض: دار طويق، ١٤١٤هـ، ١١٧ص، و"المكثرون من التصنيف في القديم والحديث: من صنّف مائة كتاب... فألفاً... فأكثر"- بيروت: دار ابن حزم، ١٤٢١هـ، ١٧٥ ص، و"معجم المؤلفين المعاصرين في آثارهم المخطوطة والمفقودة وما طُبع منها أو حُقِّق بعد وفاتهم: وفيات ١٣١٥ - ١٤٢٤ هـ"- الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤٢٥هـ، ٢ مج (٩٣٤ ص).- السلسلة الثالثة (٥٥).وغيرها..

وحاولنا في حوارنا هذا أن نسأله عن النشأة، وكيف كان له أثرها في حياته العلمية، ومن هم أساتذته خلال رحلته في طلب العلم، وقصة تذييله على كتاب "الأعلام" للزركلي، الذي يعد بمثابة ابن خلكان العصر وكتابه "وفيات الأعيان"، والذيول على كتابه التي امتدت لنحو قرنين

من الزمان، كذلك كان لكتاب الأعلام ذيول مثل: ذيل العلاونة، وذيل نزار أباظة، وذيل ضيفنا محمد خير رمضان، كذلك تحدث عن المعارك التي رافقت هذه الذيول، وناقشنا معه رؤيته لعلم التراجم في الوقت الراهن، ومنهجه في كتابة التراجم، وقضايا تحقيق التراث وكيفية الاستفادة من هذا التراث، وموضوعات أخرى سوف نطالعها في هذا الحوار:

١- بداية حدثنا عن النشأة، وكيف كانت للنشأة أثرها الكبير على حياتك العلمية فيما بعد؟

ولدت في قرية نائية، ونشأت في بلدة اسمها (القحطانية)، وبالكردية (تربه سبي) في شمال شرقي سورية، قرب الحدود التركية والعراقية، أبرز سماتها الجهل! فلم يكن فيها عالم واحد، ولا مكتبة، وفيها مدرِّسان فقط، أحدهما حاصل على الشهادة الابتدائية، والآخر توقف بعد السنة الرابعة الابتدائية، وفيها مدرسة ابتدائية واحدة، يدرِّس فيها معلّمون من المدن الأخرى.

فلم يكن للبيئة تأثير علمي عليّ، بل كل التأثير من والدي، الذي كان يحثني دائمًا على تعلم القرآن الكريم وقراءته، ويحبب إلي العلماء وعلمهم، ويثني عليهم. وكان والده قد منعه من التعلم، فأراد أن يعوِّض ما فاته في ولده.

وقد درَست في تلك البلدة المراحل الدراسية الأولى، وحصلت على الشهادة الثانوية من مدينة قريبة تسمى (القامشلي).

٢- كيف ابتدأ مشوارك في تحصيل العلم؟

بدأت رحلتي الأولى مع العلم بأوراق التقويم (الروزنامه)، ولفائف السلع الخفيفة من أوراق المجلات القديمة، فكان ذلك أنيسي وثقافتي في الصغر. ولما أنشئت المكتبة المدرسية هرعت إليها، ولكن فوجئت بأنها مصادمة للدين والفطرة والأدب، فكانت مؤلفات لزعماء شيوعيين ومنظرين اشتراكيين وقادة أحزاب قوميين علمانيين وأدباء ساعين إلى الفاحشة والرذيلة!

وفي بداية الثانوية بدأت أمخر عباب المجلدات من كتب الجاحظ، ودواوين الشعر القديمة، والقصص الشعبية المعروفة. ولما انخرطت في سلك التعليم الجامعي تعرفت على ثقافة جديدة وكتب مناسبة من مكتبات العاصمة، فأسست مكتبة صغيرة فيها مجلات قديمة وكتب ثقافية إسلامية ومراجع..

٣- أهم الأعلام الذين تتلمذت عليهم وتأثرت بهم وذكرياتك معهم؟

لا يوجد شخص يقرأ كتب الأستاذ سيد قطب عن طواعية إلا ويتأثر بها، فإذا لم يكن متدينًا تأثر بأدبه، فهو رحمه الله قوي الأسلوب، ذو ثقافة واسعة، وفكر عميق، وهو واقعي مؤثّر، ومبدع مجدّد، ومخلص في علمه وعقيدته، ويسخّر مواهبه للحق والدين، ويكتب عن التزام.

ثم وقع بين يدي كتاب (قذائف الحق) للأستاذ محمد الغزالي رحمه الله، فأطللت منه على عالَم جديد في الفكر والثقافة الإسلامية والرد على أعداء الدين.

كما قرأت معظم كتب العلامة مصطفى صادق الرافعي، وكثيرًا من روايات الأديب نجيب الكيلاني رحمه الله، وملأ قلبي كتاب إحياء علوم الدين، وارتقيت فكريًّا بكتب أبي الأعلى المودودي، ومالك بن نبي..

وكان كل تأثري بجوانب مما كتبوا فيه، وليس تقليدًا لأحد منهم، أو تعصبًا له، أو الوقوف عنده دون غيره.

ولم أقرأ على شيوخ العلم، لكن حضرتُ مجالسهم، وأجازني شيخي علوان حقي إجازة عامة، وكنت مترددًا في قبولها، فلست من طبقة العلماء.

٤- الأستاذ خير الدين الزركلى كان بمثابة (ابن خلكان العصر)، وكان لكتابه "الأعلام" ذيول عديدة، منها تذييلكم عليه.. ما المنهج الذى انتهجته في هذا الذيل؟

أذكر أولًا أنني لم أتبع منهج الزركلي، كما لا أتبع منهج أحد أو أسلوبه في كتاباتي، ولو فعلت لفشلت. ولست بدعًا في هذا، فقد أكمل السخاوي تراجم شيخه ابن حجر ولم يتبع نهجه، ففرق كبير بين (إنباء الغمر) و(الضوء اللامع)، وهكذا.

أما النهج الذي اتبعته فقد حكيته في مقدمة (تتمة الأعلام) وهو طويل بعض الشيء، كما ذيلت الكتاب بمقال طويل في آخره بعنوان (مقالة في التراجم)، بينت فيها ما يلزم اتباعه لمن تصدّى لعمل تراجم للأعلام، وهو في (١٤) بندًا، وكلها من صنعي وتجربتي، وهي تتعلق بتحري الاسم، وسنتي الولادة والوفاة، والمكان والنشأة، والدراسة والرحلات والأعمال، والتخصص، ومن أخذ منهم المترجم له وصاحَبهم، والمناصب التي اعتلاها، وعقيدته ومنهجه في الحياة، وهو ما ركزت عليه بكل ما أوتيت من علم وثقافة، وقلت في المقال حول هذا:

"إن هذا ما يريده الجميع، فكل يحبُّ مذهبه ومعتقده، ويريد أن يعرف هل هذا الشخص معه أو ضده؟ وهو مهم لمن يتصدَّى للتراجم من الإسلاميين، ليبيّنوا للقارئ المسلم حقيقة من يقرأ له أو يسمع به، فيحبه أو يحذره، وكان هذا منهج سلفنا في كتابة التراجم، وهو قريب من منهج الجرح والتعديل، فيذكرون الفرقة التي ينتمي إليها الشخص بكل وضوح، كأن يكون شيعياً، أو معتزلياً، أو جهمياً، أو حتى من مذاهب فقهية، إن كان مالكياً، أو حنفياً..

ولا أعرف لماذا يتحرَّج بعض الناس من ذكر ذلك وقد كرَّس المترجم له حياته كلها لمذهبه ومنهجه؟ ويدعو الناس إليه ويفتخر به، ويريد أن يعرفه الناس بهذا، فلماذا لا يقال ذلك في ترجمته وقد صبغ حياته به"؟

ثم تذكر آثاره العلمية وما إلى ذلك...

٥- المعارك التي صاحبت ظهور ذيول الأعلام؟

ظهرت هذه المعارك لأهمية الكتاب الأصل (الأعلام) وموت صاحبه الأستاذ (خير الدين الزركلي)، فبدأ المثقفون والباحثون يتحسسون ما ظهر من البديل الجديد وتكملاته، وهل هي في درجته أم لا؟ وكان كتابي (تتمة الأعلام) أول ما ظهر من هذه الذيول، الذي صدرت طبعته الثالثة عام ١٤٣٦ هـ [وصدرت طبعته الرابعة عام ١٤٣٧ هـ] في عشرة أجزاء. وتسرّع بعض الناس في إبداء آرائهم، فمنهم من أصاب ومنهم من أخطأ، ومنه من تعدَّى ومَن أنصف. ولم

أتدخل في شيء مما جرى ولا بكتابة حرف، فالكلمة ليست لأصحاب الذيول، ولهم الدفاع عن أنفسهم فقط، ولكن الكلمة هي للنقّاد الخبراء أصحاب الضمائر المنصفين، وقد تفلح في هذا دراسات وبحوث أكاديمية.

٦- كيف ترى علم التراجم اليوم فى ظل هيمنه الأفكار المستوردة والتى أثرت جدياً على الثقافة العربية وعلى علم التاريخ والتراجم بالأخص؟

الحمد لله، مازال علم التراجم أكثره بيد أصحابه من الكتّاب الأمناء على تراث الأمة ورجالها، والدخيل في هذا هو من قلَّد ولم ينظر إلى نهج الآباء، وفيه من المفيد الكثير، أما من استفاد من الاثنين فلا بأس، ولكن المهم الأمانة، وبيان نهج المترجم له، وعقيدته، كما بينت من قبل. ومن المؤسف أن الذي صاحبَ الزيف والبهتان والكذب في التأريخ للأحداث والقيادات والزعماء، هم الذين استأثروا بالسلطة غصبًا عن الشعب، وحكموا بالكلمة الواحدة والجبر والقهر، واستغلوا كل مقدرات الدولة وقوتها لصالح كرسي الحاكم وأصحاب النفوذ ممن شايعه، ولم يسمح لأحد بالزيادة عليه، فكانت الأبواق كلها من فمه إلى أذنه!
وكما قلت في مقدمة التتمة: " والذين يصنعون هذا ويكرِّسونه ويدافعون عنه هم «الأعلام» البارزون فيها، والذين يساندونهم ويقودونهم هم الإعلاميون والصحفيون والمذيعون والأدباء والمؤلفون ومن إليهم، ممن يصبِّحوننا ويمسُّوننا بوجوههم وأقلامهم رغمًا عنا! ويُقَدَّمون على أنهم هم القلمُ الفذّ، والعبقريةُ المبهرة، والثقافةُ العظيمة، والأدبُ الجديرُ به، والقدوةُ الواجبُ اتباعها، وما هم إلا ظَلَمة أو ظلالٌ لهم، لا يتكلمون إلا بما يُرضي سادتهم، وفي رؤوس أقلامهم السمُّ الزعاف، وعلى أطراف ألسنتهم الكذبُ والخداع، وفي قلوبهم الغدرُ والنفاق، يملؤون سماء ثقافتنا بالنظريات الهدامة، والفكر التغريبي، والتدجيل الإعلامي...".

٧- منهجك فى التراجم والسير، هل هناك مؤثرات غربية ؟ أم هي إسلامية صافية؟

أما المؤثرات الغربية فقطعًا لا، أما الإسلامية (الصافية) فأرجو.

والسمة الإسلامية البارزة في عمل الترجمة هي الصدق، هي قول الحقيقة، وإعطاء التصور الصحيح الشامل للشخصية المترجم لها، هي بيان النهج الذي كان يسير عليه. ولم يتأتّ لي هذا في كل من ترجمت له، فلست مطلعًا على أحوال كل الناس، ولا كل ما كتبوه، ولكن أبحث، وأكتب على قدر ما أعرف، ولا أدَّعي ولا أكذب، ولو كان من أترجم له عدوًّا. وإذا نقلت وثَّقت، ليُعلم أن هذا القول من مصدره.

وقد لا تُعطى الترجمة حقها لأسباب، منها أن المترجم له مات مغمورًا، ولا تلامذة له، أو لم تصل ما كتبوه إلى أصحاب الشأن ممن أرَّخوا له.

٨- لكم مصنفات عديدة حول تاريخ المرأة ودورها العلمي في الحضارة الإسلامية، كيف رأيتها؟ وما الدوافع التي جعلتك تؤلف هذه المصنفات النفيسة؟

لا دافع لي سوى العلم. فرأيت اهتمامها بالعلم والتربية والأخلاق، فترجمت لها وبيَّنت أمرها وذكرت شأنها.

وقد لاحظت قلة المؤلِّفات في التاريخ الإسلامي، وذكرت أني لم أقف سوى على ترجمة (٣٦) مؤلفة على مدى التاريخ الإسلامي حتى عام ١٢٠٠ هـ، في كتابي (المؤلِّفات من النساء ومؤلَّفاتهن في التاريخ الإسلامي). ثم اجتهدت في بيان أسباب ذلك، وأن الناظر في حال المرأة في المجتمعات الغربية يلاحظ أيضًا قلة النساء المؤلِّفات بالنسبة إلى الرجال.

وقد تبيَّن لي أن اهتمام المرأة بالعلم وجدارتها ونبوغها في بعض العلوم يعود إلى حال الأسر واهتماماتها العلمية، وإلى بيئتها بشكل عام، وأن أبرز أسباب انصرافها عن المضي في طريق العلم هو لانشغالها بأمور الأمومة العظيمة، فهي رسالتها الأساسية، وهذا ما يلاحظ عليها حتى اليوم، مع النظر في حال بيئات وعادات.

٩- لك تجارب في الصحافة مصححًا ومحررًا، كيف ترى دور الصحافة فى تأكيد دور التراث العلمي للحضارة الإسلامية؟

إن الصحافة هي لسان العلم الطويل، إذا كانت مسدَّدة وليست مدفوعة لأمور أخرى، فهي التي تستطيع أن تصل إلى لبّ الشباب، وعقول العلماء، وقلوب العامة، فتلفت نظرهم إلى المفيد من العلوم، مما يصلح النفوس والمجتمعات، ويبني حضارات ومدنيات، ويرفع بيوت العزّ والكرم. وهذا ما كان عليه أجدادنا، فكانوا أساتذة العالم، وبُناة حضارة، وسلاطين العلم والتجارب، ولذلك كانوا جديرين بالحياة، أعزة، وقمة في السيادة، وفي التعليم والتعلم.

١٠- كيف ترى تحقيق التراث في العالم العربي والإسلامي؟

لقد حُققت أمهات الكتب في العلوم الإسلامية وغيرها منذ سنوات، وحدثت طفرة عظيمة في تحقيق كتب تراثية جديدة بعد أن أنزلت ألوف المخطوطات في الشبكة العالمية للمعلومات، ثم صارت تخفّ شيئًا فشيئًا. لكن الملاحظ هو تحقيق كتب سبق أن حققت بأفضل من الجديد، وكأن الناس تحب الجديد ولو كان على حساب الجودة والتحقيق العلمي!!

ومما يؤلمني هو تفاخر بعض المحققين بتحقيقاتهم وبيان تميزها على غيرها، وهم لا يحسنون الكتابة السليمة، فيخلطون بين المرفوع والمنصوب، وربما المذكر والمؤنث، ولا يضبطون النص، وإذا ضبطوه أتوا على السهل وتركوا الصعب، وكتبوا مقدمة سقيمة يُعرف بها درجتهم في العلم والمعرفة.

١١- كيف نستفيد من تراثنا العظيم؟

بتسهيل إيصال المخطوطات إلى أيدي الباحثين والجديرين بالتحقيق، لتحقيقها تحقيقًا سليمًا، والتعليق على ما يلزم منها، ومقارنة معلومات فيها بما جدّ، والإعلان عما حقق منها، والاستشهاد بمضامينها، وبيان ما فيها من فوائد، وتسهيل وصول الكتب إلى طلبة العلم والعلماء، وتقدير المهتمين بالتراث الإسلامي، والإشادة بهم وبجهودهم، لتشجيعهم، وعدم المتاجرة بالعلم على حساب الأمانة العلمية وتبليغ الرسالة العظيمة. وعمل مسارد ومخازن وأنظمة إلكترونية خاصة بكتب التراث الإسلامي، لمعرفة أماكن وجودها، ومعرفة ما حقق منها وما لم يحقق..

(نشر في شبكة الألوكة، وأوردت نص الحوار كاملًا، فقد حُذفت منه جمل وعبارات).

ثم نشر في مجلة المختار الإسلامي، أحد أعداد ١٤٤١ هـ، ٢٠٢٠ م، ولم أقارن بينه وبين هذا.

***　　***　　***

والحمد لله رب العالمين

***　　***　　***

فهرس الجزء الرابع

الموضوع **الصفحة**

ثالثًا: علوم الحديث

رابعًا: العقيدة والفرق والمذاهب الفكرية

(١) العقيدة

(٢) الفِرَق

(٣) الإسلام والمذاهب الفكرية

خامسًا: الفقه الإسلامي

الباب الثالث
علم النفس وما إليه

الباب الرابع
العلوم الاجتماعية والسياسية...

علم الاجتماع

الثقافة والإعلام

السياسة

التربية والتعليم

الباب الخامس

اللغة العربية

الباب السادس
العلوم (الطب)

الباب السابع
الأدب

الباب الثامن
التاريخ والتراجم

أولًا: التاريخ

ثانيًا: التراجم